أُمَانُوس



الكتـــــاب : أمانوس

المـــؤلـــف :حنان لاشين

تـدقيـق لغـوي: وسام محمد نبيل

تنسيـق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: ينـــايـــر 2019

رقـــم الإيـــداع : 2018/27096

978-977-6541-49-5 : I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

عصير الكتب للنشر والتوزيع



حنان لاشين



إهداء

إلى الجناحين

إن كُنت تتابع معنا سلسلة مملكة البلاغة ووصلت للجزء الثالث فحتمًا أنت مُحارب، أكاد أنظر إلى عينيك وأنت تقرأ كلماتي، أرى الشّغف والشوق إلى مغامرة جديدة يطلّ منهما، فمرحبًا بك. ما زالت مملكة البلاغة تستدعي المحاربين للدفاع عن الكتب، وعن القيم، وعن طُهر الكلمات التي دوّنت بين دفّتي تلك الكتب، والمحاربون يتهيئون هنا وهناك، وفي لحظة فارقة، وفجأة، سيظهر لك الرّمز كما ظهر لغيرك، وستدور الكُتب حولك في الهواء، وسترى صورتك في كتاب خلت صفحاته من الكلمات، سيقشعرّ بدنك، وستتسارع دقّات قلبك، وستركض نحو أبيك أو جدّك وأنت تحمل الكتاب الذي قام باختيارك، أنت بالذّات، وسيزورك صقر مهيب يخفق بجناحيه ليحملك إلى هناك، ستفاجأ أنّه يُحدّثك بلغة البشر، فلا تقلق عندما يصعد فوق رأسك، ولا تجزع عندما يغطي عينيك بريش جناحيه، فقد حان الوقت، وسترحل إلى «مملكة البلاغة»، حيث الضباب يلف كلّ شيء هناك، ستشعر دائمًا بالبرودة، الطيور هناك يغطيها ريشٌ غريب الشكل واللون، ستجدها أكبر حجمًا مما هي عليه هنا، الأشخاص غريبو الأطوار والهيئة والملابس، وكأنّ كلَّ مجموعة منهم أتت من حقبة زمنية مختلفة، وهناك من جمعهم فجأة من أزمنتهم أو استدعاهم لمهمة ما، كما ستنتقل أنت إلى هناك، فهل أنت مستعد؟

أطلق لخيالك العنان، وحلّق معنا في رحاب تلك المملكة العجيبة، ودعني أكشف لك أسرارًا أخرى عن عوالمها التي تضجّ بالمغامرات، ولكن قبل أن نبدأ، دعني أحذّرك، عندما تقتني كتابًا عتيقًا أوراقه مصفرّة وباهتة، لا تُردد الطلاسم المنقوشة بالحبر الأحمر على هوامشه أبدًا، وخاصّة إن كُنت وحدك!

د.حنان لاشين

مملكة البلاغة

قبلة من شَمس الصّباح على رؤوس الجبال كانت كافية لتُلبسها تيجانًا من فضّة، غابة «البيلسان» تبدو فاتنة وكأنّها عروس تستعدّ للزفاف، ألقت أشعة الشّمس على ردائها السندسي انعكاسات ذهبيّة خلّابة، نثرت الفراشات أجنحتها الملوّنة على أطراف الرّداء الأخضر، وبدأ حفل الزّفاف. تداخلت شقشقة العصافير مع صوت هدير البحر القريب، فانطلقت الغيمات ترقص بغنج على صدر السّماء، مال سعف النّخيل الأخضر بدلال وكأنّه يلوّح للحاضرين، واستدارت زهرات دوّار الشّمس في آن واحد وكأنهن يراقبن فارس الأحلام وهو يتبختر مقتربًا من عروسه، وبرزت الورود الحمراء بأوراقها المغلقة وكأنّها تمنح النّاظرين قبلة من ثغرها الفتّان قبل أن تتفتّح أوراقها بدلال، اهتزّت أشجار الياسمين فهطل بعضه برشاقة على الأرض ليفرش الطريق، مرّ الفارس متعلّقًا بوشائجه، ولم يلتفت، كان واثق الخطى، لكنّه كثير النسيان، غاب عن عينيها، فعادت تنتظره على استحياء. على حين غفلة حجبت غيمة من الغيمات العالقة في السماء وجه الشّمس، فانطفأ البريق شيئًا ما، وارتعش خيط رفيع من لُجين في حضن السّماء، إنّه البرق يضوي على استحياء، أرسلت السماء ماءها الهتون بحنوّ، فانسكبت ألوان الطيف السّبعة على جدران قصور «مملكة البلاغة»، وبللت زخّات المطر أسوار القلاع، حتى البراكين سعلت بصوت خافت لتبعثر دخانها قبل أن يزداد المطر، ما زال النّهر الفيروزي يجري بمائه الريّان الأخضر، وما زالت زُمرة الخيول تركض

في تناغم بديع، حتّى أشجار الغابة المسحورة ما زالت تصدر أنينًا كلّما حنّت للذكريات. هنا وعلى هذه الأرض تدور الرّياح، تحمل الأخبار، وتنقل الأسرار، وتفتّش عن المُحاربين، وعلى ارتفاع شاهق تدور الصّقور، ضربة بجناحين قد تعني الكثير لمحارب، وضربة أخرى قد تُنهي رحلته، وما حياتنا إلّا أجنحة، تخفق وتسكن، تتشابك وتنفصل، تقترب وتبتعد. أبيض، أسود، أصهب، أشقر، رغم اختلاف ألوانها لن تختلف، تتأرجح فوق التلال، وصافّات حول القمم، ثُمّ يقبضن ما بسطن أعلى القصور، وقد يتركن البحر رهوًا ويلجأن للغابات، تحمل الخير تارة، أو تحمل الشرّ تارة، وقد تحمل الخير على جناح، والشرّ على الآخر، جناح ملائكي، وآخر شيطانيّ، فيطير الضدّان معًا. وتبقى لحظة الانطلاق هي الأصعب.

وفجأة! انبثق صوت الرّعد يزلزل الأجواء، شقّ البرق صفحة السّماء بقسوة، وهبّت عاصفة شديدة أزاحت الغيمات بعنفوان، ثار البحر اللازورديّ كالبركان، وعلا موجه كالجبال، وبدأ المطر يهطل بغزارة ويغرق كلّ شيء، سكن أهل مملكة البلاغة، وغلّقت الأبواب، ودوّى صوت غريب ارتجّت له الأجواء...

برز «الرّمادي» بلونه الأردوازي بين الصفوف، كان يضمّ جناحيه المبرقشين وكأنّه يتلفّع بعباءة صوفية ويقف في خشوع، عيناه الواسعتان كانتا تبرقان كقطعتين من الألماس كلّما أضاءت السماء بأنوار البروق المتتالية، وكانت الصقور تفد من كلّ حدب وصوب تجاه حديقة المكتبة العظمى، بينما وقف أمامهم حرّاس المكتبة بلحاهم البيضاء وقاماتهم الطّويلة تحت ماء المطر في كوكبة مهيبة ينتظرون وصول بقيّة الطيور، اصطفّت الصقور المبتلّة بالماء كالبنيان المرصوص، وقبض كلّ منهم جناحيه وألصقهما بجسده، توافدت الهداهد، فخفق قلب «الرّماديّ»، التقت عيناه بعيني الهدهد «بُرهان»، هزّ كلّ منهما رأسه للآخر في تحيّة صامته، تلك الإيماءة البسيطة كانت تشي بالكثير من المعاني، وقفا

ينصتان إلى السيّد «وضّاح»، الذي أزاح القلنسوة عن رأسه، وفتح فمه بعد صمت طويل ليبدأ حديثه، دوّى صوته المهيب بالكلمات، فاشرأبت الأعناق، وشخصت العيون تجاهه، هناك خطب جلل، ولا بدّ من الحذر!

1
«مِسكة»

أصوات غامضة تنبعث من الشقّة رقم عشرة القابعة بالطابق الخامس من البناية العتيقة التي تتوسّط شَارع التحرير، القطة السوداء بالداخل لا تتوقف عن المواء، الجارة الحسناء القاطنة في الشقة المقابلة تقول إنّها سمعت جلبة وصرخات غريبة أخافتها خلال الليلة الماضية، لكنها لم تسأل عن جارتها «مسْكة» والتي لا تعرف عنها شيئًا سوى اسمها الأوّل، فقد انتقلت تلك الشابَة مع زوجها حديثًا للبناية منذ فترة وجيزة، حارس البناية بدأ يشعر بالقلق عندما أخبرته تلك الشّابة عمّا سمعته، حاول أن يهاتف السيّدة «مسكة» مرارًا وتكرارًا حتى وهو يقف أمام باب شقّتها، آخر حوار بينهما كَان منذ عدّة أيام حول تلك الرسالة التي أكّدت عليه أن يرسلها بالبريد، وقد فعل. كان يسمع صوت رنين الهاتف وهو يتصاعد، وينتظر أمام الباب حتى ينقطع صوته، بعد ساعات حاول الاتصال مرّة أخرى لكنّ الهاتف توقف عن الرنين وكأنّها أغلقته فجأة! صارت أجواء البناية تعبق برائحة غريبة تشبه رائحة الجلد المحترق، والقطّة في الداخل تقترب من الباب وتنبش بمخالبها محاولة فتحه وهي تصدر أصواتًا مُخيفة، قرر سكان البناية استدعاء الشرطة، وبالفعل وصل الضابط المكلّف بالمهمة ومعه بعض أعضاء الشرطة وتم كسر الباب واقتحام الشقة. فور أن فُتح الباب قفزت القطّة السوداء في وجه

الشرطي الذي كسر القفل فأفزعته، انطلقت هاربة كأنّها كانت تترقب تلك اللحظة، أربكتهم جميعًا وهي تركض على الدرج، كانت الشّقة ساكنة ومهيبة كالمقبرة، تجولوا بحذر في الغرفات التي بعثرت القطة القمامة على أرضها بحثًا عن شيء تأكله، في غرفة المكتب كانت «مسكة» ممددةً على الأرض وعيناها مفتوحتان على وسعهما، كان وجهها جامدًا تعلوه مسحة رعب وكأنّها رأت ما أفزعها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، بجوارها كان هناك كتاب مفتوح على صفحة محددة، على هامشها نُقشت كلمات غريبة بحبر أحمر كرزي، كانت الكلمات مكررةً ثلاث مرّات، يبدو أنّه كتابٌ عتيق، فالأوراق مصفَرَّة وباهتة، على الدرج وحول البناية تجمهر أهل الحيّ يسألون عمّا حدث، وسط تلك الوجوه التي كان الفضول يطلّ من أعينها كان وجه «يُوسف» ووجه «أنس» الأكثر قلقًا، فقد وصلت رسالة «مسكة» لـ«يُوسف» بالبريد منذ ساعات، وفور قراءتها انطلق مع «أنس» تجاه بيت «مِسكة»، لكنّ أقدار اللّه سبقتهما إليها.

رسالة «مِسكة»

عزيزي «يُوسف»، لعلّك الآن أكثر سعادة من ذي قبل، ولعلّك تخليت عن أحزانك مع معطفك الذي منحته لـ«مُوراي» قبل أن تترك البستان، ووجدت الآن سعادتك مع حبيبتك «حبيبة»، وأمّا بعد؛

لعلّك تتعجّب من اسمي المدوّن على المظروف، نعم؛ أنا «مِسكة» تلك التي التقيت بها هناك، لكنني لست هي! من حقّك أن ترفعَ حاجبيك وتتعجّب من هذا التناقض، ولكن اتركني أخبرك بما حدث بالتفصيل.

منذ عامين، خرجت من بيتي على عجل، كان الشارع ضيّقًا تفوح منه رائحة الرطوبة، الوجوه الواجمة تراقبني بفضول شديد، حالة من الغموض

تظلل جدران الأبنية حولي، قُبلة حانية من شمس الغروب كانت كافية لتلبس قمم البنايات تيجانًا بلون الشّفق، رفعتُ رأسي وجُلت بناظري في السماء أراقب ندف السحاب الهشّة المتناثرة هنا وهناك، كُنّا في ديسمبر وكُنت أشعر بالبرد، لكنني أحسست فجأة بحرارة شديدة تجتاح جسدي كلّه فور أن انعطف بي المسار تجاه بيت هذا الشاب غريب الأطوار، حتى رذاذ المطر الخفيف الذي بدأ يغطى زجاج السيارات القديمة حولي لم يخفف أبدًا عنّي! لم يكُن من السهل عليّ زيارة هذا الشّاب وحدي بينما كُنت أعدُّ لروايتي الجديدة، عندما قررت أن أكتب رواية شائقة تجذب الانتباه، فالجيل الحالي يهتم بأدب الرعب، ولن يحدّثني عن الجنّ وتلك الأمور الغامضة غير هذا الشّاب، فقد عرّفني عليه صاحب متجر الكتب المستعملة الذي كُنت أزوره من آن لآخر لأفتّش عن الكتب العتيقة، التي يتخلّص منها البعض وهم لا يعرفون قدرها فيلقونها في القمامة أو يبيعونها كخردة لا قيمة لها، زاهدين فيها، ولو أدركوا قيمتها الحقيقية لَمَا تخلّوا عنها أبدًا، وكُنت أعثر لديه على كنوز! فاقتنيتها بسعر زهيد. في إحدى زياراتي له كُنت أفتّش عن كتب تتحدّث عن خوارق الطبيعة وفنون السحر، وأسرار عالم الجنّ، وقضيت وقتًا طويلًا لديه حتى أنّه أحضر لي مقعدًا خشبيًا عتيقًا وفنجانًا من القهوة، فارتديت عويناتي وجلست أبحث بهدوء وروية، عثرت على كتاب عجيب، كان عنوانه أكثر ما أثار تعجّبي، حتى أنني أجفلت من مجرّد ترديدي لعنوانه بلساني» القَلْقَديس«! مررت بأناملي على اسمه المنقوش ببروز فوق غلافه الجلديّ بلونه الذي يُشبه الصّدأ، وغرقت في القراءة حتى أنني لم ألحظ هذا الشاب النحيف ذا العينين الجاحظتين، الذي كان يحدّق في كومة الكتب التي جمعتها ويقرأ عناوينها بتركيز شديد وأنا أنفض عنها التراب، اقترب بحذر وسألني بفضول:

- عفوًا سيّدتي، هل ستشترين هذه الكُتب؟

-نعم.

-وكتاب «القَلْقَدِيس» أيضًا؟

-نعم!

هزّ رأسه وتراجع للخلف خطوة، وسُرعان ما عاد يخطوها للأمام مرّة أخرى ليسألني وهو يغضن جبينه:

-هل تعدّين لرسالة الدكتوراة الخاصّة بك؟

ثُمّ رفع حاجبيه الكثيفين وأردف باهتمام:

-أستطيع أن أساعدك، فهذه العناوين بالذّات تهمّني ولديّ في مكتبتي المتواضعة الكثير من الكتب تخصّ تلك الأمور، في الحقيقة أنا شغوف بهذا النوع من الكتب.

رفعت رأسي فالتقت عيناي بعينيه المريبتين، كان يرتدي قلادة على شكل جمجمة، أمّا رأسه فكانت تحمل شعرًا كثيفًا ومجعدًا يشبه الفرشاة، بدا لي وكأنّه لم يزر الحلاق منذ شهور، وكان لون بشرته مشربًا بصفرة غريبة! لفت نظري هذا الوشم الغريب الذي كان منقوشًا على الجانب الأيمن من عنقه، لا أدري لماذا خفت منه، ازدردت ريقي وحاولت إخفاء اضطرابي وقلت بوضوح:

-أنا كاتبة، وأعدّ لروايتي الجديدة.

زمّ شفتيه وضوى في عينيه بريقٌ غريب، ثُمّ أطلّت على وجهه ابتسامة مريبة لتكشف اللثام عن أسنانه الصفراء المعوجّة وقال:

-رواية رعب؟

قُلت بتوتّر:

-تقريبًا.

-ما اسمك يا سيّدتي؟

-«مِسكة»

لوى شفتيه مستنكرًا وقال:

-لم أسمع عنك من قبل!

-لأنني أكتب باسم مستعار.

قال بنَزَق:

-تخشين مواجهة القراء إذًا!

ترددتُ هنيهة بعد أن استفزّتني كلماته، كدت أقول له شيئًا ما يُخرسه، لكنني اكتفيت بالصمت، عاد يسألني وهو يدور حول مقعدي بشكل مريب:

-ما اسمك المستعار؟ لعلّي قرأت لكِ! فأنا من عشّاق أدب الرّعب!

لم أجبه، وتصنّعت الاشتغال بما بين يديّ من الكتب وتجاهلته، ابتعد عني وبدأ يثرثر مع صاحب المتجر الذي بدا لي وكأنّه يعرفه جيّدًا، كان يبحث عن كتاب محدد، ووجده بالفعل، التقط هذا الشّاب الكتاب ونقّد صاحب المتجر ثمنه وخرج بعد أن رماني بنظرة ناقمة تصحبها ابتسامة خبيثة! ربّما لأنني تجاهلته.

جلست أفتش عن الجزء الأوّل من كتاب «القَلْقَدِيس»الذي بين يديّ، فهو يبدو شيقًا للغاية، ولا بدّ أن الجزء الأوّل أكثر تشويقًا منه، كان الكتاب يتحدّث عن السحر وخوارق الطبيعة، وقصص غامضة حدثت بالفعل ولم يجد أحد لها تفسيرًا حتى الآن، سألت البائع عن الجزء الآخر الذي ذّكر في الكتاب أنّ اسمه «القُلْقُطار»، فالتقط الكتاب وقلّبه بين يديه وقال بصوته المتحشرج:

-أظنّ «القُلْقُطار» عند «حسّان»!

-ومن هو «حسّان»؟

قال:

-هذا الشّاب الذي كان هنا منذ قليل يا سيّدتي، كان والده -رحمه اللّه- صديقًا عزيزًا لي، وهو يهتم بتلك الأمور، لو قُمتِ بزيارة مكتبته ستجدين حتمًا ما يعينك على كتابة روايتك..

طالعته متعجبةً فهزّ رأسه وقال على استحياء:

-اعذريني فلقد سمعتكما وأنتما تتحدّثان، لم أكن على علم بأنّك كاتبة روائية!

قلت بثقة:

-لا..لا أرغب في زيارة مكتبته.

هز البائع كتفيه وقال:

-كما تحبين!

-لكنك ستحضر لي كتاب «القُلْقُطار» منه..أليس كذلك؟

هزّ كتفيه وهو يقول:

-ربّما!

-ومن فضلك، لا تخبره أن هذا الكتاب لي.

-حسنًا سأحاول، وعلى كل حال هو سيعود كعادته بعد يوم أو يومين.

-سأترك لك رقم هاتفي، ولو وجدت الكتاب عنده سأشتريه منه بأيّ سعر يطلبه.

خرجت من متجر الكتب وخلفي صاحب المتجر الذي صمم على حمل الكتب التي اشتريتها منه ليساعدني حتى ركبت في سيارة أجرة، فلقد منحته مبلغًا مرضيًا من المال وقد سَرّهُ هذا للغاية.

عدت إلى بيتي أحمل الكثير من الكتب، ومرّت أيّام كُنت فيها غارقة في القراءة، عندما رنّ هاتفي فأجبت ليأتي صوت صاحب متجر الكتب المتحشرج على الطرف الآخر، والذي أخبرني أنّ كتاب «القُلْقُطار» موجود

بالفعل عند «حسّان»، وأنّه أدرك أنني طلبت هذا الكتاب دون أن يخبره، وهو يدعوني لزيارته والاطلاع على ما لديه من الكُتب، قلت بعصبية لم أنجح في إخفائها:

-قُلت لك أنني لا أريد زيارة هذا الشاب غريب الأطوار!

قال بضيق:

-وهو يرفض بيع كتاب «القُلْقُطار»، وسيسمح لك باستعارته فقط لفترة وجيزة، ولكن بشرط!

-وما هو هذا الشرط؟

-أن تستبدليه معه فهو أيضًا يُريد الجزء الذي تملكينه، لقد طلب كتاب «القَلْقَدِيس»!

استشطت غضبًا وقلت:

-هل من الممكن الحصول على نسخة أخرى؟ قد تجدها عند رفاقك من أصحاب متاجر الكتب الأخرى.

قال بخفوت:

-في الحقيقة نحن لا نملك قوائمَ بأسماء تلك الكتب.

ثُم أضاف بتهكّم:

- نحن نشتريها بالكيلو يا سيدتي، يصعب عليّ البحث عن الكتاب، كما أنني لا أحب القراءة!

أزعجني ردّه فقلت باستنكار:

-وتبيع الكتب!

ردّ بحنق قائلًا:

- لقمة العيش يا سيّدتي!

ثُمّ أردف متسائلًا:

-لماذا ترفضين زيارته؟ فضلًا قومي بهذا جبرًا لخاطره، لا يغرّنك مظهره، فهو شابٌ مثقف جدًا وزيارتك ستُسعد والدته القعيدة، فهو يخدمها بنفسه ويلازمها طويلا ويتسلّى بقراءة الكُتب.

كدت أرد عليه بالرفض، لكنّ الكلمات تلاشت على شفتيّ، فقد تأثّرت لحالهما وقررت زيارتهما بعد أن أخبرني بظروفهما فرقّ قلبي لهما.

نسيت أن أخبرك يا «يُوسف»، أنا وحيدة للغاية، وحدتي لا تشبه أبدًا وحدتك التي كُنت تعيشها قبل لقائك بـ«حبيبة»، بعد وفاة زوجي منذ سنوات لم يبق لي إلّا الكُتب، فقد هاجر شقيقي الوحيد إلى «كندا» قبل زواجي حتى أنّه لم يلتق أبدًا بزوجي، لم أرزق بذرية تؤنسني، كُنت في أمس الحاجة لمن يحتضنني ويربّت على كتفي، فقد كان جرح قلبي عميقًا للغاية، لجأت للكتابة، فهي ملاذي الوحيد، وقد أنقذتني مما غرقت فيه من هموم. كنت أقضي الكثير من الوقت في الخربشة على الورق، تلك النّصوص تُمثّلني، تحكيني كقصّة بائسة، ربّما أنا بطلتها الوحيدة! كُنت أستمتع بردود أفعال القرّاء، أكتب، وأنتظرهم ليُخبروني بآرائهم، ثُمّ أكتب، وأنتظرهم! أتدري؟ حتّى الخيال، عندما أكتبه يصدقونه رغم أنّهم يعلمون منذ السطر الأوّل في الرّواية أنّها خيالٌ في خيال، فهم يصدّقون هذا الخيال، ويغرقون فيه، ويعودون لِسؤالي... «هل هذه القصّة مقتبسة من أحداث واقعية أم لا؟»، وعندما أُجيبهم...«لا، وهذه الأحداث من خيالي»، يقولون: «لا نُصدّقك، هذه قصّة حقيقية، نحن نعرف هذا جيدًا!»

المهم، زُرت «حسّان» هذا بالفعل، كانت شقّته في الدور الأخير من البناية العتيقة التي خشيت أن تسقط وأنا أصعد درجها الذي كان يهتزّ من وقع خطواتي الضعيفة، مرّت قطة سوداء بجواري فجأة ففزعت واقشعرّ بدني، لن أنسى أبدًا عينيها الخضراوين وهي تلمع وسط عتمة

الدّرج، رأيت أمّ «حسّان»، لكنّها لم تتحدّث إلّا لردّ السّلام، لا أدري لماذا كان الخوف يسكن عينيها، حدّثني «حسّان» عن مكتبته وكتبه، كان ثرثارًا ولا يترك لمن أمامه الفرصة لكي يتحدّث، فجلست أنصت إليه، ولمّا شعرت أنّه انتهى وأفرغ ما بجعبته، طلبت الكتاب لكي أنصرف، وأعارني كتاب «القُلْقُطار»[1] بالفعل، ولكن بعد أن تأكّد أن كتاب «القَلْقَديس»[2] بين يديه، كان يصرّ على هذا بشكل غريب ولافت للنظر، وقد أخبرني أن «القُلْقُطار» و«القَلْقَدِيس» لا يجتمعان أبدًا في مكان واحد! فرأيت هذا التصرف حرصًا منه على كتابه الذي سآخذه، كي يتأكّد أنني سأعيده في وقت لاحقٍ، فقبلت طلبه ليطمئن قلبه.

عُدت لبيتي وبدأت أقرأ «القُلْقُطار»،كان الكتاب غريبًا وغامضًا، حتى ملمس جلدته كان يشبه ملمس الجلد الحيّ، ورائحة أوراقه تشبه رائحة أنفاس البشر، شعرت وكأنّه كائن حيّ ينبض بالحياة ويحاول التواصل معي، لكنّه كائن خبيث، كنت أشعر بانقباض في صدري كلّما لامسته أو قرأتُ فيه، كدت أتركه وألغي فكرة كتابة روايتي الجديدة عن الرعب، حاولت النهوض وإغلاقه، لكنني وجدت نفسي أكمل القراءة رغم أنفي، شيءٌ ما يجذبني إليه كالمغناطيس، لقد أسرت!

قضيت ساعات طويلة أتصفحه، حتى عثرت على كلمات منقوشة على هامش أحد أوراقه بخطّ صغير جدًا وبحبر أحمر كرزي، كانت كلمات غريبة مكررة ثلاث مرّات، اقتربت من الصفحة وحدّقت في حروف الكلمات لأتمكن من قراءتها، وللأسف رددتها بصوت مسموع، فاهتزّت الأرض تحت أقدامي، وتلاعبت أمام عيني فجوة سوداء معلّقة في الهواء، ثُمّ ظهر لي فجأة هذا المخلوق المخيف في غرفتي بقلب بيتي الذي شعرت للحظات أنّه تحول إلى فضاءٍ واسع، كان هذا الكائن البهيمي ضخمًا

---

(١) «القُلْقُطار» هو الزّاج الأصفر.

(٢) و«القَلْقَدِيس» هو الزّاج الأبيض، والزّاجات من الأملاح الكبريتية.

وطويلًا، ذا وجه ملامحُه تنمّ عن قسوة شديدة، أشار تجاهي وردد كلمات لم أفهم كُنهها بصوته المخيف فابتلعتني الفجوة، وشعرت أنني أنزلق في دهليز حلزوني طويل! ووجدت نفسي بمملكة البلاغة التي لم أكن أعرفها في البداية، وقفت على قدميّ وبدأت أسير في الطريق لبيت «مَيسان» وأطرق بابها وأقول أشياء وأفعل أمورًا، وكأنّ هناك من يُملي علي ما أقوله وما أفعله ويهمس في أذني ويدلّني على الطريق، كُنت مسلوبة الإرادة، وكأنني قطعة من «الشطرنج» يحرّكها أحدهم وينقلها من مكان لآخر.

عثرت هناك على كتاب للسحر كان ملفوفًا بخرقة بالية ومدفونًا في حفرة تحت فراش بطلة رواياتك «ميسان»، والذي عثرت هي عليه في درب من «دروب أوبال» التي كانت قد سَلكَتها وكتبت أنت عنها، كانت تخفيه عن بناتها خوفًا عليهن، قُمت بتصفّحه ووجدتني أعي وأفهم ما فيه وصرت ألقّن بناتها ما فيه حرفًا حرفًا وبحماس شديد، وأعلمهن السحر الأسود، أتعرف لماذا هذا الكتاب بالذّات؟

لأنّه مطابق للكتاب الذي أعارني إيّاه هذا الشاب الذي يدعى «حسّان» في عالمنا... «القُلقُطار»!، لا أدري لماذا كُنت أعلّم البنات ما فيه، حتى صرن ساحرات «أوبالس» كما أطلقن على أنفسهن بعد ذلك، أنا أشعر بالذّنب. أظنّ هذا لبعض الشرّ في نفسي، لقد كُنت هناك أشبه الطائر أطير بجناحين، جناح ملائكي، وآخر شيطاني، وهكذا حالنا كلّنا نحن البشر!، كُنت أحمل الكثير من الشرّ وأنا في بيت «مَيسان»، وفي لحظة ما استطعت أن أتغلّب عليه فانزويت بنفسي وهدأت جوارحي، كانت تلك اللحظة الفارقة وأنا بالقارب، وحولي مجموعة من النساء، يقتنصنا الموت على مهل فتتساقط حولي النساء واحدة تلو الأخرى وبقيت وحيدة هناك!

تغيّرت مشاعري فجأة، وصرت عجوزًا تحمل الكثير من الحنان في قلبها، وكأنني تخلّصت من الشرّ وأنا في هذا القارب، لكنني لم أجرؤ على إلقاء جثث النساء منه، ولمّا رأيت الصيادين استغثت بهم فأنقذوني وصحبوني إلى قريتهم. عشت وحيدة على أطراف القرية وقد اعتزلني الناس فقد كانوا يتشاءمون من وجهي، فقد وصلت إليهم في قارب مليء بالجثث، ولكن ما ذنبي أنا!

وكان هذا قبل لقائي مباشرة بـ«مُوراي» في القرية، فكان قطعة الحلوى التي فزت بها هناك، بحنانه وبرّه بي.

لقد كُنت أتجول في عالم رواياتك يا سيّد الكلمات، أنا أعرفُك جيّدًا، وأعرف كلّ ما مررت به هناك، ما زلت أذكر ملامحك، ومعطفك، ونبرة صوتك المميزة، ونظرتك الرحيمة عندما رأيتني ببستان السيّد «بركات» مع «الحزاورة» عندما أحضرك «مُوراي» وكنت أسكب الماء على رأسك وأنا أمسح على جبهتك، وأذكر حيرتك في البداية، ثُمّ ابتسامتك العذبة عندما رأيت «حبيبة».

عانيت وأنا هناك، فكلما هممت بإخبار من حولي عن حالي وما أنا عليه كانت الكلمات تُحتبس في صدري وينعقد لساني! لكنني أحيانًا كُنت أستطيع التلميح لكما أنت و«حبيبة» بالكلمات والإشارات، لكنّكما ولأنّكما لم تتوقعا أن يحلّ شخص من عالمكم محلّ شخصيّة ما في مملكة البلاغة وبهذه الطريقة، لم تنتبها لتلميحاتي تلك.

ما زلت أعاني أثر تلك التجربة العجيبة والفريدة من نوعها، والخرافية أيضًا! أكاد أفقد عقلي وأنا أجترّ الذكريات! فملامحي التي ولدتُ بها صارت غريبةً عنّي، في كلّ مرّة أنظر إلى المرآة أتوقع أن أرى ملامح تلك المرأة التي أَحبَّها من حولها هناك فأحببتُها أنا أيضًا، وكيف لا أحبّها وقد تحقق من خلالها حلمي بأن أكون أمًا لأحدهم كـ«مُوراي»!ولو لوقت

قصير..، كانت تشبهني في صفاتها وطباعها، تحبّ ما أُحبه من طعام، وتكره ما أكرهه منه، حركاتها وسكناتها تُطابق حركاتي وسكناتي، حتى أنّها تضحك كيفما أضحك، وتخاف مما أخاف منه. اشتقت للحزاورة، ولـ«موراي»، كم كان جميلًا أن أذوق لذّة الأمومة ولو لأيّام معدودات، أن يحتاج إليك طفل صغير، أن يقترب منك لأنّه خائف فتحتضنه، أنّ تعدّ له الطعام بنفسك، أن تهتم به، تمسح على وجهه، فيخبرك فجأة دون إعداد سابق لكلماته وبعفوية جميلة بأنّه يحبّك فيرتجّ قلبك فرحة وامتنانًا، أحببت ذاك الشعور للغاية واستعذبته....

أمّا الآن، فسريعًا ما أرى ملامحي العادية ووجهي الحقيقي معكوسًا أمامي على مرآتي فأعود للواقع، وكأنني تلقيت صفعة عنيفة من أحدهم لأفيق. من آن لآخر تمر بخاطري تلك التعاويذ التي كانت ترددها العجوز «مِسكة» هناك، والتي حللت في جسدها بطريقة ما، أو اختفت هي في جَسدي بطريقة ما وكُنت أنا هناك ليراني أهل المملكة بملامحها...

هذا أمر عصيّ على الشرح والفهم!

أعلم أنني اقتحمت عالمك الخاص، لكنّه أمر ليس بيدي، ويبدو أنّ هناك من دفعني دفعًا لهذا. أتدري يا «يُوسف»، تغيّرت ملامحي مرّتين عندما حللت محلّ شخصيتين من روايتين لك، مرّة بدوت كعجوز أنهكتها الأيّام، وأخرى بدوت كامرأة طيبة القلب ممتلئة القوام ونضرة من الغجر! وكان هذا بعد مرور نصف المدّة التي قضيتها هناك تقريبًا، وبعد أن فارقني «مُوراي» الذي كان مصدر أمان بالنسبة لي، شعرت بالتيه عندما دلف معكم إلى درب من دُروب «أُوبال»، وكأنّ «مُوراي» بحبّه لي كرابط يربطني بالشخصية التي كُنتُها! فقد كان شديد البرّ بي، وبعد دخولك يا «يُوسف» للدرب الأول من دروب أوبال وهو معك، اختفيتُ أنا فجأة من بين الحزاورة في بستان «بركات»، وظهرتُ في مكان آخر بملامح أخرى لغجرية أصغر عمرًا مما كُنت عليه، ولكن لها طباع تشبه طباعي.

كُنت قد نسيت كلّ ما مرّت به العجوز وسحرها في مرحلتي الأولى هناك، وكنت أذكر فقط أنني «مِسكة» الكاتبة التي حدث لها شيء ما!، جلست في تلك الخيمة أنتظر مرور أحدهم ليؤنسني، فجئت أنت يا «يوسف» فجأة ومعك «حبيبة»، وتكرر الأمر...

هناك من يملي عليّ ما أفعله! وصرت أتحرك كقطعة شطرنج!!

في نهاية رحلتك وعندما رأيتُك تستعد للرحيل مع «حبيبة» بعد أن استردتْ كلمات كتابها وسلّمته لحرّاس المكتبة العظمى، لم أتمكّن من البوح بسري فانفطر فؤادي، وكُنت أخشى أن أنتقل لشخصية ثالثة لا أعرف سماتها وأفارق أهل البُستان كما حدث لي من قبل، فبكيت كثيرًا، تمنيت من قلبي أن أعود لوطني وبيتي ووحدتي، تركتكم بالبُستان وخرجت هائمة على وجهي، ووسط البكاء وعيناي مغرورقتان بالدموع ظللت أدعو وأكرر الدعاء، فهبّت رياح قوية، وتناهى إلى سمعي صوت همسات متداخلة لفتيات يتحدثن في آن واحد، ثُمّ سكنت الأصوات وعلت همهمات إحداهن وقالت جملة بصوت جميل، لم أتبيّن الكلمات وكان لحن صوتها جميلًا للغاية! وفجأة رأيت جناحين، نعم...رأيت جناحين كبيرين مبسوطين أمام عيني، لن أنسى أبدًا لونهما البديع...ما أروعهما!

وانبثق ضوء شديد ومتوهج أعماني فما عدت أرى شيئًا أمامي! وفقدت الوعي، ثُمّ وجدتني فجأة في غرفتي مرّة أخرى، لولا ملابس الغجر التي كانت لا تزال على جسدي لظننته حلمًا، لكنني تحسست الملابس بيديّ وركضت نحو المرآة لأتأكد أنني أرتديها بالفعل، قضيت لياليَ طويلة في حالة من الشرود والحيرة، ثُمّ أسرعت للطبيب.

لم يصدّقني طبيبي النفسي، رغم صدقي في كلّ ما رويته له، ورغم تكرار زياراتي بانتظام لعيادته الأنيقة، كان يُنصت إلى حديثي المضطرب ويهزّ رأسه في ثقة وهدوء، ويحدّق في عينيّ طويلًا، ثُم يمسك بقلمه ويدوّن ملاحظاته في ملفي ثُمّ يكتب لي الدواء. لم تخلُ وصفاته الطبية

من العقاقير المهدئة والمنومة، مللت منها، كُنت أستيقظ لأحشو فمي ببعض الطعام وأعود لأتطوّح وأزحف للفراش، أهملت نفسي وصرت لا أفرّق بين الليل والنهار، حتى أنني أصبحت أنسى شراء الخبز والطعام، كُنت مغيبة لفترات طويلة، ولا أجد من أبثّه همّي. انقطعتُ عن زيارة الطبيب، وغرقت في نوم ثُمّ نوم، توالت رؤيتي لكوابيس تظهر فيها الكثير من الرموز والطلاسم، أمّا ذاك الرمز الذي كان يتكرر حتى حفظته، أذكر أنني كُنت أرسمه من آن لآخر وأنا بمملكة البلاغة، فقد كان لا يفارق مخيلتي، لا أعرف معناه، لكنني أشعر أنّ وراءه سرًّا غامضًا يتعلّق بالجناحين، سأرسمه لك في نهاية الرسالة.

لم يشعر بي أحد يا «يُوسف»، ولم يزرني أقاربي، اعتاد الجميع أنني بخير لأنني لا أشكو إليهم ما يؤلمني، حتى هاتفي توقف عن الرنين، نسيتني صديقتي الوحيدة التي كانت تسأل عنّي، ازداد يأسي وتوقفتُ عن تناول الأدوية، كنت أشعر أن جدران بيتي الأربعة تقترب وتزحف تجاه بعضها البعض، كثيرًا ما كان يضيق صدري وأشعر بالاختناق، لا بدّ أنّها في لحظة ما ستلتصق ببعضها لتطحن عظامي.

بعد مرور عام ونصف من عودتي من تلك الرحلة في أرض مملكة البلاغة، عشت فيها تحت تأثير العقاقير التي جمّدت عقلي ومشاعري ولهذا لم أتابع ما نُشر من روايات جديدة لكتاب آخرين، ولكن عندما استعدت تركيزي عدت لمتابعة الجديد، كانت روايتك الجديدة تتصدر واجهات المكتبات، علمت لقب عائلتك من الصحف، قررت أن أبحث عنك، فأنت الوحيد الذي سيصدّق قصتي، وتتبعت أخبارك، رأيت صورك في حفل توقيع رواياتك في المجلات والجرائد، رأيت «حبيبة» وهي حامل في شهورها الأخيرة، رقّ قلبي لكما. كنت قد اشتريت الرواية من قبل رؤيتي للصور وقرأتها وسرّني ما كتبته عنّي فيها، فاشتقت إلى مملكة البلاغة، وإلى «مُوراي» و«الحزاورة»، وعدت

للكتاب الذي استعرته من «حسّان» وفتحته، وتحسست أوراقه، بكيت شوقًا للأمومة، وغضبت، ووجدتني أتساءل..لماذا لا أعود إلى هناك! بحثتُ عن الكلمات التي كررتها من قبل، وكررت قراءتها ثلاث مرّات، فظهرت فجوة كبيرة سوداء تتلاعب أمامي وهي معلّقة في الهواء وخرج منها هذا الكائن مرّة أخرى، هذه المرة كُنت أكثر ثباتًا من المرّة الأولى، وأكثر جرأة، فتحدّثت إليه وطلبت منه أن يعيدني إلى هناك، إلى بستان «حيزوم»، لأعيش مع «مُوراي» و«الحزاورة»، وكان شرطه الوحيد أن أختطف أحد أحفاد «أبادول» من الذّكور، وأحضره معي، وكُنت أعرف قصّة «أبادول» من «حبيبة»، فسألته لماذا يريدون حفيده..فلم يجبني. وضعت نفسي مكان أمّ هذا الحفيد الذي سأخطفه فهربت دمعة من عيني، شردت للحظات، وجلستُ حائرة، مرّت أيام وأنا عالقة في حالة من التردد، كُنت أشعر بالذنب، كيف سأحرم أمًّا من وليدها لأحقق غايتي! قررت إحراق كتاب السحر هذا، وبعد أن تخلّصت منه استيقظت لأجده مرّة أخرى أمامي! كررت المحاولة وباءت بالفشل!

خرجت من بيتي في هلع وأعدته لـ «حسّان»، والذي لم يسألني عن سبب تأخّري في إعادته إليه! بل استشاط غضبًا عندما علم بأنني لا أريد كتاب «القُلقُطار»، ورمقني بنظرة توعّد أخافتني، كان صوت أمّه وهي تصرخ من غرفتها لتحذّرني لا ينقطع طوال هرولتي على الدرج بعد أن ألقيت الكتاب وركضت وهي تقول: «اهربي...اهربي».

عندما رأيتها أوّل مرّة كان الخوف يقبع بين عينيها، وكانت تنظر لابنها بريبة طوال الوقت! ليست هذه نظرة أمٍّ لولدها!! عدت لبيتي فوجدت كتاب «القُلقُطار» هناك مرة أخرى! وكأنني لم أنقله من مكانه! صرت أتخبّط في دهاليز فكرية مظلمة، وطاردتني خيالات مضلّة، منذ شهور والكوابيس تلاحقني، وهذا الكائن يظهر لي دومًا ويطالبني باختطاف حفيد «أبادول»، وأنا أعيش في حالة من الرعب والتعاسة،

والآن أطلب منك العون، ومن «أبادول» جدّ زوجتك «حبيبة» فهو الوحيد الذي يعرف من هؤلاء الذين يظهرون لي، نعم...فقد ازداد عددهم، وهم يملأون بيتي كلّ ليلة، يقولون إنّهم من «الدّواسر»[1]، فمن هم «الدّواسر»؟

أكتب لأنني كلّما حاولت الاتصال بك هاتفيًّا لأحدثك عنهم ينعقد لساني، ولعلّك الآن تعرف سرّ المكالمات الصّامتة التي تأتيك من آن لآخر وكُنت تظنّ أحدهم يضايقك.كُنت أنا على الطرف الآخر من الهاتف يا «يُوسف»، لكنني لم أتمكّن من تحريك لساني، تلك الرسائل على بريدك الإلكتروني والتي كُنت أطالبك فيها بالحضور للقائي لا أدري لماذا لم تجب عليها! كل مخطّطاتي للسفر إليك باءت بالفشل، فهناك دومًا ما يمنعني، إمّا حادثة وتتوقف القطارات ويُغلق الطريق، أو مرض شديد يقعدني، أو تختفي أموالي وبطاقتي الشخصية من حقيبتي وأنا في طريقي لمحطّة القطار فأعود لأجدها في البيت، وكان أحد «الدّواسر» يهمس لي دومًا: «لن تذهبي ولن تحذّريهم، وإيّاك أن تبوحي بالسرّ، فنحن نعلم كلّ ما يدور بخاطرك»..

جرّبت كلّ شيء، واكتشفت أخيرًا أنّ قلمي الرصاص الذي طالما كتبت به رواياتي بعيد عن أعينهم وسيطرتهم، فقد جرّبت الكتابة على الورق بالأحبار فأحرقوا أوراق رسالاتي! أمّا الرّصاص فهو الوحيد الذي استطعت كتابة رسالتي تلك به، والتي أدونها الآن بيدي وسأرسلها إليك بالبريد، لا أدري ما السبب..لكنني سعدت بهذا الأمر، على الأقلّ قلمي الرّصاص ما زال حرًّا، رغم أنّ روحي مقيّدة بأغلال يصعب عليّ شرحها لك...

هذا عنواني إن أحببت لقائي...أنتظرك!

ملحوظة: هاهو الرّمز الذي أخبرتك عنه

---

(١) الدّواسريّ أي الشديد القويّ، والضخم الجسم، وجمعها الدّواسر.

كان الرمز بيضاويًا يحتوي على رسمة لجناحين مختلفين، كلّ منهما عليه نقوش تختلف عن تلك المنقوشة على الجناح الآخر، وكان هناك سيف غريب الشكل يفصل بينهما!.

2
وبعد عشرين سنة

في بيت الجد.....

عشرون عامًا مرّت وما زالت عائلة «أبادول» تداوم على الاجتماع كل شهر في بيت الجدّ بالفيّوم، غُرف البيت تعبق برائحة المخبوزات الشهيّة، العصافير وهي تتبادل التغريد على الأشجار وكأنّها جَوْقةٌ[١] موسيقية منظّمة أضفت على الأجواء سحرًا خاصًّا، بدأت أصواتهم تنخفض تدريجيًا في إيقاع منتظم، تناغمًا مع انسحاب الشمس بنعومة وهي تتدحرج على خطّ الأفق بدلالٍ مغادرةً عرشها بينما تجرّ طرف ردائها المذهّب خلفها، تاركة جلبة مِن السّحب وحُمرة أرجوانية تلوّن صفحة السماء.

في شموخ أطلّ بيت الجدّ «أبادول»، زجاج نوافذ البيت يضوي وهو يعكس بريق أشعة الشّمس ليودعها على وعد بلقاء آخر في الصباح التالي، هنا في تلك البقعة التي شهدت الأعاجيب، تحت الأرض، وفوقها، وحتى عنان السماء حيث تحلّق الصقور.

ما زال هذا البيت أنيقًا وفخمًا، الثريات تتدلى من الأسقف وتلقي بأضوائها الملوّنة على الجدران، غرفة المعيشة كعادتها دافئة، والمشهد من

(١) جَوْقة جمعها جَوقات وهي جماعة من النّاس أو الفنّانين يؤدُّون عملًا مشتركًا من غناء، أو عزف آلاتٍ موسيقيّة، أو دورٍ تمثيليّ . جَوْقَة موسيقيّة: فرقة موسيقيّة.

نافذتها العريضة بديعٌ للغاية، حتى الحديقة ما زالت تحتفظ بنضارة أشجارها، وروعة أزهارها، وكأنّ هناك بستانيًّا خفيًّا يعتني بها! فبعد وفاة «صفية» التي لم تغادر هذا البيت لسنوات طويلة، صار زوجها «راغب» الذي كان يعتني بالحديقة محطمًا وضعيفًا لا يقدر حتى على غسل ثوبه بنفسه، اضطر الجدّ لتوظيف شاب رشّحه له أحد أصدقائه، والذي يثق به، «فريد» لا يعرف أسرار البيتً بالتأكيد حتى الآن، لكنّه يسأل كثيرًا عن تلك الغرفة الفارغة في الطابق العلوي، ويتعجب لأنّهم يتركونها فارغة! ولا يجرؤ على الاقتراب من المكتبة القابعة بالحديقة بعد تحذير«راغب» له، والآن فضوله شديد لكشف سرّها الغامض، «راغب» يُشرف عليه ويراقبه عن كثب، على أيّ حال، هو شاب هادئ رغم أسئلته الفضولية. كان «راغب» يؤنس الجدّ «أبادول» الذي بدوره قد نحل جسده للغاية وتحول لقميص من الجلد يحوي عظامه الرّقيقة، وخاصّة بعد أن اشتد عليه المرض خلال الشهر الأخير.حمل صوت «راغب» على الهاتف الكثير من الألم وهو يصف حالة «أبادول» لابنه السيّد «كمال»، والذي قرر الانتقال للإقامة مع أبيه بمنزله الغامض بالفيّوم هو وزوجته، فالجدّ يرفض ترك بيته العتيق، وبعد زواج «أنس» و«حبيبة» صار لديهما وقت فراغ كبير.

ترك «كمال» فنجان قهوته وخرج من غرفة المعيشة، ليهرول في الرّواق متوجهًا نحو الباب فقد رنّ هاتفه الجوّال وأضاءت شاشته باسم «أنس»، وقف السيّد «كمال» أمام النقوش البديعة والمطعّمة بالنحاس التي كانت تتوسّط الباب وتحسسها بأطراف أصابعه، لاحت على شفتيه ابتسامة خفيفة، داعبته الذكريات، تذكّر «مملكة البلاغة» وما حدث له فيها، شرد قليلًا ليأتي صوت بوق سيّارة «أنس» ليخرجه من شروده، كان يسير بتؤدة وسط الممر الضيق المرصوف بالحجارة وعلى الجانبين اصطفّت أشجار الريحان ونسمات الهواء تهزّ أوراقها ترحيبًا بأسرة «أنس»، كان

السيّد «كمال» مشتاقًا لأحفاده، وخاصّة «فرح»، التي تبلغ الآن العاشرة من عُمرها، يبدو «كمال» فخورًا وهو يتأمّل حفيديه التوأمين الشابين، «حمزة» و«خالد»، فكلاهما يشبه أباه، نفس الوجه، والعينان البندقيتان، كان من الصعب التفريق بينهما، لكنّ اختلاف طباعهما وطريقة السير وحتى الملابس والكلام سهّلت المهمة على من لا يستطيع التمييز بينهما، كان «حمزة» شابًا كثير الصمت، ساخطًا على كلّ شيء، قد يبدو هادئًا، وحليمًا، لكنّه يخفي خلف هذا المظهر الكثير من الغضب، لم يكن اجتماعيًا وهذا كان سببًا من أسباب انعزاله عن الناس، وكان يكره الحديث عن مملكة البلاغة، ما زال ينكر ما يرويه أبواه عنها، وحتى «أبادول» نفسه لم يفلح في إقناعه بأنها حقيقة، أمّا «خالد» فكان أكثر مرحًا من أخيه، تضجّ حياته وحركاته بالحيوية والنشاط، وكان يعشق قراءة الكُتب وخاصة العلمية منها، فكان أكثر ثقافة من أخيه.

أسرع «فريد» وفتح البوّابة ليدلف «أنس» بسيارته، هرول السيّد «كمال» تجاه السيّارة واقترب من «أنس» وتعانقا طويلًا، كان لقاؤه بحفيديه مبهجًا فهو شديد التعلّق بهما، أمّا «فرح» فهي المدللة من جدّها الحنون. دلف الجميع للبيت، وأسرع «أنس» يتفقّد «أبادول»، كانت «حبيبة» قد وصلت قبلهم مع «يوسف» وابنتها «سارة» وولدها «سليمان»، لم يغلق «فريد» البوابة الحديدية رغم تنبيه «راغب» له مرارًا وتكرارًا، دلف إلى المنزل حاملًا حقائب «أنس» وأسرته غير مبالٍ بالبوابة المفتوحة، في تلك اللحظة تسللت قطة سوداء واختبأت بين أشجار الحديقة، اختفى قرص الشمس وسريعًا ما ألقى الليل عباءته الموشاة بالنجوم على المنزل ومن فيه، سكنت القطّة المتلصصة وسط الظلمة وبقيت عيناها الخضراوان المفتوحتان تضويان بين الأشجار.



اجتمع «أبادول» مع ولده «كمال» وأحفاده حول المدفأة في غرفة المعيشة القابعة بالطابق السفلي من بيته، كانت زوجة ابنهِ «كمال» توزع فطيرة التفاح على الجميع، الغرفة تعبق برائحة القرفة، لم تنس أن تعدّ بعضًا من الفطائر بالجبن من أجل «حمزة» فهو يكره القرفة، ويكره الحلوى التي يحبّها الجميع، بل ويكره كل شيء تجتمع عليه العائلة، كان يهزّ كتفيه باستنكار بعد أن أنهى الجدّ الأكبر «أبادول» قصّته عن مملكة البلاغة، وكان السيّد «كمال» يستعد ليروي هو أيضًا مغامرته هناك، لكنّ «حمزة» همس لأخيه قائلًا:

-لولا أنّ هناك شخصًا من خارج العائلة يوافقهم فيما يروونه لنا كلّ مرّة، وهو زوج عمّتي «يُوسف» لظننت أن عائلتنا تعاني من مرض عقلي وراثي.

لاحظه «أنس» وهو يهمس لأخيه، فباغته قائلًا وكان يتوقع ما يدور برأس ابنه:

-لعلّك يا «حمزة» تظننا نعاني خطبًا ما، مرضًا عقليًّا مثلًا، أو ضلالات فكرية معيّنة!

قال «حمزة»بحرج:

-لم أقل هذا يا أبي.

- أعلم ما يدور برأسك، فقد كُنت يومًا مكانك، وفي عمرك، أستنكر ما تستنكره أنت حتى رأيته بأمّ عيني.

قال «حمزة» بتضجر:

-مللت من الخوف الدائم وترقب ما سيحدث، أشعر بالاختناق، في الحقيقة.. أكره هذا البيت.

قالت الجدّة وهي تقترب من حفيدها لتناوله قدحًا من الشاي الساخن:

-أنصت لأبيك يا حبيبي، فهو يحبّك ويخشى عليك وأخيك من الصدمة.

رفع حاجبيه قائلًا:

-تقولين هذا يا جدّتي وأنتِ الوحيدة هنا التي لم ترَ بعينيها ما يصفونه!

طالعته جدّته بثقة وقالت:

-لكنني أثق بهم، لم أعهد عليهم الكذب!

ثُمّ شردت قليلًا وقالت:

-لم يخبرني جدّك بقصّة المملكة وما يحدث فيها إلّا بعد عودة «أنس» من هناك.

ثُمّ ابتسمت قائلة:

-أتدري، تمنيت لو ذهبت إلى هناك، أعجبتني «الحوراء»، و«ناردين»، و«مَيسان»، ليتني أستطيع رؤيتهن، واحتساء فنجانٍ من القهوة معهن.

وقف «حمزة» فجأة ثُمّ رفع صوته وصاح ساخرًا وهو يدور حول نفسه وسط الغرفة:

-حسنًا، أين الصقور؟ أين الكتب التي تطير؟ أين هذا «الزاجل الأزرق»؟

ثُمّ التفت تجاه زوج عمّته وقال له:

-أين حجر «أُوبال» يا عمّاه؟ فلتضرب عليه وتفتح لنا دربًا لنفرّ من هنا إلى أيّ بلدٍ آخر!

ثُم التفت تجاه إخوته وأولاد عمّته وصاح في وجوههم:

-أبشروا يا رفاق، ستلتقون بالمجاهيم، سيظهرون بظلمتهم الحالكة من تحت الأرض.

صاح «أنس» ينهر ابنه وقال غاضبًا:

-«حمزة»! ما الذي تفعله؟

أشاح «حمزة» بنظراته بعيدًا، التقت عيناه بعيني أمّه، نظرة عتاب من «مرام» لابنها كانت كافية، فهو شديد التعلّق بها، التفت تجاه وجه أخيه «خالد» والذي لم ينبس ببنت شفة، لكنّه كان يثقبه بنظراته في صمت، فَهِم ما يرميان إليه، جال بعينيه في المكان، الكلّ يحدّق تجاهه، لقد تجاوز الحدود ورفع صوته وسخر من الجميع، أسرع متململًا يعتذر لهم.

كالعادة، يثور «حمزة» فجأة كالبركان، يرفع صوته ويجادل، ثُمّ يعتذر ويهرب من المكان، ما زال رسوبه هذا العام بالجامعة يؤلمه، يشعره أنّه إنسان فاشلٌ وعديم الفائدة، زهد في الدراسة وربّما في الحياة كلّها، كان يرى أن لوالده دورًا في تأخره الدراسي، فـ «أنس» كان لديه رهاب من شيء ما! سرّ يخفيه عنهما، حتى أنه أخّر تسجيلهما في المدرسة لعامٍ كاملٍ، وقد ورّث هذا الخوف لـ«حمزة»..

التوأمان «حمزة» و«خالد» أمضيا فترة الروضة بالبيت مع أمهما، يحضر لهما أبوهما كلّ شيء بالبيت، والخروج ممنوع، خلال طفولتهما كان الذهاب إلى الفيوم أيضًا ممنوع! بدأ «أنس» يتحلّى بالشجاعة عندما انتقل «يُوسف» و«حبيبة» للسكن بالقرب منهم في الإسكندرية، وقاما بتسجيل ابنتهما «سارة» في المدرسة القريبة من البيت، وقتها بدأ «أنس» يتحلّى بالشجاعة وألحق ولديه بنفس المدرسة، وبدأ تدريجيًا يستعيد تركيزه في عمله بالشركة الهندسية التي يعمل بها، والذي كان قد أهمله مما أحزن الجميع. كاد «حمزة» يغادر غرفة المعيشة هاربًا من أعينهم، لكن أباه استوقفه هذه المرّة وهو يسحبه من ذراعه، ثُمّ أشار لأخيه «خالد» ليتبعهما، وتبادل مع «يُوسف» النظرات ففهم ما يرمي إليه، فنهض الأخير وهو ينادي على ابنته «سارة» التي تصغر أولاد عمّها بعام، لكنّها و«خالد» يدرسان في نفس المرحلة الجامعية. اتجه الخمسة لغرفة

المكتب الخاصّة بالجدّ «أبادول» بداخل منزله، والتي كانت تحتوي على جزء ضئيلٍ من كنز الكُتب الموجود بمكتبته الأكبر القابعة في الحديقة، بينما بقي «أبَادول» بغرفة المعيشة يحدّق في لهب الحطب المحترق بالمدفأة ويتمتم بآيات القرآن، وهَن العظم منه بعد أن تخطى التسعين من عمره، كان لديه الكثير من الأسرار المخبوءة التي لم يخبرهم بها بعد، ويظنون أنهم يعرفون كلّ شيء عن مملكة البلاغة! وهاهو ولده «كمال» يتخطى السبعين من عمره، ترى ماذا تخبئ لهما الأيام من مفاجآت، التفت السيّد «كمال» تجاه «فرح» و«سليمان» وهمس وهو يقترب منهما وهما يتهامسان على مقربة من المدفأة فقد كانت الليلة باردة:

-من سيساعدني ويجلب سلّة الكستناء من المطبخ؟

تسابقا ليجلباها فقد اعتادا على مراقبة جدّهما وهو يعدّها لهما أمام المدفأة في ليالي الشتاء، كانت ضحكاتهما ترتفع مع كلّ فرقعة يسمعانها بينما تنضج ثمار الكستناء ليأكلاها في نهم، في غرفة أخرى وعلى مقربة منهم كان «أنس» يكشف سر خوفه على ولديه طوال تلك السنوات، ويشرح لـ«حمزة» الغاضب سبب هلعه عليه وشقيقه دومًا.

قال «أنس» موجها كلامه لـ«حمزة»:

-أعلم أنّك حفظت حكاياتنا، وربّما لن تصدقها إلّا عندما ترى مملكة البلاغة بأمّ عينك، لكنني اليوم، وقد أوشكت أنت و«خالد» على بلوغ العشرين من عمركما سأخبركما بسر أخفيته عنكما، وكان سببًا في خوفي عليكما بهذا الشكل المرضي، سرّ يتعلق بكاتبة التقتْ بها عمّتك «حبيبة» وزوجها «يُوسف» هناك، على أرض مملكة البلاغة.

ثُمّ اعتدل في جلسته، وأمسك كتاب «القُلْقُطار» الذي كانت أوراقه صفراء اخضرّت أطرافها والتَوت وكأنّ هناك عفنا أصابها بسبب الرطوبة، وكان له غلاف قاتم ومرقش يشبه جلد البشر، تفوح منه رائحة كريهة تشبه رائحة العرق، وقال وهو يرفعه ليراه الجميع:

-هذا الكتاب، كان آخر ما كان بين يدي الكاتبة قبل أن تموت

صاحت «سارة»:

-يا إلهي، هل ماتت هناك؟ على أرض مملكة البلاغة؟

-بل في بيتها.

وضعت «سارة» يدها على فمها وسألت بخفوت:

-كيف؟

رفع «أنس» حاجبيه وقال:

-«مِسكة» كانت كاتبة، ويبدو أنّها بطريقة ما استطاعت أن تنتقل إلى مملكة البلاغة، ليس كمحاربة ولكن في صورة شخصية من شخصيات رواية «يُوسف»، حلّت محلّها بطريقة ما، كانت تبدو هناك بملامح الشخصية نفسها، تنطق بكلماتها، وتعيش حياتها، وليس لها الحق في الدفاع عن كتاب ما لتسترده، لأنّها ليست محاربة.

سأله «خالد» وهو يحدّق في كلمة «القُلقُطار» المنقوشة على غلاف الكتاب:

-وأين ذهبت الشخصية نفسها؟

قال «يُوسف»:

-يبدو أنّها ظلّت كما هي، فالأحداث التي تدور حولها استمرت، ودورها ظلّ كما هو! ومن عَاني فقط هو «مِسكة».

سأله «حمزة:

-هل التقيتما بها قبل وفاتها؟

تنحنح «يُوسف» ثُمّ قال:

-لا...كانت تحاول الاتصال بي بالهاتف، لكنّها لم تتمكن من الكلام، حتى الرسائل الإلكترونية ورسائل الهاتف التي اتضح أنّها أرسلتها كانت تصلني منها فارغة! وكلّما حاولتُ إعادة الاتصال بالهاتف كان يجيبني المسجل الآلي أنّ هذا الرقم غير موجود بالخدمة! لم أكن على علم بأنّها «مِسكة» .

هزّ «حمزة» كتفيه وسأله:

-وكيف عرفتم كلّ هذا إذًا؟

أجابه «أنس»:

-من رسالتها التي أرسلتها لـ«يُوسف»بالبريد العاديّ، وبخطّ يدها، بقلم رصاص عاديّ، بعد عودتها من مملكة البلاغة.

أغمض «أنس» عينيه هنيهة وأضاف قائلًا:

-بعد وفاة «مسكة» قُمنا بزيارة شقيقها بعد أن عاد من «كندا» ليقوم بدفنها وكنّا نعزّيه عندما رأينا هذا الكتاب على مكتبها.

التفت «أنس» نحو كتاب «القُلقُطار»، وقال وهو يحدّق في غلافه:

-هذا كتاب للسحر، وهذا الجزء الأوّل منه، فيه الكثير من الطلاسم تستخدم لاستجلاب الجنّ وتسخيرهم لخدمة من يردد تلك الطلاسم المذكورة، وللأسف يحتوي على الكثير من الضلالات، ومن يستخدمها يخسر الكثير من دينه ونفسه وروحه، وربّما يخسر حياته، في نهايته يوجد تنويه أنّ الجزء الثاني منه يحكي قصصًا حدثت بالفعل، لكننا لم نجده بين الكتب التي جلبناها من هناك.

سأل «حمزة» وهو يرنو لوالده:

-ولماذا لم تتخلّصا منه يا أبي؟

زفر «أنس» بحنق وقال:

-كل الطرق التي نعرفها لم تنجح، جربنا أنا و«يُوسف» حرقه، وجربنا تمزيقه، حتى أننا سكبنا عليه الأحماض ليهترئ، كان يختفي ويظهر مرّة أخرى في مكان آخر!! هذا الكتاب غريب! «القُلْقُطار» يصمد أمام كلّ شيء، لا بدّ أنّ هناك طريقة مختلفة وغريبة لإبادته.

سأله «خالد» وعيناه ملتصقتان بغلاف الكتاب:

-وهل قامت «مِسكة» باستخدام طلاسمه يا أبي؟

-نعم عن طريق الخطأ.

-ماذا تعني؟

اعتدل «أنس» في جلسته وبدأ يشرح:

-لم تكن «مسكة» ساحرة، ولم تسع للاستعانة بالجنّ في الأصل عندما كانت تقرَأ الكتاب، هناك من ضللها ليستغلها في فتح الطريق لملكة البلاغة، وما زلنا نبحث عنه.

هزّت «سارة» رأسها بحيرة وسألته:

-كيف حدث كلّ هذا؟

وضع «أنس» رسالة «مِسكة» أمامهم وقال:

-ستجدون كلّ شيء برسالتها تلك.

كان «أنس» حريصًا على تغليف الرّسالة بطبقة بلاستيكية شفافة حتى لا تهترئ، بدأ يقرؤها برويّة، وأنصتوا إليه في خشوع، وأطبق عليهم الصمت بعد أن أنهاها، وكأنّ على رؤوسهم الطير، سأله «خالد» بفضول شديد:

-أين الجزء الآخر من هذا الكتاب؟

-مفقود...لم نجده بين كتب «مِسكة».

-وكيف وصل كتاب «القُلْقُطار» إلى هنا؟

-عندما التقينا بشقيقها كما أخبرتكم منذ قليل، وكنا على علم بوجود الكتاب ببيت أخته كما ذكرَتْ في رسالتها، عرضنا عليه شراء مكتبتها، وبعد أن تعرّف على «يُوسف» لأنّه كاتب مشهور أهدانا كلّ ما بمكتبتها من كُتب عتيقة، فقد كان زاهدًا فيها لأنّه لا يهتم، أو ربّما لأنّه كان على سفر ولن يتمكن من حملها معه! وكنّا نعلم من رسالتها مواصفات الكتاب.

قال «حمزة» بغضب:

-ولهذا قمت بحبسنا بالبيت وحرمتنا من الاستمتاع بطفولتنا.

طالع «أنس» وجه ابنه «حمزة» وتمعّن فيه قليلًا، طالما أتعبه بعناده الشديد، لكنّه كان يعلم أنّ ابنه يخفي خوفه الذي كان هو سببًا فيه خلف هذا القناع، أجابه وما زالت عيناه معلّقتين بعينيه:

-لأن ما حدث تسبب في تحرر «الدَّواسِر» من أَسرهم وعودتهم بسلطانهم وطغيانهم لعالم «مملكة البلاغة».

سأله «خالد» بفضول:

-ومن هم «الدَّواسِر»؟

قال «أنس» وهو يمسح جبهته بتوتّر:

-عشيرة من الجن كانت تعيث في أرض المملكة فسادًا، طغوا في بقاعها وأكثروا فيها الفساد لسنوات طويلة، وكان لجدكم «أبادول» الفضل في إنهاء حقبتهم تلك، ونصر «المجاهيم» عليهم، لهذا هم يكرهونه، وقرروا الانتقام منه بخطف حفيد من أحفاده، ليربوه على شريعتهم ويلقنوه ما يؤمنون به، ليكون شوكة تخترق فؤاد «أبادول» الذي يدافع ونسله عن القيم، ولينتقموا منه، منذ وفاة «مسكة» وزعيم «الدّواسر» يطارد «أبادول» في أحلامه ويكرر تهديده لَه، لهذا كُنت أخاف عليكما، وما زلت أخاف!

قالت «سارة» وهي تعقد كفّيها على المكتب:

-إذًا كلاهما كان في رواية كاتب ما... «الدَّواسر» و«المجاهيم»!

-بالتأكيد، كان هذا منذ سنوات طويلة، وقتها كان «أبادول» في ريعان شبابه، لم يشكلوا قلقًا لأيّ منا خلال رحلته، لا أنا، ولا أبي، ولا والديك يا «سارّة»»، لم نعانِ من شرورهم، وكان «المجاهيم» دومًا في صفّنا وأعانونا كثيرًا، أمّاَ «الدَّواسِر» فلن يكونوا أبدًا في صف أي شخصٍ ينتمي لعائلة «أبادول».

قال «حمزة» غاضبًا:

-لماذا لم تخبرنا من قبل!! كان من الممكن أن يظهر الرمز خلال السنوات الماضية، كما ظهر لعمتي قبل بلوغها العشرين من عمرها!

لاحت ابتسامة ساخرة على شفتي «خالد» وقال له:

-يبدو أنّك الآن تصدّق يا صاح!!

اضطرب «حمزة» وكاد يعنّف أخاه، لولا «يُوسف» الذي ربّت على كتفه ليهدئه، نكّس «أنس» رأسه وقال وهو يشد قبضه يده:

-ما زلت أشعر بالذنب لأنني كُنت سببًا في توتّركما وخاصّة «حمزة» وهذا انعكس على دراسته، كما أنني لا أعرف كيف سأنقذكما هناك، ليس بيدي شيء، لو استطعت لسبقتكما إلى هناك، ولهذا قضيت الأعوام الماضية وأنا أدرس بحذر في هذا الكتاب، لعلّني أصل لشيء ما! ولا أخفي عليكم، كُشفت لي الكثير من الأسرار التي لم أرغب يومًا في معرفتها، أسرار عن السّحر، وأخرى خطيرة عن عوالم الجنّ، أدركت أنّ حولنا الكثير من المخلوقات التي لا نراها بأعيننا، لكنّها ترانا، وتراقبنا، وتعرف الكثير عنّا، ولا يحمينا منها إلّا ذكر اللّه!

أشفق «حمزة» على أبيه، كاد يقترب منه ليضع يده على كتفه لكنه لم يفعل، ما زال هناك حاجز بينهما، لكنّه الآن يعرف سبب قلقه الدائم وانشغاله، أراد أن يقول شيئًا لولا «فرح» و«سليمان» اللذان اقتحما الغرفة وهما يحملان الكستناء، ضجّ المكان بضحكاتهما، خرجوا جميعًا استجابه لنداء السيّد «كمال» الذي أخبرهم أنّ الجد الأكبر «أبادول» يطلب منهم الحضور الآن لمجلسه، ترك «أنس» كتاب السحر مفتوحًا على المكتب، وسار معهم تجاه غرفة المعيشة، لاحظت أمّ «أنس» توتّر ابنها وكذا باقي أفراد العائلة، فقامت بقلب دفّة الحديث عن أشياء أخرى لتخفف عنهم، ونجحت بالفعل، بينما كان «حمزة» يفكّر في المكتبة القابعة بالحديقة، لقد قرر اقتحامها الليلة بعد أن ينام الجميع، لماذا لا يهدمها أو يحرقها ليتخلّص من تلك العفاريت التي يثرثرون عنها، كان يرغب بشدّة في كسر هذا الشعور بالقلق وهذا الخوف الذي بدأ يتسرّب إلى نفسه بعد حديث أبيه، وهو يكره الخوف!

صرخة هلع شقت دياجير الظلام التي خيّمت على بيت الجدّ «أبادول»، كانت هناك فجوة سوداء معلّقة في الهواء تدور في دوّامة وتسحب أصغر حفيداته «فرح» لتبتلعها، كانت ابنة عمّتها «سارّة» تجذبها من ذراعيها وهي تثبّت قدميها على الأرض وتصرخ معها في آن واحد، فقد كانت أوّل من هرع إليها عندما استغاثت بمن بالبيت. اهتزّت جدران البيت وكأنّ زلزالًا قويّا يضربه، استيقظ باقي أفراد العائلة، وهرعوا لغرفة مكتب الجدّ حيث كانت الفجوة السوداء تتسع وتتسع، صرخت «فرح»:

-أبي...أنقذني.

أمسك «أنس» بذراع ابنته الآخر وحاول أن يسحبها بأقصى قوته، لكن قوّة السحب كانت شديدة، بدأت ساقا «سارة» التي كانت تتشبث

بذراع «فرح» تتحرّكان من مكانهما وتنزلقان على الأرض، اقترب «خالد» وأمسك بذراع أخته مع ابنة عمّته ليسحباها لكنّهما لم يتحرّكا معها قيد أنملة، انفلتت يد «فرح» من يد أبيها فسقط على الأرض، اقترب «خالد» واحتضن أخته واستدار بسرعة خاطفة ليقتنصها ويخلّصها، فتمكّنت «سارة» من جذبها وسقطتا بجوار «أنس»، في لمحة عين كانت الفجوة قد ابتعلت «خالد»، وثب «أنس» وحاول القفز إلى داخل الفجوة خلف ابنه لكنّها لفظته بقوّة ليصطدم بحائط الغرفة المقابل لها، صرخت «مرام» في هلع وخرّت «فرح»على ركبتيها وأجهشت بالبكاء، لقد اختفى «خالد» في لمحة عين، كانوا جميعًا في حالة من الذهول، أمّا «حمزة» فقد كان يقف متخشّبًا كالصّنم على باب الغرفة، فقد وصل في اللحظات الأخيرة، ورأى الفجوة وهي تلتقم أخاه التوأم «خالد» ثُمّ تدور في الهواء. أخطأ الصغيران «سُليمان» و«فرح» عندما اقتربا بفضول من كتاب «القُلْقُطار» الغريب الذي وضعه «أنس» الليلة الماضية على مكتب «أبادول» بعد أن أنهى حديثه مع ولديه «حمزة» و«خالد» عن هذا الكتاب، لم يعلم الصغيران أنّ تكرار تلك الكلمات المكتوبة على هامش إحدى صفحاته بصوت مسموع سيتسبب في تلك المصيبة!

لحظات عصيبة مرّت على كلّ من بالبيت، كانوا يتخبطون والكلّ يتحدّث في آن واحد، كان اختفاء «خالد» مختلفًا هذه المرّة، لم تحمله الصقور، ولم يظهر «الرمادي» ليطمئنوا على تسليمه. كان «حمزة» غاضبًا للغاية، فقد عاد من المكتبة للتوّ، لقد نفّذ قراره الذي اتخذه واقتحم المكتبة بالفعل، لم يتمكن من كبح فضوله بعد حديثه مع أبيه عن مملكة البلاغة، فسار وهو يغالب مخاوفه وسط ظلمة الحديقة وفتح المكتبة، كانت يده تقبض بقوّة على العصا الغليظة التي حملها ليحطم بها كلّ شيء، لكنّه لم يفعل، ولم يُشعل بها الحريق كما قرر، بل بدأ يفتّش ويسحب كتابًا تلو الآخر ويقلّب صفحاته، كاد يعود للبيت عندما لم يجد ما

يشبع فضوله، لا كُتب تتحرّك، لا رموز، لا صور تظهر على صفحات كُتب عتيقة بيضاء خالية من الكلمات، ولكن...

عندما تعالت صرخات أخته «فرح» وسمعها وهو بالمكتبة وحاول الخروج ليجيب استغاثاتها...انغلق باب المكتبة فجأة، ودارت حوله الكُتب بطريقتها المعهودة، رأى الرمز بالفعل، وكان أبوه حريصًا على تعليمه الأرقام النّوبية، خطان قصيران أفقيان متوازيان الأسفل منهما يتصل بشكل دائري، هذا هو الرقم خمسة باللغة النوبية «ديجا»، وسريعًا ما ظهرت صورة وجهه على صفحة الكتاب الخالي من الكلمات. تمّ هذا بسرعة شديدة، وكان صراخ من بالبيت يتزايد، التقط الكتاب وانطلق راكضًا تجاه البيت ليخبرهم بما حدث، لن ينسى أبدًا هول منظر تلك الفجوة وهي تبتلع أخاه! قال بخفوت وهو يرفع الكتاب في يده:

-لقد رأيت الرّمز وظهرت صورتي بهذا الكتاب.

أقبل «كمال» وتناول الكتاب منه وتأمّل غلافه وقرأ الاسم المنقوش عليه متعجبًا...«أوري»!

حاول «أنس» أن يستعيد رباطة جأشه ومد يده برسالة «مسكة» لابنه «حمزة» وقال له:

-خذ هذه الرّسالة معك، وانتبه لكلّ حرف فيها، ولا تخرجها من غلافها حتى لا تهترئ، فقد اقترب وصول «الرمادي».

ثُمّ أخرج «أنس» من جيبه نفس المفتاح الذي وضعه أبوه في يده منذ سنوات، قبل الرّحيل إلى مملكة البلاغة، فسوف يحتاجه «حمزة» أيضًا عندما يصل إلى المكتبة العظمى، أعطاه له وحذّره من فقدانه، قال «حمزة» هلعًا وهو يتلجلج في حالة هستيرية:

-ولكنني لست مستعدًا للذهاب.

صاح «أنس» بانفعال شديد وهو يضرب على صدره:

-كيف تجرؤ على قول هذا، أخوك هناك يحتاجك.

-كيف يا أبي..كيف؟

لاحظ «أنس» اصفرار وجه ابنه فتذكّر كيف كان شعوره عندما كان ﰲ موقفه منذ سنوات، جذبه من ذراعه واحتضنه بقوّة وقال وهو يحاول إظهار تماسكه:

-أين جرأتك وقوّتك التي طالما تتباهى بها يا ولدي؟

-لم أكن يومًا جريئًا..كُنت أتصنع هذا يا أبي.

حدّق ﰲ عينيه وقال:

-لكنّك قوي...أعرفك، ستتغلب على كلّ مخاوفك يا بنيّ.

ثُمّ أضاف وهو يربت على ظهره:

-أرجوك...تماسك.

مرّت لحظات ثقيلة، كان «حمزة» مرتبكًا وهو يقول:

-ماذا سنفعل؟

قال «يُوسف» وعيناه مثبتتان على كتاب السحر الذي جلباه من بيت «مسكة»:

-أخشى أن...

-ماذا؟

-أنّ «خالد» دلف الآن ﰲ رواية خاصّة بكاتب ما، كما حدث لـ«مِسكة»، وسيحلّ محلّ شخصيّة فيها.

صاحت «مرام» وهي تمسك رأسها وما زالت الأرض تميد تحت قدميها:

-نعم، يبدو ذلك، هكذا رحلت «مِسكة»، بلا كتاب معها، فهي لم تكن محاربة.

صاح «حمزة» بغضب:

-وما الحل؟

قال «أبادول» الذي كان يلتزم الصمت، وكان قلبه يخفق ويعتصر في صدره:

-فلنصبر حتى يصل «الرمادي»، حتمًا سيحدث شيء ما.

سأله «حمزة»:

-ومن أين أتيت بهذا اليقين؟

في تلك اللحظة، انطلق أذان الفجر فظللتهم السكينة، وهدأت أنفاسهم قليلًا رغم هول الصدمة عليهم، جلس كلّ منهم مكانه، بعضهم على المقاعد، وبعضهم على الأرض، وكان «حمزة» ممن جلس على الأرض متأهّبًا وكأنّه يترقب ظهور الفجوة مرّة أخرى، التفت «أبادول» تجاهه وقال بصوت واثق:

-القلب الممتلئ بالإيمان عامر باليقين، وفرج اللّه قريب ممن يثق بقربه يا ولدي.

تناهى إلى سمعهم صوت نعيق غربان، أجفل «حمزة» وسألهم:

-ما هذا؟

قال «أَنس»:

-تلك الغربان التي أخبرتُك عنها.

رشقت كلمات «أنس» في قلب ابنه»حمزة» الذي صاح في تخبّط:

-لستُ مستعدًا للذهاب، لا أصدّق هذه الترهات، هذه مجرّد خدعة، ستظهر الفجوة وسيعود الآن!

وفي لحظة طيش أمسك كتاب «القُلْقُطار» الذي كان لا يزال على مكتب جدّه وكرر الجملة المكتوبة ثلاث مرّات بصوت مسموع، أغضب فعله هذا

أباه وجدّه، فبدأ الجميع يصيح عليه، انبثقت الفجوة السوداء وكادت تسحبه، اقترب «أبادول» ووقف قبالتها ثابتًا كالطود، كان يخرج من جسده ما يشبه الأطياف الملوّنة كلّها تتجه نحو الفجوة لتبتلعها، استند على عصاه بثبات وظل يبسمل ويحوقل وتأمّلها بتمعّن، اتسعت حدقتا عينيه، ثُمّ فغر فاه وبدا وكأنّه يرى شيئًا غريبًا! قال بصوت عالٍ كان له صدى مهيب:

-يا إلهي! أمانوس!

تردد الصوت خلالها وكأنّ تلك الفجوة المعلّقة في الهواء بئر عميق لا نهاية له، قال مرّة أخرى وما زالت عيناه معلّقتين بالفجوة:

-أغلق الممر أيّها الحارس.

ظلت الفجوة تدور وتتضاءل حتى صارت نقطة صغيرة سوداء تلاشت أمام أعينهم، التقطوا أنفاسهم التي كانوا يحبسونها وهم يراقبونه وهو يقف أمامها، التفت غاضبًا ولأوّل مرّة صاح موجهًا حديثه لحفيده «حمزة» وقال وهو يجرّه من ذراعه:

-أيّها الأحمق، كدت تقطع على أخيك طريق العودة، أما تدري أنّك لو دلفت بتلك الطريقة لما صرت محاربًا قطّ، ستكون مثله حبيس شخصية هناك، لن تعرفه ولن يعرفك!

قاطعه «حمزة» بخجل وهو يسير معه وسأله بانكسار:

-ماذا تعني «أمانوس»[1]؟ وكيف أغلقت تلك الفجوة؟ أشعر أنّ رأسي سينفجر.

داهمت «أبادول» موجة من السعال فجأة، يبدو أنّ الجد تأثّر بوقوفه تجاه تلك الفجوة، بدا عليه الوهن! قال وهو يمسح وجهه:

---

(١) أمانوس واحد من أشهر الجبال في جنوب غرب تركيا، ويُطلق عليه جبل النّور.

-«أمانوس» هو اسم ممر من ممرات عديدة كانت بين عالمنا وعالم مملكة البلاغة، أغلقها حرّاس المكتبة من قديم الأزل، ولكلّ ممر منها حارس عظيم، تلك الكلمات التي ردّدتها «مِسكة» أدت لفتح هذا الممر.

قطع «أبادول» كلامه وقال بحزم:

-هيّا إلى غرفة الأشباح...الآن!

هرول الجميع تجاه غرفة الأشباح، ما زال «حمزة» يتمرّد عليهم، هرعت «مرام» لابنها واحتضنته بقوّة فسكن في حضنها وأغمض عينيه بينما همست إليه بخفوت وهي تحبس دموعها:

-اثبت يا ولدي من أجل أخيك.

مرّت لحظات حرجة على «أنس» وهو يودّع ولده الثاني، ألقوا على عاتق «حمزة» مسئولية إعادة أخيه، وكان أكثر الأبناء تكذيبًا لكلّ ما حُكي لهم خلال أمسيات كثيرة مرّت تحت سقف هذا البيت، وربّما كل الأحفاد لا يصدّقون، لكنّهم لا يجهرون بما يفكّرون به، إلّا «حمزة» كان يقولها صراحة في وجه أبيه وأمّه وجده.

خرجوا جميعًا من غرفة الأشباح، قال «أبادول» بثبات:

-سأبقى معه.

أدار ظهره لهم وتركهم وهم يتبادلون نظرات التعجّب والقلق الشديد، وبقي «أبادول» مع حفيده! وأغلق الباب بنفسه! أنصتا في صمت فسمعا خفق جناحين في الهواء، وصل «الرمادي»، ودلف من نافذة الغرفة ووقف قبالتهما بوقار كعادته. وفور أن رأى «أبادول» قام بضمّ جناحيه في خشوع وأحنى رأسه تحيّة له، اقترب «أبادول» واحتضن الصقّر في مشهد مهيب

اقشعر له بدن «حمزة» وهو يرى الصقر يستطيل بجسده ويبسط جناحيه ويغطي ظهر «أبادول» بريشه، سرت رجفة في جسده وكاد قلبه يقفز من بين أضلعه، تراجع «الرّمادي» ثُمّ قال:

-اشتقت إليك يا «أبادول».

قال «أبادول» بتأثّر:

-وأنا أيضًا يا صديقي.

-لم يكن اللقاء في الرؤى كافيًا...

قاطعه «أبادول» بإشارة من يده ليصمت، وكأنّه أراد أن يخفي شيئًا ما عن «حمزة»، ففهم الصقر وقال وهو يوقّع كلماته حرفًا حرفًا:

-لا بدّ أن نُسرع قبل أن يصل خبرُ اختيارِ الكتبِ حفيدَك إلى «الدّواسر».

ثُمّ أدار رأسه تجاه «حمزة» وقال بصوت يشوبه القلق:

-لقد عاد «الدّواسر» لظلمهم وبطشهم، ولا بدّ أن تساعدنا.

اقترب «أبادول» من «حمزة» ووضع يده على كتفه وطالعه بنظرات تفيض حبًا وقال بصوت يغمره الحنان وهو يُمسك بالكتاب في يده الأخرى:

-أنت أملنا الوحيد الآن يا «حمزة»، وأنا أثق في قدرتك على أداء مهمّتك، لن تحارب فقط لاسترداد تلك القيم التي دوّنت يومًا في هذا الكتاب، بل ستعيد أخاك.

قال «حمزة» بتوتّر:

-وكيف سأعرفه وهو على صورة وهيئة أخرى؟

-هي مهمّة صعبة لا ريب يا «حمزة»، ابحث عنه وراقب من حولك جيدًا، اعتمد على فراستك، وابحث عن علامة ما، ولا تتسرّع.

ثُمّ أردف قائلًا:

-أنت تعرفه جيدًا، ابحث عن الروح لا عن الشّكل، ولا تنخدع بالملامح، وجودك بالقرب منه سيثبّته ويبعث في نفسه الطمأنينة.

وأكمل وهو يمسح على كتاب «حمزة»:

-هذا كتابك، عنوانه «أُوري».

-وماذا تعني؟

رفع «أبادول» حاجبيه وقال:

-كلمة نوبية، وتعني «أجنحة».

-أجنحة صقور؟

أطرق «أبادول» وقال بهدوء:

-وربّما أجنحة كائن آخر! أو رمز لمعنى نبيل...أنت وحدك ستعرفه!

قال «حمزة» وكأنّه اكتشف شيئًا هامًا للتوّ:

-هذا الرمز الذي رسمته»مسكة» في نهاية رسالتها، كان يحوي جناحين يفصل بينهما سيف غريب الشكل...أليس كذلك؟

-بلى، وعليك بقراءة رسالتها مرّة أخرى، لعلّها تُساعدك

قاطعهما «الرمادي» بحركته الفجائية، فالوقت يمرّ، ضرب بجناحه فجأة، ووقف على رأس «حمزة» كما فعل مع أبيه «أنس»، وجدّه «كمال»، وجدّ أبيه «أبادول» من قبل، وبدأت الرحلة التي لم يُعدّ لها «حمزة» عدّته، ولم يحسب لها حسابًا، ولم يصدّق للحظة أنّها ستحدث له! وفور أن اختفى من غرفة الأشباح، شعر الجدّ «أبادول» بدوار شديد، وترنّح وهو يسير تجاه الباب، لقد كان وقوفه أمام فجوة ممر «أمانوس» خطرًا للغاية، وقد جازف لينقذ حياة حفيده. اصطدم رأسه بجدار الغرفة وفقد وعيه في الحال!

3
«وضّاح»

«حمزة».....

مال «الرّماديّ» بجناحه وهو يحلّق فوق مملكة البلاغة، كانت البساتين ترتدي أبهى حللها السندسية الخضراء، منظر فردوسي خلّاب كان يتجلّى كلّما عبرنا جبلًا من الجبال ذات القمم البيضاء التي كانت تتوالى من تحتنا وكأنّها تسلم علينا ثُمّ على بعضها البعض في تناسق بديع، من بعيد كانت أشجار القيقب بأوراقها الملوّنة تتوزّع بشكل بديع، مررنا بكوكبة عظيمة من الصقور بدت وكأنّها تحيي «الرّماديّ» وهو يحملني، بدا وكأنّ بينهم وبينه إشارة مُتَّفقًا عليها!

ابتعدوا وهم يشكلون خطوطًا منتظمة ومتوازية يتقدمهم زعيمهم وكأنّه يقود لواء حرب ما!، وفجأة! تبعثروا في سماء مملكة البلاغة كلّ منهم في اتجاه مختلف، ينخفضون ويرتفعون بتكتيك منتظم وكأنّهم يواروننا عن الأنظار، زاد «الرّماديّ» من سرعته وضمّ جناحيه إلى جسده وانطلق كقذيفة المدفع تجاه الشرق فشعرت بقلبي وهو يهوي، ثُمّ بسط جناحيه مرّة أخرى وعرج على أرض عفراء[١] مترامية الأطراف وبدأ يحلّق فوقها في دوائر، كنت مشدوهًا وعيناي مفتوحتان على وسعهما، قلبي يتواثب في صدري من هول ما أراه وأعيشه، سألته وصوتي يرتجف:

-لماذا ابتعدت عن تلك البساتين؟

-سنهبط هنا.

قلتُ باستنكار:

---

(١) العفراء هي الأرض البيضاء التي لم توطَّأْ.

-ماذا! في هذه البقعة الخالية من البشر! أين قصر «الحوراء»؟ وأين النهر الأخضر؟ ومتى سألتقي بالمغاتير و«الزاجل الأزرق»؟

قال بحزم شديد:

-ليس الآن فرحلتك تختلف عن رحلة أبيك،كما أنّهم لا يعلمون بخبر وصولك.

-كيف هذا؟!

صمت هنيهة وقال بنبرة يشوبها القلق:

-طُلب مني بشكلٍ رسمي وسريّ أن أُحضرك إلى «الوادي الأبيض» لحمايتك.

سألته متوجسًا:

-ومن طلب منك هذا؟ ولتحميني ممن؟

قال شارحًا بصوته العميق:

-حرّاس المكتبة علموا بترصّد «الدّواسر» لأحفاد «أبادول» بعد ما حدث منذ عشرين عام تقريبًا، ووصَلهم خبر فتح ممر «أمانوس» مرّة أخرى، كما أنّهم يعرفون بالتأكيد بخبر اختيار الكتب لك كمحارب، فقرر كبير الحرّاس حمايتك بإخفاء أمر وصولك لأرض المملكة حتى عن «المغاتير» فلا بدّ أنّهم الآن مراقبون من قِبل «الدّواسر»، لتتمكن من أداء مهمّتك أيّها المحارب.

جُلت بعينيّ في المكان وقلت:

-لا أرى أيّ أثر للبشر هناك!

-لا تقلق، فعلى هذه الأرض العفراء ستلتقي بالسيّد «وضّاح».

-ومن هو السيّد «وضّاح»؟

أصدر غقغقة طويلة ثُمّ قال:

-إنّه حارس ممر «أمانوس»، الذي كانت بدايته تلك الفجوة السوداء التي ابتلعت أخاك، لقد علم هذا الحارس هويّته، فكلّ من يمرّ من تلك الممرّات تظهر صورة وجهه مع اسمه في كتاب خاصّ بالمكتبة العظمى، أخوك ليس محاربًا الآن، لكنه زائر، والزوّار هنا يستضيفهم البعض من أهل المملكة بطريقتهم الخاصّة، وآخر زوّار ممر «أمانوس» كان امرأة تُدعى «مِسكة»، وأظنّك تعرفها.

قلت بثقة:

-بالتأكيد أعرف قصّتها.

- لكنّنا لا نعرف في أيّ شخصيّةٍ وهيئة حلّ «خالد» على أرض مملكة البلاغة هنا بعد عبوره من «أمَانوس»، فهذا الأمر ما زال غامضًا لحرّاس الممرّات، ولنا جميعًا، لهذا كان قرار إغلاق تلك الممرات حتمي منذ سنين طويلة، لأنّها تعرّض من يزور المملكة للخطر، وتعرّض أهل المملكة هنا للخطر أيضًا.

شعرتُ بالضّجر فسألته:

-وهل لكلّ ممر من تلك الممرّات حارس واحد فقط؟

-نعم؛ وهو من حرّاس المكتبة العظمى القدامى ذوي الشأن العظيم والمكانة المتميّزة.

بدأ «الرّمادي» يخفف من سرعته ويهبط تدريجيًا شيئًا فشيئًا حتى لامست أقدامي الأرض، تركني فجأة فسقطت على ركبتيّ بينما ارتقى هو في السماء وهو يصدر غقغقة غريبة كان لها صدى مهيب في الأجواء، وكأنّه ينذر أحدهم بوصولي، استندت على الأرض لأقف فتعفّرت يداي، فوقفتُ أنفض التراب عنهما وعن بنطالي وأنا أتأمّل «الرّمادي» وهو يبتعد، لا بد أنه تخطى التسعين من عمره كما تخطاها «أبادول»، يا له من صقر قويّ، كيف يصمد حتى الآن!

استدرت فلم أجد سوى أرض عفراء واسعة مبسوطة أمام عيني إلى ما لا نهاية، خالية من النباتات، ومن الحيوانات، ومن البشر! شعرتُ بوحشة شديدة واستبدّ بي القلق، فقررتُ أن أبدأ السير.

كان الجوّ يزداد برودة كلّما توغّلتُ في طريقي اللا منته بتلك البقعة الموحشة من أرض مملكة البلاغة، كاد اليأس يفتك بيٍ لولا صوت صهيل الجواد الذي تناهى إلى سمعي فصرت أتلفّت يمينة ويسرة باحثًا عن اتجاهه، من بعيد كان هناك كهل يقترب على صهوة جواد عظيم الكراديس، كان يبدو مهيبًا وهو يمسك بزمام جواده يركض كالإعصار، لحية طويلة بيضاء كالحليب، يرتدي قباء[1] سماوية اللون مفتوحة عند الرّقبة، يطلّ منها عنق عريض يدلّ على قوّة صاحبه وإن كان كهلًا! أكمام القِباء محلّاة بخيوط فضية تبرق تحت أشعة الشّمس، وكان يتمنطق[2] بحزام أبيض عريض، بينما تغطي رأسه قلنسوة[3] زرقاء مطرّزة وعلى كتفيه ينبسط طيلسانٌ[4] عاجي اللون، اقترب في عجلة وكان يبدو عليه الانزعاج الشديد، حيّاني بصوت يختلج وترجل عن جواده بقفزة واحدة أثارت إعجابي، ووقف يتأمّلني بعينيه العميقتين، وقال وهو يلتقط أنفاسه:

-مرحبًا أيّها المحارب.

قلتُ وقد بدأ القلق يتسرّب إلى نفسي عندما رأيته يتلفّت خلفه ويراقب الجهة التي أتى منها:

-مرحبًا...من أنت؟

-«وضّاح».

---

(١) قَباء:ثوب يلبس فوق القميص ويتمنطق عليه.

(٢) يتمنطق: يرتدي حزامًا.

(٣) قلنسوة:لباس للرأس.

(٤) طيلسان:شال أو وشاح يضعه العلماء على الكتفين.

قلت بعصبية لم أفلح في إخفائها:

-أخبرني أبي ألّا أتسرع في دخول عوالم المملكة قبل أن ألتقي بالحوراء و«الزّاجل الأزرق»، فلم تخفون عنهم أمر وصولي؟

زفر «وضّاح» وقد ارتسمت على وجهه ملامح القلق الشديد وقال وهو يهزّ رأسه:

-كان لا بدّ من هذا، فـ«الدّواسر» يتتبعون أخبارك ولو علموا بأمر وصولك سيطاردونك حتى يختطفوك وينتقموا من «أبادول».

-وكيف سأبدأ رحلتي إذاً؟

أشار «وضّاح» لجواده وقال لي:

-اركب هذا الجواد بسرعة، هو يعرف الطريق، فهناك من يلاحقني، وأخشى أن يراك ويتعرّف عليك.

سألته بفضول:

-هل هذا الجواد من خيول الكحيلان؟

رفع حاجبيه ثُم اقترب وربّت على كتفي وقال:

-لا...ليس منها!

سألته بتلهّف:

-كيف سأتعرف على أخي وهو في هيئة أخرى؟

-ابحث عن جوهره، تلك الروح التي ترفرف بين جنبيه وتعرفها، ولا تلتفت للظاهر فقط، واحذر أن تُخدع فتفقده على الطريق.

ثُمّ قال «وضّاح» وهو يتعجّلني:

-أسرع يا بنيّ، فقد تركت خلفي من يُلهي الجواسيس عن تتبعي، ولعله لم يصمد!

تحسستُ كتابي الذي كُنت أخفيه تحت قميصي، فقال السيّد «وضّاح» وهو يخلع عن كتفه حقيبة قماشية ويسلّمها لي:

-لا بدّ أن تغيّر ملابسك تلك حتّى لا تلفت الأنظار إليك، هنا ستجد ما يناسبك، خذ هذه الحقيبة واركض بفرسك نحو الشرق، ولا تنسَ ..ضع كتابك في الحقيبة، ولا تظهره لأحد.

ثُمّ ساعدني لأركب الجواد وسألني:

-أين خنجر جدّك؟

شعرت باضطراب شديد، لم يمنحني «أبادول» خنجره المميز، وتلك الأشياء الأخرى التي أعطاها لأبي من قبل ليستعين بها خلال رحلته، تلعثمت وأنا أجيبه، لكنّ الكهل أراد أن يطمئنني فقال وهو يغرس عينيه في عينيّ بثقة:

-أنت من يُقرر أنّه ليس هناك ما يجعلك تحيد عن كونك مُحاربًا، لا تظنّ أنّك عاجز بلا أدواتك وأسلحتك، ما هي إلّا جمادات، فتّش أوّلًا عن روح المُحارب بداخلك، ثق بالله ثُمّ بإرادتك واعثر على أدواتك بنفسك، لكلّ محارب مميزاته الخاصّة، ولديك مميزات ستكتشفها بنفسك، هيّا انطلق بالجواد قبل أن يراك أحد جواسيس «الدّواسر».

ثُمّ ضيق عينيه وقال:

-احذر الخوف الشديد، والفزع الشديد، والانكباب على الشهوات.

-ماذا تعني؟

-«الدّواسر» يطوفون في كلّ مكان، وهم مخلوقات لها القدرة على احتلال أجساد الآخرين هنا عندما يتعرّضون لهذه المواطن الثلاث لأنّهم يكونون في أضعف حالاتهم، فيتمكن «الدّواسر» من إحلال كياناتهم الأثيرية فيها.

-وكيف سأنجو منهم؟

-حصّن نفسك.

-كيف؟

-كن مع اللّه...وستنجو، وانتبه...فمملكة البلاغة هي مملكة المتعة والمعاناة في آن واحد، هنا الصّراع بين النقيضين، والتناطح بين الأضّداد.

ثُمّ ضرب بكفّه على ظهر الجواد فانطلق كالإعصار وهو يحملني، كان يركض بسرعة شديدة وكنت أتلجلج على صهوته فاحتضنت عنقه لأثبت، بدأ يثير خلفنا سحبًا من الغبار هنا وهناك، التفتُ أبحث عن «وضّاح» فرأيت طائرًا عظيم الجناحين وكأنّ على رأسه تاجًا غريبًا! كان يحلّق فوقه ثُمّ انخفض ليحمله ويطير به كما فعل بي «الرّمادي» تمامًا!

مرّ ما يقرب من الساعة والجواد لا يتوقف عن الرّكض، وكنت أحتضن عنقه مستسلمًا، وأخيرًا توقف الجواد فجأة، كانت حدود أرض الوادي الأبيض قد انتهت عند تلك النقطة، ترجلتُ ولاحظت الأحجار البيضاء المرصوصة بجانب بعضها البعض على حدوده، تذكّرت كيف كان أبي يعبُر من بقعة لآخرى فوق تلك الحدود بأرض المملكة، أمّا أهل المكان فكانوا لا يستطيعون عبورها، فالتفتُ تجاه الجواد ومسحتُ على رأسه وألصقت جبهتي بعنقه وقلت هامسًا:

-شكرًا لك أيّها الجواد الأصيل.

صهل الجواد ورفع رأسه وكأنّه يحييني، تمنّيتُ لو تحدّث إليَّ كخيول «الكحيلان» لكنّه لم يفعل للأسف. عبرتُ حدود الوادي الأبيض وبدأت رحلتي سيرًا على الأقدام، تُرى كيف سأتعرف على أخي «خالد» وأين هو الآن؟

طال المسير، وبعد ساعات من السير بدأتْ الأرض أخيرًا تخضرّ تحت أقدامي شيئًا فشيئًا، القليل من الأشجار القصيرة هنا، وأخرى

ساقطة الأوراق هناك، نخيل سعفها عظيم وروائع تطل من بعيد، وعشب كثيف ناعم كالبساط الأخضر يمتدّ على أحد الجانبين، بدأتُ أرى بعض الخيم على مقربة من البقاع التي يكسوها العشب، لاح لي من بعيد بعض رعاة الغنم، تذكّرت أنّني لم أبدّل ملابسي بعد، فتوقّفتُ لدقائق وفتحت الحقيبة القماشية، وبدأت أخلع بنطالي وقميصي وحذائي الرّياضيّ، كُنت أفعل هذا وعيناي معلّقة بالسّحب في السّماء، يبدو أنّها ستمطر قريبًا! كانت الملابس التي أعطاها لي السيّد «وضّاح» من الكتّان الأبيض، لعلّني الآن أشبه أبي عندما وصل إلى مملكة البلاغة وارتدى مثلها في كوخ العجوز «ناردين» بالغابة المسحورة، وجدتُ حذاء من الجلد فانتعلته على مضض، لم يُعجبني الحذاء أبدًا، ولم تُرحني تلك الأربطة الكثيرة التي لا بدّ من عقدها لتثبيته على قدمي، لكنّني مضطر لارتدائه. دفنت ملابسي في حفرة عميقة تحت شجرة بلوط عتيقة، وسرت تجاه رعاة الغنم، فقد جفّ لساني من شدّة العطش بعد سيري لمسافات طويلة، كُنت أتوق لشربة ماء، ترى أين أخي «خالد» الآن؟ وهل هو بخير؟

شعرت بالكتاب يهتزّ في حقيبتي، فأخرجته لكي أقرأ أوّل جملة بدأت كلماتها تظهر تباعًا أمام عيني:

«قد تكون حكيمًا كالهداهد، أو جميلًا كالطواويس، أو ذكيًا كالغربان، أو قوي الشكيمة كالنّسور، أو حادّ البصر كالصقور، وربّما رقيقًا كالبلابل ولطيفًا كالعصافير، أو رشيقًا كالنورس، وثائرًا أبيًّا كالوَرَاشين، لكنّك أبدًا لن تطير بجناح واحد، فالزم أخاك، فأنتما جناحان، واضرب بجناحك لتلحق به، ولا تعجز، تكفيك وثبة واحدة نحو السّماء، ثُمّ رفرفة سريعة، وابسطهما قبل أن تُسْلِم نفسك للرياح لتحملك حيث تشاء، ولا تقاومها، وإن شعرت بالخطر، فاقبضهما واحذر».



4
شعب أُوركا

فيلق من الفراشات الزرقاء يحلّق برشاقة قرب سطح البحر اللازورديّ الفتّان. وكأنّه يشاكسه بأقدامه الدقيقة، لمسة خفيفة لسطحه اللجيني كانت تكفي لإثارة غضب البحر، ثُمّ يرتقي «الفراش» في جماعات، ويترك الموج ثائرًا وهو يصطفق مع بعضه البعض بعنفوان، وينثر بعض الرذاذ البارد في الهواء، ثُمّ يعود لهدوئه، وسحره، وسكينته.

تحت سطح الماء كان غناء «حيتان أوركا»[1] ينساب شجيًا مُهدهدًا لسطح الماء، بجمالهم الأخّاذ وقوّتهم الظاهرة وألوانهم البديعة كانوا يعيشون في جماعات، يمخرون عباب البحر ويتنقلون في أسراب، يصدرون صفيرًا مميزًا بتمرير الهواء بين أفواههم والفتحات التي في رؤوسهم فيما يشبه الجوقة الجماعية، لو أنصتّ إليهم وكُنت تفهم لغة الأُوركا لأحببتهم.

كانت تلك الحيتان تتحوّل لهيئة البشر كلّ شهر قمري خلال الليالي الحنادس[2] في نهاية الشهر.

وكانت تلك الأيّام الثلاث التابعة لليالي الثلاثة بمَثابة مغامرة لهم، حيث يُلقون بأجسادهم على الشواطئ في شكل جماعي، وسرعان ما يتغيّر كلّ منهم لهيئة بشرية ذكرًا كان أو أنثى، عرف أهل مدينة «وَرَاشين»[3]

---

(١) أوركا: الحوت القاتل أو السفّاح، وهو حيوان ثديي مائي، يمتاز بلونيه الأسود للظهر والأبيض للبطن والجوانب، تصبح مفترسة إذا شعرت بالخطر.

(٢) ليالٍ حنادس: أي شديدة السواد لغياب القمر حيث تسبق ظهور الهلال مباشرة.

(٣) «وَراشين» جمع وَرشان وهو طائر من فصيلة الحمام، يستوطن في جماعات ويهاجر إلى العراق والشّام، وهناك مثل يضرب به (بعلّة الوَرشان يؤكل رطب المشان) وهو يُضرب لمن يظهر شيئًا والمراد منه شيء آخر.

المجاورة هذا فكانوا يراقبونهم خُلسة، ثُمّ نشأت بينهم علاقات من نوع خاصّ، في البدايةكانوا يضعون لهم الثياب في الليلة الثامنة والعشرين من كل شهر، ثُمّ يختبئون خلف الأشجار ليراقبوهم من بعيد نظرًا لشراستهم وعنفهم في التعامل مع البشر. ثُمّ بدأوا يتكيفون مع الوضع، وشيئًا فشيئًا تعلّموا لغة البشر وصاروا يتعاملون بها مع النّاس بدلا من الصيحات التي كانوا يصدرونها والتي عُرفت بلغة الأوركا، أما بينهم فكانوا يفضلون لغتهم الخاصّة، صفير وصيحات مميزة مصحوبة باصطكاك الفكّين معًا، هم فقط من يفهمها. كانت نساء حيتان أوركا ساحرات للُب الصيادين، فُتنوا بهن، والبعض استغلهن وأساء التصرّف، وكان من يخطئ في حقهن يُعاقب بعد مرور الليالي الثلاثة الزُّهر[1] من أوّل الشهر القمري الجديد..

حيث كانت أنثى الحوت تنتظره في صورتها ككائن بحري شرس وتترصّده حتى يخرج بقاربه للصيد وتلتهمه إن كان قد غدر بها أو آلمها بأيّ طريقة عندما كانت على هيئة البشر. بمرور الوقت صارت الحيتان في هيئتها البشرية الجديدة أقوى، وصمدت عليها لفترات أطول، وزادت على الليالي الحنادس الثلاثة وامتدت لأسابيع عديدة، ثُمّ لشهور طويلة، حتى وصلت لعام كامل، ثُمّ أعوام!، والآن صار الأمر اختياريًا، إن أحبّ الحوت البقاء على اليابسة فليفعل، وإن فضّل البقاء بماء البحر فليفعل وليقفز فورًا في الماء ويغوص في أعماقه، يغوص، ويغوص حتى يصل إلى قاع البحر حيث العمق الشديد، وحيث تبتلع ظلمة البحر كلّ شيء، ليمتصّ جسده الماء ويتمدد جلده، وتنتفخ عضلاته، وينتفض ويتغيّر، ليستعيد هيئته كحوت مرّة أخرى. عُرفوا بشعب «أوركا» وصارت لهم قرية كبيرة خاصّة بهم على ساحل البحر، تزاوجوا وأنجبوا، ومن نسائهم من تزوجت ببشري أصيل، وعاشت خارج القرية الخاصّة بشعب «أوركا».

---

(١) الليالي الزّهر أي الليالي الثلاثة الأولى من الشهر العربي، والتي يظهر فيها الهلال.

كان لا بدّ من وجود حاكم لشعبهم، فتم انتخاب الملك «قاموس»[(١)] وزوجته، ليحكما شعب «أوركا» ويشرّعا القوانين الخاصّة بهم بالمشاركة مع بعض كبار شعب الأوركا المميزين، صنعوا للملك تاجًا من المرجان، وصارت له الكلمة وشرف القيادة.

غضب الملك «قاموس» عندما علم بقصّة الحب التي نشأت بين ابنته وبين شاب من شباب مدينة «وَرَاشين» يدعى «رَجْوان»[(٢)]، وكان «رَجْوان» أحد الشباب الصّالحين الذين كانوا يعلّمون شعب أوركا لغة البشر، لم تستجب الأميرة «أهاليل»[(٣)] لنهي والدها إيّاها عن الزواج به، وتزوجته بالفعل رغم رفض أبيها ورحلت معه إلى مدينة «وَرَاشين». وكذلك فعل أخوها، فقد رحل ليتزوج من حبيبته التي التقى بها في مدينة «وَرَاشين» أيضًا، وعاش معها معيشة البشر في مكان بعيد...بعيد جدًا، واختفى الاثنان بعد الزواج ولم يظهرا مرة أخرى. مرّت الأيّام وشعب «أوركا» يتنقل بين البحر واليابسة، ولم يتعرّضوا للخطر أبدًا. ورغم الرغد الذي كان يعم أجواء القرية، والحياة الطيّبة التي كانوا يعيشونها، كان ملكهم «قاموس» حزينًا لرحيل ابنه وابنته.

صارت مدينة «وَرَاشين» المجاورة لقرية «أُوركا» ترزح تحت موجة من الأحداث التي تسببت في الكثير من التغيّرات في كلّ شيء، طريقة الحكم، تنظيم الأمور، وحتى عاداتهم في الزواج، بل وصفاتهم الوراثية، فمنذ أن ظهر شعب «أوركا» النازح إليهم من قريتهم القابعة على ساحل بحر «حندس» وهم في شأن جديد، خاصّة بعد ثبات قدرات هؤلاء النازحين على التحول إلى بشر واستقرارهم على البرّ. وفَعل الحبّ أفاعيله،

---

(١) «قاموس» تعني البحر العظيم.

(٢) «رَجْوان» اسم علم مذكر بمعنى الرّاجي والآمل.

(٣) «أهاليل» الأمطار الشديدة، ويقال: هلّ السّحاب بالمطر، وهلّ المطر هلاً، وفي حديث الاستسقاء فألّف الله السّحاب فهلّتنا.

شباب مدينة «وَرَاشين» تزوجوا من بنات «أُوركا» الفاتنات، وبنات المدينة قبلن بالزواج من شباب «أُوركا» ذوي العاطفة الجيّاشة، والأذرع مفتولة العضلات.

كان شعب «أُوركا» من تلك الشّعوب الصّاخبة، التي تعشق الاحتفالات والاجتماعات، منفتحًا في تعاملاته، يحب السير في جماعات، والعمل في جماعات، والصيد في جماعات، وكانوا يدللون النساء، أمّا شعب مدينة «وَرَاشين» فكانوا يميلون للهدوء والغموض والخصوصية الشديدة، وكان رجالهم شديدي الغيرة على نسائهم، ويعاملونهن بقسوة شديدة قد تصل لبيعهن في الأسواق، وتسبب هذا في صدام بين الشعبين في الكثير من الأحيان، وكان لا بدّ من حدوث هذا، فالطباع تختلف!

في البداية، كانت قصة زواج ابنة الملك «قاموس» حاكم شعب «أُوركا» من «رَجْوان» غريبة، أمّا الآن فقد صار الأمر عاديًا، وبعد توسّع قرية «أُوركا»، ونزوح المزيد من شعبهم إلى مدينة «وَرَاشين» القريبة منها، وتوغلهم في البناء الاجتماعي لها، وتزاوجهم وتناسلهم، ازداد الصراع والتشاحن، وانقسم النّاس إلى ثلاث فئات، شعب «وَرَاشين»، وشعب «أُوركا»، والهجناء[١] وتصاعد الصراع على الحكم والسّلطة، وبدأت حوداث الغدر والقتل تظهر، فهناك من يكره أن ينافسه أحد في حكم تلك المدينة، حتى ولو كان شقيقه الذي هو من لحمه ومن دمه...

وذات ليلة، تعرّض شعب «أُوركا» لهجوم من عشيرة من الجنّ علموا أنّها تسمّى «الدّواسر»، فتصدّروا لهم برًّا وبحرًا، خرج «الدّواسر» بداية في صورتهم البشعة، فأصابوهم بالرّعب، فقتلوا الكثير من شعب «أوركا»، ففرّ آخرون منهم وعادوا لماء بحر «حِنْدس» مرّة أخرى ليعودوا إلى

---

(١) الهجناء هم الأبناء من أب متحوّل من شعب أُوركا وأُمّ بشرية، أو من أمّ متحوّلة من شعب أُوركا وأبّ بشريّ.

أصولهم كحيتان، أمّا من صمدوا على اليابسة فلم يحسنوا إدارة المعركة معهم، وكيف لهم أن يُحاربوا كيانات أثيرية لا تُلمس ولا تُحس بأياديهم!

حاول «الدّواسر» أن يسكنوا القرية فحلّوا في أجساد أفراد الشعب البشرية بكياناتهم الأثيرية، وخاصّة ذوي النفوس الضعيفة التي يقهرها الخوف أو الفزع، الخوف من الوحوش الأخرى، ومن الموت، ومن المرض، ومن الفقد، ومن الظلام، وكانت هذه هي نقطة الضعف والثغرة أو البوابة التي يتسلل منها «الدّواسر» لجسد أي مخلوق آخر. سيطر «الدّواسر» بالفعل على بعضهم وتحدّثوا بألسنتهم، فانقسم شعب «أوركا» على نفسه، ووقف الأخ مواجهًا لأخيه، يهاب أن يطعنه لأنّه يعلم أنّه لا يتحدّث بلسانه بل بلسان أحد الدّواسر الذي احتلّ جسده، وكان هذا أمرًا شديدًا على أنفسهم.

قرر الملك وقف القتال، واجتمع الشعب على قرار واحد، أن يطردوا هؤلاء المأسورين بأجسادهم والملبوسين بأرواح الدّواسر من قرية «أوركا» ليعيشوا في مكان آخر حتى يتخلّصوا من أسر «الدّواسر» لأجسادهم ويعودوا إلى رشدهم، فطاردوهم حتّى فرّوا إلى وادي «الفراديس» وبعد وصولهم للوادي طردوا سكّانه من أهل النّوبة وغيرهم، واحتلّ «الدّواسر» أيضًا بعض أجساد النوبيين من ضعاف النفوس والخائفين منهم، فازداد عدد «الدّواسر».

جمع الملك «قاموس» شعبه ليتشاور معه، فالآن شعب «أُوركا» يحتاج لعون أهل مملكة البلاغة ليتغلّب على «الدواسر» ويسترد أفراد شعبه مرّة أخرى، فمنهم الأبّ، والأم، والابن، والابنة، ممن كان خوفهم سببًا في وقوعهم في أسر «الدّواسر»، لم يقف حاكم مدينة «وَرَاشِين» وشعبه معهم لصدّ هذا العدوان، فهم يخافون من «الدّواسر»! ويحسبون الحساب لمواجهتهم. سمع الجميع عن «أبادول» وما فعله بتلك العشيرة قديمًا عندما تغلّب على خوفه فما عاد لهم سلطان عليه، وتمنوا لو عاد

لليلة واحدة ليخلصهم منهم، وتعود لهم حياتهم الرغدة مرّة أخرى. صارت البيوت في وادي «الفراديس» تضج بأصوات «الدّواسر» الذين يعيشون في أجساد البعض من شعب «أوركا»، و«الدّواسر» عشيرة الجن التي لا يُستهان به.

يا لهم من عشيرة قميئة، لقد تمكنوا من الهرب من زنازينهم التي سُلسلوا فيها لسنوات تحت جبل عظيم، والآن هم أحرار ولا بدّ من الاحتفال.

أقيم عرش زعيمهم «قلب العقرب» وسط قصر عظيم يطلّ على النهر الذي يقطع وادي «الفراديس»، اصطفّ «الدّواسر» في حلقات حول زعيمهم، تعالت همهماتهم وهم يصدحون باسمه ويرفعون كفوفهم وهم يؤدون طقوسهم الخاصّة، الآن هم أقوى، الآن هم أكثر شراسة من ذي قبل، والآن سيستطيعون استعادة أمجادهم القديمة، وسينتقمون يومًا من «أبادول».

5

«هُرهُور»

يا لها من رؤيا جميلة، رأى الغلام نفسه حوتًا صغيرًا أبيض، وكان يسبح في الماء مع سرب عظيم من الحيتان، ما أروع هذا الشعور! قرّبت خالته فمها من أذنه وهمست قائلة:

-قُم يا «هُرهور» قبل أن يوسعك «كُوكُون» ضربًا بالسوط.

قفز المسكين من فراشه الّذي كان عبارة عن كيس مخيط من جلد الماعز محشوّ بالليف وأوراق الشجر، وكانا في غرفة بسيطة، قال ودقّات قلبه تتواثب خوفًا وذُعرًا وكأنه يركض هاربًا من وحشٍ يتتبعه:

-قُمتُ ...قُمت يا خالة.

التفتَ تجاه المرآة المكسورة والمسنودة على جذع شجرة في أحد أركان الغرفة، واقتربَ منها وتأمّل انعكاس صورته فيها، وجه أبيض مستدير ومشرّب بالحمرة، وعينان واسعتان ممتلئتان بالخوف، وأنف أفطس يعلوه النّمش، وجسد هزيل وضعيف، وقف يُحملق في وجهه ويتحسس حلقات شعره الأسود، وتكررت الأسئلة التي طالما ترددت في رأسه...

لماذا لا يُشبه خالته أم «كُوكُون» وابنها؟ ولماذا لون بشرته لا يُشبه لون بشرة كلّ من بالقرية؟ ولم يعامله البعض وكأنّه نكرة! ويسخرون من شكله وهيئته، وأحيانا يرفض الغلمان الآخرون اللعب معه، ينعتونه أحيانا بألقاب بذيئة، ويسبّون أمّه التي لا يَعرفها! يقولون إنّه لقيط، وربّما هو لا يعرف معنى تلك الكلمة على حقيقتها حتى الآن. تمنّى كثيرًا أن تكون بشرته سمراء كأبناء النوبيين هنا، فهو يُحبُّ من يُحسنون إليه منهم، وخاصّة الشّاب «مُولي» فهو يعامله بلطف شديد، والكثير من أهل القرية أيضًا، لكنّه لا يدري لماذا هو في بيت «كُوكُون» وأمّه بالذّات! أسرع يحمل جرّة من الفخّار وخرج من الدار راكضًا نحو بئر قريبة وسط المراعي التي تحيط القرية، كان الوقت فجرًا والطرق خالية من العابرين، رأى الغنمات بجوار خيمة كبيرة تخصّهم، كانت منصوبة بجوار باقي خيم الرّعاة، كان قلبه يرتجف وهو يركض، يخشى أن يستيقظ «كُوكُون» قبل أن يجلب له الماء، كان يخافه، فقد بدأ يضربه بالسوط، لم تعد الصفعات التي تتوالى على وجه الغلام الصغير بكفّه الغليظة تشبع جوع نفسه الخبيثة، وكأنّه ينتقم منه!، تحسس الغلام كتفه فشعر بألم شديد، كشف قميصه فوجد آثار الضرب بالسوط تشكّل خطوطًا حمراء على جلده، كان «كُوكُون» يكره تلك النباهة التي بدأت تظهر على الغلام، كلماته الفصيحة وردوده عليه أصبحت تستفزّه، وصار الضرب بالسوط أقوى وأعنف. ركض خائفًا وحزينًا، فانهمرت دموعه عندما وصل للبئر،

ملأ الجرّة بالماء، وانحنى ليحملها فرأى انعكاس وجهه على صفحة الماء، عاد لحيرته، لماذا لا يشبههم؟

حمل الجرّة وهرول نحو القرية، انسكب نصفها في الطريق لأنّه كان يترنّح من شدّة التعب، أنزلها أمام الدار ودلف غرفته فوجد المرآة أمامه مرّة أخرى تُذكّره بملامحه ولون بشرته الذي كان سببًا في ألمه! فسالت دموعه، وجلس يُفكر في اسمه، وسأل العجوز وهي تمر بجواره:

-لماذا أسميتني «هُرهور»[1]؟

التفتت نحوه وطالعته بنظرات دهشة وقالت:

-أتتذاكى عليّ يا غلام؟

ثُمّ سكتت هنيهة وقالت:

-يبدو أنّك كبرت، لأوّل مرّة تسألني هذا السؤال!

ثُمّ اقتربت منه واحتضنت كفه بكفيها المجعّدتين وقالت:

-لا بدّ أن تعرف الحقيقة الآن.

تسارعت دقّات قلبه وسألها:

-أيّ حقيقة؟

دمعت عيناها وقالت هامسة:

- لقد أطلقتُ عليك هذا الاسم لأنني عثرت عليك تحت أشجار العنب بين هراهير العناقيد الساقطة على الأرض، قرب ينابيع مدينة «وَرَاشين» العجيبة، تركتكَ أمّك تحت شجرة بالقرب من تلك الينابيع فور ولادتك مباشرة، أو ربّما ماتت لا أدري!

---

(١)هرهور العنب هو ما تناثر من أصل عنقود العنب، ويطلق أيضًا على نوع من السّفن، ويقال هرهور الماء لصوت الماء وهو يتدفّق كثيراً.

انقبض قلبه عندما ذكرت أمّ «كُوكُون» كلمة الموت، فهو وإن لم يعرف أمّه تلك من قبل! فمجرد تخيّل موتها أفزعه، أضافت العجوز بتأثّر:

-سمعت البكاء فهرولت نحوك، وكنّا وقتها نحمل متاعنا ونسير على الطريق فقد أخرجونا من بلادنا جبرًا وقهرًا، ودّعنا وادي «الفراديس» وانطلقنا فارّين إلى قرية «كروسكو»[1] هنا، كُنت عاريًا وترتجف من شدّة البرد يا صغيري، غسلت جسدك بماء الينابيع وأزلت عنك آثار دماء كانت عالقة بك، وحملتك فسكنت في حضني، فخبأتك تحت خماري وأخذتك إلى خيمتي، عندما وصلنا لقرية «كروسكو» أعلنت أنني عثرت في الطريق على رضيع وأنني سأربيه، وربّيتك حتى صرت هُرهوري الحبيب.

سألها بعفوية وهو يتمعّن في وجهها:

-لماذا لم تعيدوني إلى هناك.

-أتعرف تلك المراعي التي تخرجون إليها بالغنمات؟

-أعرفها!

-لا يجرؤ أحد على تخطيها.

-لماذا يا خالة؟

-لم نخرج من تلك البقعة منذ وصلنا إليها بسبب طيور الوَرَاشين.

-كيف؟

-كلّما همّ أحدهم بالخروج في رحلة تجارة أو أيّ شيء هاجمته طيور الوراشين، فيعود مذعورًا ولا يُكررها.

وهنا دلف «كُوكُون» بقامته المديدة، وصرخ بصوته الأجشّ في وجه الغلام، وبدأ يضربه بالسوط لأنّه لم يملأ الجرّة كما ينبغي، لم يعلم أنّه سكب نصفها من التعب وهو يركض نحو الدار. كان الغلام كخادمه

---

(١) «كروسكو» اسم قرية نوبية بمصر.

الخاصّ، يقضي نهاره في قضاء حوائجه، يسكب على يديه الماء ليغتسل قبل أن يذهب لعمله، ثُمّ يخرج مع الغنمات مع أبناء القبيلة من الغلمان ممن يعملون برعي الغنم في المراعي القريبة التي لا يجرؤ أحد منهم على تخطيها، يهرب مع الغنمات من جحيم سوطه، وكانت العجوز الحانية القلب ترفق به وتدس له التمرات في جيب قميصه البالي ليقتات عليها نهارًا، وعندما يعود كانت تطعمه العسل والفطير، كانت حنونة، تظنّ أنّ هذا سيعوضه عن قسوة «كُوكُون»، أحبّها كثيرًا وأحبّته، لكنّها لم تفلح في منع ابنها «كُوكُون» من جلده بالسوط، لهذا كان ساخطًا عليهما.

كان اليوم طويلًا، مرّ الوقت ثقيلًا على قلبه الصغير، فهو «هُرهور» الحزين الذي يكرهه الغلمان لأنّه كالح البشرة ولا يُشبههم، كان يهشّ على الغنمات خارج قرية «كروسكو» ويكفكف دمعه بطرف كمّه عندما رأى شابًا يرتدي ثيابًا من الكتّان ويحمل حقيبة قماشية ويسير نحوه...

يا إلهي! ما هذا؟ لون بشرة الشّاب يشبه لون بشرته! ركض نحوه بأقصى سرعته، كان متلهفًا للحديث معه، فقد كانت رؤية وجهه كشربة ماء بعد ظمأ طويل، ليس غريبًا بعد الآن، ليس وحيدًا، ليس شاذ الشكل يا أهل القرية!

ربّت الشّاب على رأسه وسأله بحنان بعد أن ألقى التحيّة:

-ما اسمك؟

قال الغلام بخفوت:

-«هُرهُور».

-وأنا «حمزة».

ودّ أن يُخبره أنّه خائف، وحزين، ويشعر بالغربة، لكنّه خجل منه، فوقف ساكنًا كالصّنم يتأمّل ملامحه، سأله «حمزة» شربة ماء، فأسرع إلى حيث كان يجلس ليراقب غنماته، وأحضر له قربة الماء التي كان

يحملها، شرب «حمزة» حتّى ارتوى، والتفت إلى «هُرهُور» بثغره البسّام، اقترب رفاق «هُرهُور» من رعاة الغنم وبدأوا يراقبونهما بفضول شديد، كانوا ينقّلون أعينهم بين وجهيهما، وكان «هُرهُور» يضحك كالمجنون، التفّوا حول «حمزة»، الذي كان لطيفًا وهو يسألهم عن أسمائهم، سألهم عن أقرب قرية ليبحث عن عمل، وكانت السّماء قد بدأت تُمطر فدعاه «هُرهُور» لدار خالته أمّ «كُوكُون»، فسارا معًا نحو القرية، وقد بدأت السّعادة تدبّ في أوصال الغلام، أخيرًا هناك من يُشبهه، أحسنت العجوز استقبال «حمزة» وضيّفته، ونصحته أن ينتظر ابنها «كُوكُون» لعلّه يُفيده، غربت الشّمس، ودَحمَس[1] الليل، بينما كان «هُرهُور» يراقب النّجوم مع «حمزة» وهما يجلسان معًا أمام الدّار، ظلّ «حمزة» يُمازحه وهو يُناديه «هُرهُور»...يا «هُرهُور» حتى أحبّ الغلام اسمه هذا الذي كان قد بدأ يكرهه، لاحظ «حمزة» فزعته وانتفاضته عندما ناداه «كُوكُون» فور وصوله ليُطعم جواده، لم يفعل المسكين شيئًا يستحقّ الجلد بالسّوط، لكنّه بدأ يضربه، قام «حمزة» وأسرع تجاههما وحدث ما لم يكن في الحُسبان.

6
«الدّوامس»

صاح «قلب العقرب» صيحة زلزلت الوادي، كان يجلس على عرشه ويزوم كالوحش الكاسر، ركع أمامه وزيره وقال:

–مولاي الملك، لماذا أنت غاضب، لقد سيطرنا على الكثيرين من شعب «أوركا» وغيره، وهانحن نزداد نفوذًا وقوّة يومًا بعد يوم، سنستعيد مجدنا وستكون أرض مملكة البلاغة كلّها لنا يومًا ما، وسنسحق «المجاهيم»، و«المغاتير»، وأعوانهم.

---

(١) دَحمَس أي أظلم.

قال «قلب العقرب» بصوت هادر:

-لم تنجح تلك الحمقاء «مِسكة» في اختطاف حفيد «أبادول»، كلّ المحاولات باءت بالفشل، عشرون عامًا مرّت ونحن ننتظر العون من حفنة من شرذمة مؤلفي تلك الكُتب التي لا قيمة لها.

ثُمّ صرخ بعنفوان:

-لماذا ينجح المحاربون في استرداد كُتبهم! لماذا!

ثُمّ أردف بحنق شديد:

-لا بدّ من القضاء على تلك الصقور، ولنحرق تلك الكتب، ونذبح حرّاس المكتبة العظمى، سننهي أسطورة المحاربين تلك، سنقضي على تلك الكُتب الحيّة، وسيسجد لنا البشر، وسنحرق كلّ شيء.

ثُم زفر بحنق وأضاف:

-لم ينجح في فتح ممر «أمانوس» إلا تلك المرأة، وها نحن ننتظر كاتبًا آخرًا من البشر، يفتّش في الكتب القديمة، وخاصّة كُتب السّحر، ثُمّ يعثر بالصدفة على الطلاسم ويُرددها، ثُمّ نتواصل معه...آه... كم من الوقت سننتظر لنحصل على ما نُريده، لماذا لم تتمكنوا من تسخير بشري آخر لتلك المهمة حتى الآن بدلًا من هذا السّخف!

أحنى الوزير رأسه وقال:

-تعلم يا سيّدي أنّنا تمكنّا من تسخيرها وخداعها فقط لأنّها كانت خائفة، دومًا خائفة، من الوحدة، ومن المجهول، ومن كل شيء، حتى الحشرات والقططا وأنت تعلم أنّ نجاحنا يكمن في خوفهم.

-هناك ملايين من البشر، الكثير منهم ضعاف خائفون.

-لا تنس يا سيّدي أمر «الحورائيات»[1]، إنّهن يفضحن ما يحدث هنا.

شرد للحظات وقال بحنق:

-لم أنسهن، سنقتلهن أيضًا.

-ولا تنس أيضًا أننا لا نستطيع البقاء في عالم البشر لفترة طويلة، مجرّد دقائق معدودة نقضيها ونعود.

تنحنح أحد كبار الدّواسر وقاطعهما قائلًا:

-كانت «مسكة» تطلب العودة، تخلّصتْ من خوفها منّا بعد أن اعتادت على الحَديث معنا، ودِدْتُ لو تمكنتُ من خلع عينيها وأنا أقتلها.

رشقه «قلب العقرب» بنظرة ثاقبة وقال:

-أيها الأحمق...لم يكن من الصواب قتلها، سنضطر للانتظار حتى نتواصل مع كاتب آخر ليفتح ممر «أمانوس» مرّة أخرى، ويختطف أحد أحفاد «أبادول» ليكون لنا ومنّا، وحتى يحدث هذا، سنفتّش عن «الحورائيات» في كل شبر من أرض المملكة.

قال الوزير:

-سمعت أنّ الممرّ فُتح مرّة أخرى.

-ماذا! من أخبرك؟

-«ساجور».

-إن صدق فهناك زائر على أرض المملكة، ولا بدّ أنّه كاتب آخر فتح أحد الكُتب التي تحتوي على طلاسمنا الخاصّة، وردد الطلاسم ثلاثًا.

-بالتأكيد.

---

(١) الحورائيات طائفة من الفراشات، رتبة حرشفيّات الأجنحة، والاسم لجنس من الأجناس البشرية التي تسكن غابة من غابات مملكة البلاغة.

-فلنبحث عن هذا الزّائر في كلّ مكان، فنحن في حاجة إليه.

-أمرك يا مولاي.

انصرف الوزير الذي كان يسكن جسد شاب من شباب شعب «أوركا» ويتحدّث بلسانه، قرر أن يعود إلى القرية خُلسة للقاء حبيبته، لعلّه يعرف الأخبار منها.

7
«مُولي»

«حمزة»....

كنّا أمام الدار عندما وصل «كُوكُون» بوجهه العبوس، انقضّ على «هُرهور» وانهال على ظهره ضربًا بالسوط وبلا رحمة وبدون سبب يدفعه لذلك، آلمني جدًا ما رأيته من قسوته على الغلام، فأسرعتُ وقبضتُ على ذراعه وسحبت السوط منه وألقيته أرضًا، استشاط غضبًا وسدد إلى وجهي ضربة عنيفة بقبضة يده فأسقطتني أرضًا، كان يزوم كالوحش الكاسر وهو يقول:

-أيّها الحثالة...كيف تجرؤ؟

ثُمّ جذبني من ثيابي صارخًا:

-من أنت يا كالح البشرة؟

وبدأ يركلني بقدمه في صدري، كانت تلك المرّة الأولى التي أُواجه فيها خصمًا بتلك الصورة، دومًا كُنت أتهرّب من المواجهات، وكان هذا يُغضب أبي منّي، ولهذا انسحبت من التدريبات الرياضية التي سجلني فيها أنا وأخي «خالد»، كُنت دومًا أخاف المواجهة..أخشى الانهزام، والآن لا مجال للخوف فأنا وحدي هنا!

قمت لأواجهه واستحضرتُ كلّ ما تعلّمته من فنون القتال والدّفاع عن النّفس، أوسعته ضربًا كما لم أفعل مع أحدٍ من قبل، لأوّل مرة أضرب وأضرب ولا أتوقف!

كان شجاري مع «كُوكُون» عنيفًا للغاية، حتى أنني جرحته في وجهه وكذا فعل في يدي، أسقطّته أرضًا ووضعت ركبتي على صدره، اكفهرّ وجهه فدفعني بذراعيه بقوّة لأبتعد عنه، وثب في مكانه وأقبل تجاهي وكُنت متأهّبا للدفاع عن نفسي ولكنّ بعض أهل القرية حالوا بيننا، بدأوا يسحبونني من ذراعي ليبعدوني عنه، في تلك اللحظة أقبل شاب مديد القامة عليه مسحة هيبة رغم بساطة مظهره، خلع قميصه على عجل وألقاه على يدي حيث كانت دمائي تسيل منها ولفّه بعناية عليها وهو يتمعّن في ملامحي، من همسات الآخرين علمت أنّ اسمه «مُولي»[1]، تراجعت على مضض وصحت غاضبًا في وجه «كُوكُون»:

–أتضرب غلامًا لا حول له ولا قوّة!!

قال بصوته الأجشّ:

–هذا ملعون، خطيئة تمشي على الأرض، وهو لا يستحق إلّا الضرب بالسياط .

صاح «مُولي»:

–يا لك من ظالم جبار!

وهنا صرخ «هُرهُور» وهو يبكي:

–لست ملعونًا ولستُ خطيئة تمشي على الأرض.

صاحت امرأة كانت تخفي نصف وجهها بخمارها وتقف لتراقبنا من بعيد موجهة كلامها لـ«كُوكُون»:

---

(١) «مُولي» اسم نوبي بمعنى الجبل.

-تصف الغلام بالخطيئة وأنت بؤرة الخطايا في قريتنا أيها البرميل.

ضحك البعض..حتى «هُرهُور» الذي كان يبكي ضحك هو الآخر، بدا لي أنّهم يكرهون «كُوكُون» هذا، والذي استشاط غضبًا وأخذ يرغي ويزبد. ازداد الحشد حولنا، فبدأ يهدأ ويعدّل من ثيابه في اضطراب واضح.كانت الأمور تبدو مبهمة لي فمنذ لحظة لقائي الأولى بالغلام وبعد دخولنا القرية لاحظت اختلاف ملامحه ولون بشرته عنهم جميعًا، سألتهم وأنا أنقل نظراتي بين وجوههم:

-أين أهل هذا الغلام وعشيرته؟

قال «كُوكُون» بغضب شديد:

-ومالك أنت؟

-لا يشبهك ولا أظنّك أباه!

بصق على الأرض وقال بازدراء:

-قمامة وجدناها على قارعة الطريق وكادت الذئاب تأكله.

صاح الغلام:

-كاذب!

ثار «كُوكُون» وكاد يصفعه لولا ذراع «مُولي» التي حالت بينهما، أردف الغلام وهو يرتجف:

-لم يعثروا عليّ بالقمامة، لقد عثرت الخالة عليّ قُرب «ينابيع وَرَاشين» تحت أشجار العنب منذ سنوات.

سكن أهل القرية للحظات وكأنّ أحدًا ألقى رداء الصمت على رؤوسهم، لم ينبس «كُوكُون» ببنت شفة، فاجأه ما قاله الغلام عن يَنابيع «وَرَاشين»، كاد يحرق أمّه بنظراته.

مسح «مُولي» على رأس «هُرهُور» وقال موجهًا كلامه لـ«كُوكُون» وأمّه:

-لماذا أخفيتما أنّكما عثرتما على «هُرهُور» عند «ينابيع وَرَاشين» التي مررنا بها قبل أن نصل لقريتنا هنا؟

تلعثم «كُوكُون» وهو يتمتم قائلًا:

-لم تخبرني أمّي عن المكان الذي عثرت عليه فيه، ونحن مررنا بعدة قرى، والتقينا بالكثير.

اقتربت العجوز وقالت بخفوت:

-أشفقت عليه مما سيحدث له لو شاع في المدينة هناك أنّه...

رفع «مُولي» يده ليسكتها، ثُمّ هزّ رأسه وقال وقد لاحت على شفتيه ابتسامة يشوبها الحزن:

-لقد قُمت بخطف الغلام يا خالة! لا بدّ أن نُعيده لأهله وعشيرته.

تعالت همهمات الحضور، رشقوا الغلام بنظراتهم، وكأنّهم يرونه لأوّل مرّة، صاحت أم «كُوكُون»:

-ولكنني أُمّه، لقد ربيته! وهو أخ لولدي «كُوكُون».

زمجر «كُوكُون» قائلًا:

-لن يكون هذا المسخ أخًا لي أبدًا، إنّه لقيط! ألم أخبركم أنّه خطيئة تمشي على الأرض؟

غضب «مُولي» كما غضب الكثير ممن يقفون من أهل القرية وكرهوا ما وصفه به «كُوكُون»، كان أغلبهم يُشفق على الغلام ويعامله بلطف، وتلك كانت شيم أهل النوبة، إلّا حفنة ممن أعماهم الغضب والقسوة، هؤلاء الذين لا يرون بقلوبهم أبدًا، قلتُ مؤنبًا لـ«كُوكُون»:

-وما ذنب الغلام؟ وحتى إن أخطأ والداه، وهذا أمر تجهلونه بالمناسبة، فأنتم لا تقرأون الغيب! ثُمّ من منا يختار والديه؟ بل من هنا يختار ملامحه؟ أنت عزيز في نفسك طالما لم تذلها إلّا لخالقك، طاهر طالما لم تنجّسها بذنوبك!

ربّت «مُولي» على كتفي، بدا لي أنّه استحسن كلماتي، انحنى على الغلام الذّي كان منكمشًا وكأنّه ارتكب جرمًا ويخشى العقاب وقال وهو يرمقه بحنان:

-لماذا لم تخبرنا أنّ «كُوكُون» ما زال يضربك يا «هُرهُور»؟

نكّس الغلام رأسه، وسالت دموع أم «كُوكُون» وهي ترى انكساره، فرفع «مُولي» رأسه وقال بصوت جهوري ليُسمع الجميع:

-هذا الغلام عُثر عليه على أرض مدينة «وَرَاشين»، وأظنّه من أبناء شعب «أوركا»، وأنتم تعلمون ما حدث لهم في تلك المدينة، وسمعنا جميعًا عن حادثة الينابيع التي تصادف وقوعها وقت مرورنا من هناك.

كانت بعض الكلمات مُبهمة لي، فأنا لا أدري ما الحادثة، وما الينابيع، وما هي وَرَاشين، لكنني لن أتخلّى عن هذا الغلام، غرستُ عينيّ في عيني «كُوكُون» كما لم أفعل من قبل وقُلت مهددًا:

-لن يُضرب «هُرهُور» بالسوط بعد اليوم.

-أتهددني؟ يا لجرأتك!

قالها «كُوكُون» بتنمّر محاولًا إثارة أهل القرية عليّ، لكنّهم لم يستجيبوا له رغم كوني غريبًا عنهم، وقف بيننا «مُولي» وقال:

-ما عاد لكم سلطان على الغلام، بقاؤه هنا ظلم له، سأعيده بنفسي لأهله وعشيرته، وسأتكفّل برعايته حتى أرده إلى شعب «أوركا».

صاح «كُوكُون»:

-لن تستطيع الخروج به من القرية، ستهاجمكما طيور «وَرَاشين» وستنقر رأسيكما.

قال «مُولي» بتصميم:

-لا بدّ أن أُحاول، لطالما حاولنا الخروج طلبًا للتجارة وغيرها، فلنحاول هذه المرّة أن نخرج لهدف نبيل ليس من ورائهمكسب مادي، لردّ الحقوق مثلًا، فللغلام حقّ في أهله، ولأهله حقٌ فيه، وربّما لن تهاجمنا الطيور إن خَلُصَت نوايانا...فهل من صاحب يرافقنا في الطريق؟

تعالت الهمهمات، وانصرف القوم، ولم يُظهر أحد منهم نية لاصطحاب الغلام، صاحت العجوز وهي تبكي:

-خذه يا «مُولي»....خذه إلى هناك، ما عُدت أُطيق ضرب «كُوكُون» له، كبر الغلام وقلبي يتمزّق عليه، فليسامحني الله.

لم يجرؤ «كُوكُون» على معارضته، وخاصّة بعد كلمات أمّه الأخيرة.

أطبق الصّمت على الجميع، مدّ «مُولي» ذراعه واحتضن الغلام وأمره أن يحضر متاعه من داخل الدّار، تبعته العجوز وهي تكفكف دموعها، عانقها الغلام بحرارة ووعدها أن يزورها من آن لآخر، كان فرحًا لأنّه سيغادر الدار فبعد أن أدرك الحقيقة، قد يكون له أهل وأب وأم وأشقاء، ما عاد يرغب بالبقاء معهما، سبقنا مهرولًا على الطريق وكأنّه عصفور أطلق من قيده للتوّ، انطلقنا مع «مُولي» تجاه داره بعد أن دعاني بحضوره الآسر وبإصرار لزيارته، كان يمسك بذراعي وكأنّه يعرفني، راودتني الشكوك وقلت في نفسي ربّما «مُولي» هو أخي «خالد» وقد حلّ محلّ هذا الشّاب هنا بمملكة البلاغة تمامًا كما حدث لـ«مِسكة»، باغتني بقوله:

-مرحبًا بك أيّها المُحارب..

أصابني الذهول فسألته:

-وكيف عرفت؟

قال وهو يشير إلى يدي الملفوفة بقميصه:

-دماؤك لونها أحمر، وهكذا المحاربون.

شعرت أخيرًا بالرّاحة، هناك من يعرف على الأقل أنني محارب، سألته في الحال:

-وهل تعرف عن المحاربين؟

هزّ رأسه قائلًا:

-نعم أعرف عنهم وعن المكتبة العظمى، سمعت الكثير عما يحدث في مملكتنا العجيبة هنا، مملكة البلاغة تضج بالأسرار والغموض، كلّ بقعة هنا دارت عليها قصص وأساطير غريبة.

كُنت في حيرة أتساءل في نفسي، هل هو أخي «خالد» أم لا؟ ظللت أتلفّت وأحملق في وجهه وهو يسير بجانبي لعلّه يلمح لي بأيّ علامة فأعرف أنّه أخي «خالد» وسألته:

-هل تودّ إخباري بشيء؟

عقد حاجبيه وقال متعجبًا:

-مثل ماذا؟

-أيّ شيء..

ابتسم فكشف اللثام عن أسنانه اللؤلؤية البيضاء وقال:

-مرحبا بك بيننا.

قُلت ممتنًا له:

-مرحبًا بك يا أخي.

انفرجت أساريره عندما ناديته بـ«أخي»، وكلّما كررتها كان يبتسم، قُلت ممتنًا له:

-بالمناسبة شكرًا على القميص، الآن فهمت لم ألقيته على يدي، أردتَ إخفاء لون دمائي، أليس كذلك؟

-بلى.

ثُمّ رفع حاجبيه قائلًا:

-لو علم أهل القرية أنّك مُحارب سيطردونك في الحال.

-لماذا؟

-لأننا ومنذ وصولنا إلى هنا نعيش في مجتمع مغلق، ولأنّك مختلف! سينبذونك.

ثُمّ زفر بحنق وأضاف:

-تمامًا كما يفعل بعضهم مع «هُرهُور»، يصبّون غضبهم على الصغير لأنّ لون بشرته مختلف، فهذا يزعجهم للغاية.

قلتُ متعجبًا:

-غريب أن...

قاطعني «مُولي» قائلًا:

-أن يعاملوه بنفس المنطق القميء الذي يعاملنا به الآخرون لأن لون بشرتنا السمراء مختلف..أليس كذلك؟

-بلى، ولأنّه غلام مسكين!

-نعم، ولهذا أُشفق عليه، ولكن هناك شيئًا لا بدّ أن تعرفه، ، وهذا ليس عذرًا وإنمّا فقط أُخبرك لكي تعرف السّبب، فوجهه وملامحه تذكرهم بمن طردونا من ديارنا، ما زالت مرارة الظلم الشديد الذي وقع علينا تظلل على الجميع، لقد طردنا الغزاة من ديارنا في وادي «الفراديس» بجوار جبل «أمانوس».

تسارعت دقّات قلبي عندما سمعت كلمة «أمانوس» تخرج من بين شفتيه، قاطعته بفضول:

-وأين جبل «أمانوس»؟

-إن أحببت الذّهاب رافقني غدًا في رحلتي لمدينة «وَرَاشين»، سأعيد «هُرهُور» إلى هناك لأبحث عن أهله، قبل أن يعود «كُوكُون» لاسترداده مني.

-وهل سيفعلها؟

-نعم، أنت لا تعرفه، يتلذذ بقهر الغلام وتعذيبه، حاولت كثيرًا أن أضمّه وأرعاه لكن الغلام كان يرفض لأنّه يحبّ الخالة أم «كُوكُون».

-لكن...يبدو أنّ «كُوكُون» يهابك، فهو لم يرد لك كلمة!

-ربّما لأنني عطّار القرية الذي يصنع لهم الأدوية والعلاج من الأعشاب، وأعرف الكثير عن أسراره، وعن مرضه الجلدي الذي أصابه بسبب إهماله لنظافته، وما كُنت لأفضحه! لكنه دوما يخشى هذا الأمر!

-أنت تعمل كمعالج أو..طبيب إذًا..

-ليس تمامًا لأنني لم أتمكن من الخروج من القرية للدراسة، ولكن تستطيع أن تقول هذا يا...ما اسمك؟

-«حمزة».

سألته محاولًا فهم ما وراء قصّة «هُرهُور» قائلًا:

-ما قصّة شعب «أُوركا» ومدينة «وَرَاشين»؟ ولماذا لم تسكنوا هناك معهم بالقرب من الينابيع التي تحدّثتم عنها؟

أطلق تنهيدة وقال:

-سأخبرك بكلّ شيء...هل سمعت عن حيتان الأُوركا من قبل؟

وانطلق يروي لي قصّة شعب أُوركا، وسمعت ما أدهشني!

وصلنا أخيرًا لبيت «مُولي»، كان بيته بسيطًا، بابه ذو لون باهت، تعلو سقفه علامات البلى بفعل المطر! حتى طلاء جدرانه من الدّاخل بدأ يتلاشى، وبقيت مسحة من لون أزرق شاحب حول مقابض ومسامير النوافذ الصدئة، وقف أمامنا وأحنى رأسه بأدب ومدّ ذراعه وانحنى بشكل مسرحيّ وقال وعلى وجهه ابتسامة:

-مرحبا بكما في داري.

كدت أجنّ، لقد أحنى رأسه كما يفعل أخي! ولكن...هل هو أخي «خالد» أم لا؟ أو...ربما كان «كُوكُون» هو أخي!!

يا إلهي..أيُعقل أنني أوسعت شقيقي ضربًا منذ قليل!

كيف سأعرف من منهما أخي؟

جلست بجوار «هُرهُور» الذي كان ممددًا على فراش بسيط وهو يئن ويتألّم من جراح السوط على ظهره، بينما «مُولي» يعالجها بدهان ملطف ومسكن للألم صنعه بنفسه، كنت متعبًا للغاية، فاستسلمت للنوم سريعًا، لكنني وبعد ساعات قليلة وجدتّه يوقظني أنا و«هُرهُور» ويهمس إلينا لنتبعه، قال قبل أن يفتح الباب ببطء شديد:

-لا بدّ أن نخرج الآن، لقد بَهَر القمر النّجوم، وانتصف الليل منذ ساعة.

سألته وأنا أفرك عينيّ متعجبًا:

-لماذا الآن؟ فلننتظر حتى تشرق الشّمس.

قال بقلق:

-كانت الخالة أمّ «كُوكُون» هنا منذ قليل، وحذّرتني من «كُوكُون»، تقول إنّه يجمع عصابته ليداهمنا، فهو غاضب منك يا «حمزة»، ويريد استرداد «هُرهُور».

قال «هُرهُور» بصوت يشوبه القلق:

-طيور وَرَاشين ستهاجمنا.

قال «مُولي»:

-سنحاول، ولو ظهرت الطيور وهاجمتنا سنعود، وعندها سأتعامل مع «كُوكُون» بطريقتي الخاصّة، ولن أسمح له بأذيتك بعد اليوم.

ثُمّ أردف وهو يطالع «هُرهُور» بنظرات تشي بالغموض:

-أعطتني الخالة قلادة تخصّك، كانت حول رقبتك عندما عثرت عليك، ربّما سنستدلّ بها على أهلك، وقالت..

سألته:

-ماذا قالت؟

-ضع القلادة حول عنق الغلام وأخبره أن يظهرها عندما يدخل مدينة «وَرَاشين»، فهناك من يحمل نصفها الآخر وسيتعرّف عليه لو رآها.

بدا وكأنّ «مُولي» يخفي جزءًا من حواره مع أم «كُوكُون»، ابتسم الغلام وتناول القلادة ووضعها حول عنقه وتشبث بثيابه، كان يشعر بالبرد، انطلقنا في طريقنا وكانت الرّياح شديدة البرودة، اقشعر بدني من هذا البرد القارس، واستحال جلدي جلد إوزة، رفعت رأسي للسماء وبدأت أحدّق في النجوم، برق نجم وضوى وكأنّه يراقبني، قلت متعجبًا من بريقه الظاهر:

-ما هذا؟

قال «مُولي» بعد أن رفع رأسه هو الآخر ورآه:

-هذا نجم يسمى «قلب العقرب».

ثُمّ التفت نحوي وقال وقد بدا عليه التأثّر:

-عدني بشيء يا «حمزة».

-وما هو؟

-لو هاجمتنا طيور الوراشين ولم أنجح في المرور واستطعت أنت و«هُرهُور» المرور منها، رافقه حتى تُسلّمه لأهله، ولا تتخلّ عنه.

-سأفعل إن شاء الله يا صديقي.

هزّ «مُولي» رأسه قائلًا:

-لا تقل صديقي، بل قل أخي كما قُلتها أوّل لقائنا، فأنا وحيد، ولو تمنيت شيئًا لتمنيت أن يكون لي أخ يحبّني وأحبّه، وأنت....أخي!

انخلع قلبي، وشعرت وكأنّه شقيقي «خالد» يحدّثني، قُلت بتأثّر:

-وأنت...أخي!

كان «هُرهُور» ضعيف البنية لكنّه بدا لي حمولًا وصبورًا رغم صغر سنّه، وجّه إليّ الكثير من الأسئلة عن المحاربين، وكُنت أجيبه قدر استطاعتي بما يُناسب عمره، عندما اكتفى رفع ثوبه فوق رأسه فأشفقت عليه، ورقّ «مُولي» له فأخرج ثوبًا صوفيًا ثقيلًا ولفّ رأسه وأذنيه به فصار يسير أمامنا في سكون وكأنّه مغيّب عنّا، هَمستُ لـ«مُولي» وأنا أسير بجواره:

- هل أخبرك شيئًا عجيبًا؟

-وهل هناك أعجب من كونك مُحاربًا!

-نعم، ربّما يكون أخي هنا...

-أين؟

-في صورة واحد منكم!

فغر «مُولي» فاه من فرط الدّهشة، وبدأت أحكي له ما حدث لمسكة ثُمّ لأخي، نطقت عيناه بالحيرة والانبهار معًا، أنهيت قصّة أخي «خالد»، وكان «مُولي» يهزّ رأسه متعجبًا، لم يبدُ منه أيَّ تلميح لكونه أخي، فعاد اليأس يحلّق فوق رأسي، اشتدّت الرياح، وكان لصوتها دوي مهيب

ومخيف، كان «هُرهُور» يسير بيننا خائفًا، وكنت أطمئنه من آن لآخر، مددت ذراعي له وقرّبته منّي، ومضينا خلف «مُولي» الذي كان يحفظ الطريق إلى مدينة «وَرَاشين» جيدًا.

عندما أشرقت الشّمس علينا شعرنا بالدفء، طمست بأشعتها لون الهواء فبددت الضباب العالق به وتلاشى فصارت الرؤية رائقة، ظهرت أسراب طيور الوراشين، توقفنا وأصابنا الاضطراب، حلّقت فوقنا بشكل مُريب، ارتفعت وانخفضت في نظام وانسجام، اقتربت أكثر، لم تلمسني ولم تلمس الغلام، وبدأت تطوف حول «مُولي» بينما يتراجع هو للخلف، بدأت تنقره نقرًا خفيفًا في ثيابه وكان يخلّص نفسه منها ويتراجع بظهره، اقتربتُ منه وأشحتها بيدي عن وجهه ووقفتُ أمامه، فانقضّت عليّ ونقرني طائر منهم في يدي فسالت دمائي، هرع «مُولي» إليَّ وخلفه «هُرهُور» لكنّهما تراجعا عندما أصدرت الطيور جلبة شديدة، كانا يخافان منها؛ وهذا ما منعهما مساعدتي، انتفض الطائر فور أن رأى لون دمائي الأحمر وتراجع، حطّ طائر آخر واقترب بمنقاره من جُرح يدي كأنّه يتذوّقه أو يشمّه، تيبست أطرافي وكنت أشعر بالقشعريرة تسري في هيكلي كلّه، لامس دمائي بطرف منقاره ثُمّ رفع عيناه الضئيلتان تجاه عينيّ ونظر مليًا فيهما ثُمّ ابتعد، كان «هُرهُور» يراقبنا والدّهشة تطلّ من عينيه النّابهتين، هبط الكثير منها ليقف أمامنا على الأرض، صرنا كثلاثة من الأصنام ننتظر ما ستفعله الطيور، ارتفعت الطيور في نظام وعلقوا في الهواء وهم يرفرفون بأجنحتهم، ثُمّ تراجعت وابتعدت حتى ابتلعها الأفق! ابتسم «هُرهُور» وهزّ «مُولي» رأسه متعجبًا، عدنا لسيرنا، وبدأ «هُرهُور» يسألني بفضول عن دمائي الحمراء وعن المُحاربين مرّة أخرى، وبدأنا نتحدّث عن قصص المحاربين، سرنا ليوم كامل، توقفنا للراحة مرّتين فقط، كنّا نأمل في الوصول إلى حدود قريَة «أوركا» التي هي أقرب إلينا من مدينة «وَرَاشين» قبل أن يحلّ علينا ليل آخر، لكننا تعبنا وكان «هُرهُور» أكثرنا إرهاقًا، فاضطررنا للمبيت في أحد البساتين،

على أن نكمل رحلتنا في الصباح التالي، على أصوات سقسقة صراصير الحقول، ونشيج نقيق الضفادع في بركة من الوحل تتوسّط هذا البستان غرق «مُولي» و«هُرهُور» في النوم، بينما بقيت أراقب حشرات الحباحب بأذنابها المضيئة وهي تحلّق فوق الأشجار حتى بدأ النّعاس يُداعب عينيّ، وفجأة شعرت بشيء غريب يزحف بجواري، مرّ بسرعة البرق فوق جذعي وملّس عليه بقوامه الأسطوانيّ، تخشّبت أطرافي، حرّكت أصبعي بحذر فلامستُ أديمه فشعرت بحراشفه الخشنة، في غمضة عين كان يلتفّ حول ساقي فانتفضت جالسًا وصرخت في هلع، كان ثعبانًا ضخمًا ومرقّشًا له رأس عظيم..

اقترب من أنفي ببطء ثُمّ فتح فمه وأصدر فحيحًا وهو يُخرج لسانه ذا الشّعبة وحرّكه في الهواء، كنت أشعر بدقّات قلبي وهي تتواثب أسفل عُنقي، قرّب رأسه بحركة خاطفة ولامس طرف أنفي بلسانه المشقوق، ثُمّ حدّق بعينيه المخيفتين في عينيّ، تيقنت عندها أنني سأموت بلدغة منه لا محالة، لكنّه لم يلدغني! بل ثبّت رأسه في الهواء للحظات، ثُمّ تراجع برأسه وأعاد فتح فمه على وسعه وخرج منه ظل عظيم أسود لكيان مظلم له رأس كبير، ويدان عملاقتان، تعملق الكيان أمامي، وخرج من فم الثّعبان ليجثم فوق صدري، ظللت أنازع وهو يلصق وجهه بوجهي، كُنت أشعر أنّه يتخللني، كرر طلاسمًا غريبة تذكّرتها في الحال، كانت نفس الكلمات الثلاثة التي رددتُها وكانت مكتوبة على هامش الكتاب الملعون، حيث كانت سببًا في ظهور الفجوة مرّة أخرى قبل أن يُغلقها «أبادول»، سرت قشعريرة في جسدي كلّه، في تلك اللحظة وثب «مُولي» وحمل حجرًا ثقيلًا ودكّ رأس الثعبان ثلاث مرّات بقوّة شديدة حتّى أنني سمعت صوت عظام رأسه وهي تتحطّم، كان «مُولي» يبسمل ويحوقل فانزاح الكيان عن صدري، وبدأ يتذبذب ويصدر أصواتًا تشي بأنّه يتألّم ثُمّ سكن الصوت، وتفتت الكيان الأسود وتبعثر في الهواء وكأنّه رماد يُنثر،عاونني «مُولي» على الجلوس، شعرت بإعياء شديد، قُلت بصعوبة وأنا أنتفض:

-هل رأيته؟

ربّت «مُولي» على كتفي وأشار لجثّة الثعبان وقال:

-اهدأ يا «حمزة»، لقد قتلته.

-لا أقصد الثعبان، بل الكيان الأسود الذي خرج من فمه، هل رأيته؟

-لم أر شيئًا سوى هذا الأُفعوان!

أدركت حينها أنّ هذا واحد من «الدّواسر» كان يحاول السيطرة عليّ وليس قتلي، فلو أراد قتلي للدغني الثعبان في الحال، أخبرت «مُولي» بما رأيته وسمعته، وعن الطلاسم، ووصفت له كيف لامس الثعبان أنفي بلسانه، فقال بعد أن لاحظ تكرار مسحي لأنفي بإشمئزاز:

-الثّعابين تتعرّف على الرّوائح بألسنتها[1]، لكنّه بدا وكأنّه يتفحّصك أو...يختبرك ليتحقق من كينونتك! لا شكّ أنّ هذا بسبب الدواسريّ الذي يسكنه.

كُنت أعرف هذا الأمر عن الثّعابين من قبل، قلت وما زالت دقّات قلبي متسارعة:

-أراد السيطرة عليّ وليس قتلي!

-وهذا هدف «الدّواسر»كما فهمت منك.

قال «مُولي» وهو يحمل جثّة الثّعبان ليبعدها ويُخفيها قبل أن يستيقظ «هُرهُور» ويراها:

-الغلام غارق في النّوم، حمدًا لله أنّه لم يستيقظ.

تفحّص «مُولي» المكان قبل أن يعود للنوم وقال لي:

---

(١)يلتقط الثّعبان جزيئات الروائح الكيميائية من الهواء بلسانه، ومن ثم ينقلها إلى عضو شم إضافي يوجد في سقف الفم، يُسمى العضو الميكعي الأنفي أو عضو جاكبسون.

-اثبت يا فتى، ما زلنا بأوّل الرّحلة، فقط عليك بالحذر، فـ «الدّواسر» قد علموا بوصولك.

-ولكن هل مات هذا الدّواسري بموت الثّعبان؟

-إن كان قد مات فلن يعود لمهاجمتك.

ابتسم «مُولي» وحانت منه التفاتة تجاهي وقال:

-أعلم أنّه من الصّعب أن تكون هادئًا، ومطمئنًا طوال الوقت، تنفّس فقط، تنفّس يا صديقي، بعثر القلق الذي تحبسه في صدرك وحرره مع الأنفاس.

عاد مُولي للنوم بجوار «هُرهُور»، أمّا أنا فلم أذق طعم النّوم وبقيت أجوس بعينيّ في المكان..

8
غابة البَيْلَسَان

أجواء غابة البَيْلَسَان تعبق برائحة زهوره العطرة، الطيور تغرّد على أغصان الأشجار في ابتهاج، الرياح تدور حاملة أصوات البلابل وهي تشدو، سطح البحيرة يهتزّ كلّما لامسته نسمات الهواء البارد، كانت «السيّدة الملوّنة»(١) تسير بثوبها الذي يحمل كلّ ألوان الطيف، وهي تلف رأسها بوشاح حريري شفاف موشّى بفصوص من الياقوت الأحمر، والزمرّد الأخضر، والزّفير الأزرق، فهي تعشق الألوان، ويا له من عشق!

كانت تتبختر وهي تسير بينما خلفها تسير الوصيفات بثيابهن الأنيقة وروائح عطورهن التي تُذهب العقل في موكب بديع، جلست على عرشها المحفوف بأزهار البَيْلَسَان وحيّتهن بوقار وهيبة، كانت هادئة تظلل عليها

(١) السيدة الملوّنة: نوع من الفراشات.

السكينة وهي ترشف من كأسها رحيق الأزهار الذي جمعته لها وصيفاتها ومزجنه بالماء ليعددن لها شرابها المفضّل، كان هذا قبل أن تدلف لمجلسها «مُونارش»[1] كالإعصار، حيث قالت بعصبية شديدة:

-لماذا! لماذا كلّنا هنا فتيات فقط! لماذا لا نختلط بالنّاس خارج الغابة؟ مملكة البلاغة واسعة، والبساتين والحدائق حولنا بالألوف، لماذا نحن محاصرات هنا؟

طالعتها السيدة الملوّنة بعينيها الرائقتين وقالت بحنان وهي تتأمّل ثيابها البُرتقالية:

-ما الذي حدث لك يا «مُونارش»! ألم أروِ لك قصّتنا من البداية!

ثُمّ أضافت بجديّة وهي تضع الكأس على الطاولة أمامها:

-أنتِ تعرفين أنّ خروجنا من الغابة يعني موتنا، كما تعلمين أن مهمتنا...

قاطعتها «مُونارش» قائلة:

-أعرف، الوصيفات يذكرننا بها كلّ صباح، ننصت للرياح، ونسمع الحكايا التي حدثت بالفعل منذ لحظات على أرض المملكة لكي تَثبت فورًا في الكُتب، ونهمس بها في ذات اللحظة بآذان الكُتاب والمؤلفين، أعرف يامولاتي أننا بنات أفكارهم، لكنني كرهت أن أكون بنات أفكار أحدهم وهو لا يعلم أنني أساعده، ولا يراني، ولا يشعر بي!

ثُمّ عقدت ذراعيها وقالت غاضبة:

-ألا يكفي أننا مرغمات على نقل كل ما نسمعه حتى القبيح منه، نحن ننقل كلّ شيء، لماذا لا بدّ أن نحكي عن قصص القتل، والخيانة، والدمار، والخبث، لماذا!

---

(١) مُونارش: نوع من الفراش الكبير وهي تتميز بلونها البرُتقالي والأسود وتسمى أيضًا الفراشة الملكية.

قالت «السيّدة الملُونة»:

-لكننا نحكي عن الحبّ، والأمان، والسعادة، والعدل والتضحية والإيثار أيضًا.

قالت «مُونارش» وقد احتقن وجهها:

-بصراحة.. أُريد سكنًا وزوجًا أُحبّه ويحبّني، أُريد أيضًا أن أكون أمًا!

ضحكت «السيّدة الملونة» وقالت:

-ولماذا أنتِ الوحيدة التي شعرت بهذا فجأة؟ هاهن الفتيات، لم تشكُ إحداهنَ من هذا من قبل! نحن «حورائيات»[1] يابُنيتي!

قالت «مُونارش» بحدّة:

-ربّما لا تجرؤ إحداهن على التصريح، لكنني واثقة أنّ الكثيرات هنا يردن الخروج من الغابة، والزواج، وإنجاب الكثير من الأطفال.

ثُمّ التفتت «مُونارش» للحاضرات وسألتهن وهي تهزّ رأسها:

-أليس كذلك؟ من توافقني الرأي ترفع يدها الآن.

رفعت يدها لتشجعهن، فارتفعت أصواتهن بهمهمات غير مفهومة، واحدة فقط رفعت كفها ثُمّ خفضته على استحياء وهي ترشقها بنظرات حائرة، عندما رأت منهن هذا عادت والتفتت للسيّدة الملونة وقالت:

-حسنًا، أنا أتحدث عن نفسي فقط، أُريد الخروج من الغابة، لا عيب أن تكون أحلامي مجنونة...سأخاطر! أُريد البحث عن أهلي، وأبي وأمي.

-أبوك هو من أحضرك إلى هنا بنفسه، وكذلك كلّ الحورائيات في قصر البَيْلَسَان وحتى الوصيفات يا بُنيتي، وكل أنثى بغابة البَيْلَسَان.

طالعتها «مُونارش» بنظراتها الحائرة وسألتها:

(١)الحورائيات طائفة من الفراشات، رتبة حرشفيّات الأجنحة.

-حتى أنتِ يا مولاتي؟

تمعّضت ملامحها وقالت في أسى:

-لم يحضرني أبي، ولكن...أحضرني«أبادول».

شهقت «مُونارش» عندما سمعت اسم «أبادول» وقالت:

-أخبريني المزيد عن «أبادول» هذا!

أشارت إليها السيّدة الملُونة لتتبعها نحو «قصر البَيْلَسَان»، واتجهتا نحو جناحها الخاصّ، أدخلتها بهدوء وتلفتت يمينًا ويسارًا قبل أن تغلق الباب عليهما، وجلست قبالتها وبدأت تحكي:

-«أبادول» محارب عظيم، وأنت تعلمين مهمة المحاربين التي لا تقلّ أهمية عن مهمتنا هنا.

هزّت «مُونارش» رأسها موافقة وسألتها:

-ولماذا لم يحملك أبوكِ يا مولاتي؟

تنهّدت «السيّدة الملوّنة» وقالت:

-قتل «الدّواسر» أبي وهو يحملني على ظهره إلى هنا لينقذني من الموت، وكدت أموت أنا أيضًا، فقد كنت في السادسة من عمري وقتها، وتعلمين أننا-الحورائيات- لا نعيش فوق السادسة إلّا في ظروف بيئية معينة، ولو ظللنا خارج هذه الغابة سننتشرنق على ذواتنا ويصيبنا الجفاف ونموت، وبالفعل هذا ما كان يحدث حتى اكتشف أحد حرّاس المكتبة العظمى قديمًا طبيعة أجسادنا التي تشبه طبيعة الفراشات، عندما قرأ عنّا وعن غابة البَيْلَسَان في كتاب علمي عتيق قبل أن تبتلع الكتب كلماتها وتُخفيها، فصار يتجوّل ويخبر النّاس عن الغابة هنا، وعن طبيعتنا وتلك التغيرات التي تحدث لنا خلال حياتنا، فأدرك أهل «مملكة البلاغة» تلك الحقيقة

وصاروا يحملون بناتهم للغابة منذ القدم، يودّعونهنّ بالدموع، آملين لهنّ حياة جميلة، فقد كانت مراقبة موتهن قاسية للغاية، وكم من حورائية ظلمت بسبب رفضّ أهلها لتلك الحقيقة، وماتت بين أيديهم بسبب عدم قدرتهم على التضحية والتفريط فيها بنقلها للغابة هنا، وتكذيبهم لتلك الحقيقة!

أطلقت «مُونارش» تنهيدة وقالت:

-وماذا بعد؟

أردفت السيّدة الملوّنة قائلة:

-شاع في أجواء المملكة أنّ بعض بنات قريتنا يلفظن أنفاسهن الأخيرة صباح اليوم الذي يبلغن فيه السّادسة من أعمارهن، فزارنا أحد كبار حرّاس المكتبة بالقرية، ونصح أهلنا بحملنا إلى غابة «البَيْلَسَان» هنا لنعيش ونؤدي مهمّتنا، وكان «أبادول» حاضرًا وقتئذ، أسَره «الدّواسر» وعذّبوه ليُسلمهم كتابه، فأبى وكان لديه خنجر يقطع به المسافات الطويلة في لحظات، سلبوه إيّاه، أدرك أنّ خوفه يضعفه، وأنّه لو تخلّص من هذا الخوف لن يتمكن «الدّواسر» من السيطرة عليه، وكان قويّ العزيمة والبنية، وكان ينقصه فقط شيء يتعلّق بروحه، الإيمان العميق يا ابنتي، واليقين الذي يقتل الخوف، وعندما ازداد إيمانه واعتصامه بالله تخلّص من سطوتهم وعاد لقريتنا، كان قد التقى بأبي من قبل خلال رحلته، ونشأت بينهما صداقة عميقة، وحزن حزنًا شديدًا عندما علم أنّ «الدّواسر» قتلوه، وقتها كنت أسمع الرياح تهمس لي بالقصص، أخبَرتني الرّياح عن نهاية الحرب التي دارت بين«المجاهيم» و«الدواسر»، وكيف ساعد أبادول المجاهيم بأسر زعيم «الدّواسر» المسمّى بـ«غيهبان»، وكان هذا سببًا في خضوع العشيرة لـ«أبادول»، وحتى شقيقه المسمّى بـ«قلب العقرب» أسره أيضًا وسَلسله، فخضعوا أمامه وانصاعوا له

وطالبوه أن يحكمهم ويقودهم، فأمرهم «أبادول» بتسليم ما سلبوه من أرض للمجاهيم ففعلوا، وأمرهم باحتلال أجساد وحوش الجبال الخانعةً بكياناتهم الأثيرية والدخول إلى مغارات جبل أمانوس ففعلوا طواعية له، وأغلقها عليهم، فألقى المجاهيم طلاسمهم عليهم فلم يتمكنوا من الخروج من أجساد الوحوش مرّة أخرى...

إلتقيت بـ«أبادول» وأخبرته بما سمعته، وكان لا بدّ أن أهمس بالحكاية في أذن كاتب ما من العالم الذي أتى منه «أبادول»، فأنا من بنات أفكار هذا الكاتب، لتدوّن على الورق هناك، فتثبت القصة، ويسترد الكتاب العتيق هنا بالمملكة كلماته، وتثبت القيم التي دوّنت به قديمًا، فإن لم أصل إلى «غابة البَيْلَسَان» هنا وأبدأ في الهمس سأموت لأنني كُنت خارج الغابة، وستُمحى قصّة هزيمتهم ولن تدوّن هناك ولا تُستردّ هنا، وستفك الطلاسم وسيعود «الدّواسر» لطغيانهم وسطوتهم، فقرر «أبادول» البقاء رغم انتهاء مهمّته، وعرّض نفسه للخطر، وحملني على ظهره وسط عاصفة ثلجية شديدة، وركض قاطعًا الغابة المسحورة والمطر يهطل بغزارة حاملًا كتلًا من الثلج كانت تسقط كالقذائف، كان يرتجف، ما زلت أذكر صوت أنفاسه المرتعشة وهو يعبر بي بحرًا مظلمًا ما زلت أذكر صوت اعتلاج أمواجه، وكان لا بدّ من العبور فوق جسر عظيم وغريب البناء، وكان الطريق طويلًا من تلك الجهة، فتوقف وأشعل النار بصعوبة ليدفئني، وكنت ضئيلة الحجم، صغيرة الرأس، ضعيفة البنيان، أتجمّد من البرد، وكان حنونًا للغاية. قرر اختصار الطريق فلفني بغطاء وحملني على ظهره وربطني حتى لا أسقط، وصعد وهو يحملني فوق جبل «أمانوس»، كان الجليد يغطي الجبل من كلّ جهة، وقرر أن ينزلق بي من فوق الجبل الشّاهق ليختصر المسافة للغابة، وخاطر بحياته ليحضرني هنا، ونجونا بأعجوبة، ووصلنا أخيرًا. جلست بجواره على أرض غابة البَيْلَسَان الدافئة وكان قد فقد وعيه، جاء كهل مشرق العينين له لحية

طويلة بيضاء تُشبه الحليب في لونها، مسح على رأسي وابتسم، وهمس في أذني قائلًا:

-أخرجي ما بصدرك من كلمات يا صغيرتي.

فوجدتني فجأة أهمس بقصة «المجاهيم» وكيف سحقت تلك العشيرة من الجنّ عشيرة أخرى من الجنّ أيضًا تسمّى «الدّواسر» بمساعدة «أبادول»، وظللت أسرد أحداثًا لم أرها بعيني! ووقع في نفسي أنّها حدثت بالفعل، وعندما انتهيت من الهمس شعرت بالرّاحة، وكأنني تخلّصت من الأسر وانحلّ قيدي، فحيّاني الكهل وأخرج خنجر «أبادول» الذي كان قد فقده من كمّه ووضعه بجواره، وطلب منّي أن أخبره أن يحافظ عليه لأنّه كنز يوّرث، ومضى في طريقه.

لم أبرح مكاني حتى أفاق «أبادول»، وسرنا معًا بالغابة وكفّه الحنون تحتضن كفي الصغيرة، والتقينا بملكة عظيمة، تعيش بالغابة وترعى الفتيات الصغيرات، اسمها «الحوراء»، وضمّتني تلك الملكة لرعيّتها.

سألت «مُونارش» بفضول شديد:

-وأين هي «الحوراء» الآن؟

أجابتها «السيّدة الملوّنة» قائلة:

-رحلت ...كانت في ريعان شبابها عندما تركتنا.

-هل ماتت عندما تركتِ الغابة يا مولاتي؟

-لا..تزوجت وأنجبت، ولها شأن عظيم في المملكة الآن.

صاحت «مُونارش»:

-أرأيت!! ها هي قد رحلت عن الغابة ولم تقتلها البيئة خارجه، وأنا أريد أن أكون مثلها!! فلماذا تمنعينني؟

-لا أمنعك، أنا أحميك، وأخشى عليك، وأتعجب لطلبك، فلم يطلبه أحد قبلك!

-فعلتها الملكة «الحوراء» من قبل! وأنا سأفعلها.

-ولكن...هناك أمر هام لا بدّ أن تعرفيه.

-وما هو؟

-«الحوراء» استطاعت أن تخرج من الغابة هنا وتعيش في الخارج لأنّ هناك من أحبّها ورغب فيها.

رفعت «مُونارش» رأسها بكبرياء وقالت:

-أمر بسيط، سأجد من يحبني!

حدّقت «السيّدة الملوّنة» في وجهها وقالت:

-ليس الأمر بتلك السهولة، سأكون صريحة معك، وربّما توجعك كلماتي.

-لن توجعني الصراحة مهما كانت!

ترددت «السيّدة الملونة» قليلًا، لكنّها قالت في النهاية:

- انظري في المرآة، نحن«الحورائيات» قبيحات للغاية، قبيحات جدًا، من يرانا لو تحقق في ملامحنا سيكرهنا، فقط من يُحبّك سيراك جميلة الجميلات، سيحب كلّ عيب فيك، سيراه أجمل ما في ملامحك، «الحوراء» لم تكن جميلة عندما غادرت غابة البَيْلَسَان، لكنها وبعد أن منحها زوجها الحبّ الذي ملأ قلبها وجوارحها مرّت بالطور المَلَكيّ، وهو ما يشبه مرحلة ما بعد الشرنقة للفراشات، النضوج الذي يظهر بعده الجناحان الرائعان، والألوان الجذّابة، نضجت «الحوراء»، وكأنّها صارت بجناحين كبيرين خفيّين، هي تحلّق في سماء مملكة البلاغة، رفعها الحبّ يا عزيزتي، فأصبحت من أجمل النساء واشتهرت بذلك، وكان لخبر عودتها لحضن

أبيها وأهلها أيضًا صدى عظيم بالمملكة، كانت أوّل من لجأ للغابة، وعاشت وحدها لفترة طويلة، وبدأت ترعى الفتيات عامًا بعد عام وعانت كثيرًا، إنّها تستحقّ.

سألتها «مُونارش» بفضول شديد:

-من تزوجها؟

-شابٌ رائع من أهل مملكة البلاغة، ولقد أعدّ لها أبوها زفافًا يليق بها.

أغمضت «مُونارش» عينيها وقالت بهيام:

-ما أروع هذا!

ضحكت «السيّدة الملوّنة» وقالت:

-يا لك من فتاة حالمة!

احمرت وجنتا «مُونارش» وقالت على استحياء:

-أتمنى أن أجد من يحبّني، حتى أطير...أطير..

طالعتها «السيّدة الملوّنة» بجدية وقالت:

-أرجوكِ يا «مُونارش»، لا تكثري من الحديث عن مشاعرك تلك أمام الفتيات، حتى لا تؤذي أيّ منهن نفسها وتجازف بالخروج من الغابة، فلم أصادف فتاة تتحدث مثلما حدّثتِني اليوم، وأظنّك مختلفة عنهن!! بل عنّا جميعا!

ثُمّ اقتربت من وجهها وقالت وهي تتعجّب:

- ما بالُ عينيك؟

-ما بهما!!

فغرت السيّدة الملوّنة فاها وقالت:

-صارتا ملوّنتين، أنتِ تتغيرين يا عزيزتي! تتغيّرين يا «مُونارش».

أسرعت «مُونارش» للمرآة، ووقفت تحملق في صورة وجهها، ثُمّ ازدردت ريقها في اضطراب وقالت:

-هذا غريب!

-نعم غريب، لكنّها علامة طيّبة!

-كيف؟

-سأُخبرك في الوقت المُناسب يا «مُونارش»، ليس الآن...ليس الآن يا ابنتي.

عادت «مُونارش» لحيرتها وقالت وهي تحدّق في عيني «السيّدة الملوّنة»:

-ما فهمته الآن أنني أستطيع أن أخرج من غابة البَيْلَسَان لفترة قصيرة جدًا، فقط ملامحي قد لا تعجب الناس.

قالت «السيّدة الملوّنة» بهدوء شديد:

-ربّما سأسمح لك يومًا ما بالتجوال فقط ثُمّ العودة قبل أن يحلّ الليل، وسأرسل معك من يحرسك، ولتهتمي الآن بمهمتك، فلا تنسي أنّك لم تهمسي بحكاية قطّ حتى الآن، لم تهمسي بشيء لكاتب أو كاتبة يا «مُونارش»!

أخذت «مُونارش» تفرك كفيها وقالت:

-أسمع أحيانا هسيسًا وكلمات مبعثرة عن قصّة حب بين شاب وفتاة، لكنّها لم تكتمل بعد! فكيف سأهمس بها في رأس كاتب ما!

-تمهّلي يا عزيزتي...تمهّلي!

-حسنًا سأفعل يا سيّدتي، وفور أن أهمس بها سأخرج من غابة البَيْلَسَان، اتفقنا؟

اعتدلت السيّدة الملوّنة في جلستها وقالت بفضول:

-أخبريني ما حملته لك الرّياح عن قصة هذين العاشقين يا «مُونارش».
-حسنًا يا مولاتي، سأخبرك.
بدأت «مُونارش» تحكي قصة العاشقين، وكانت عيناها تلمعان، إنّها تشتاق إلى الحبّ!

9
«سَاهور»

كقمر وضّاء ينحدر على صفحة الأُفق كان الشّيخ يتقدّم بثبات نحو حدود المدينة، ودّعه أهلها بالحبّ، ونثروا على رأسه أوراق الورد، كانوا يرونه قشّة الأمل التي انتظروها طويلًا، لكنّه أبى، ليس لأنّه لا يصلح لهذا الدّور، ولكنّه يُحبّ أخاه، توقّف في المعبد لزيارة سادنه وقضى معه وقتًا طويلًا، انصرف أهل المدينة لبيوتهم فهم يعرفون أنّ سَادن المعبد صديقه المُقرّب، وستطول جلستهما لساعات، أنهى زيارته وخرج أَخيرًا من المدينة بطيب نفس، لا يُريد المُلك، ولا يطلب القصر والتّاج، لكنّ طيور الوَرَاشين تأبى أن ينصرف! أقبلت من كلّ حدبٍ وصوب تجاهه، وقفوا على رأسه وكتفيه، وغطّوا جذعه وظهره وساقيه، وكأنّهم يحتضنونه بأجنحتهم، بدا ككتلة من الرّيش تتحرّك ببطء، وكلّما تقدّم كانوا يُزيدون من كثافتهم فوق جسده، ويصدرون صوتًا يُشبه النواح، ثقُلت خطواتِه، وكان ابنه يراقبه في اندهاش وهو يتراجع، فقد كانت تلك هي المرّة الأُولى التي يرى أباه وحوله طيور الوَرَاشين وكأنّها تُحدّثه، خالجه شعور مُزعج، هل ستنقر تلك الطيور رأس أبيه؟ بدأ يهشّها عنه وكانت ترتفع بلطف وتعود فتقف في نفس المكان، كانت الطّيور تُحبّ الغلام كما تُحبّ أباه! لم تؤذه، حتّى وهو يهشّها بعنف عن جسد أبيه.. بدأ الشّيخ يُحدّث الطيور، وكأنّها أفراد من

البشر أمامه، قال «اتركوني أرحل»، وقال «لا أُريد المُلك»، وقال «أرجوكم من أجل ولدي!» هربت دمعة من جفنه وسالت على خدّه، فالتقطها طائر منهم وهبّ منتفضًا بعيدًا عنه، فتبعته الطيور وتركوه يمضي، تخطّى سور المدينة الخارجي، وتوجه مع ولده نحو البساتين التي تفصل بين المدينة وبين القرية التي يعيشون فيها، كان الشّيخ يضع يده على كتف ابنه فخورًا به، قال باعتزاز:

-أعجبني ما قُلته في الدّيوان لأبناء عمّك.

برقت عينا الغلام وقال بحبور:

-تعلّمته منك يا أبي.

هزّ الشّيخ رأسه وقال:

- أنت تختلف عن أخيك، لكلّ منكما طابع خاص ومَيزات، أخوك رائع أيضًا ويُحبّك، لكنّه يميل لأخواله، أمّا أنت..فكأنّك «أنا».

ابتسم الابن عندما وصفه أبوه بـ«أنا» وسار منتشيًا بجواره، بدأ يتحدّث بعفوية وبراءة كعادته، كان غلامًا نابهًا ورقيق الحشيّة، يلازم أباه كظلّه، ولا يُفارقه أبدًا، توقّف الأب فجأة وهمس لابنه قائلًا:

-صه!

-ماذا يا أبي؟

-هناك من يتبعنا!

-فلنُسرع إذا.

هرولا نحو القرية وكان الأب يتلفّت من آن لآخر، يخشى على ولده من نَسمات الهواء، توقّف قليلًا وأرهف السّمع وكان ابنه يسبقه بخطوات، التفت الابن فرأى أباه يقف بين الأشجار ساكنًا كالصّنم ويُرهف السّمع، ويحدّق بين الأشجار، عاد لأبيه قائلًا بصوت مُرتعش:

-أبي..أنا خائف.

مسح الشيخ على رأس ولده، وعاد لهرولته معه، ثُمّ توقف مرّة أخرى، بدا القلق يزحف إلى ملامحه، التفت نحو ابنه وجذبه فجأة وعانقه، ثُمّ احتضن وجهه بكفّيه وأطال النظر لعينيه الرّائقتين، وطبع قُبلة على جبينه وقال بصوت حازم:

-اركض يا «ساهور».

- ماذا!

-اركض نحو القرية بسرعة، ولا تنظر خلفك أبدًا.

ارتعد «سَاهور» وقال في هلع:

-لا يا أبي، لن أتركك.

وقف الشيّخ حائرًا، فقال وهو يضغط على كتف ابنه:

-حسنًا؛ تقدّم واترك بيني وبينك مسافة تكفي للهرب، وإن ألقوا القبض عليّ اركض نحو القرية واطلب منهم العون

تردد الابن ثُمّ استجاب لأمر أبيه بعد إلحاحه وسبقه، كان يتلفّت من آن لآخر وقلبه يختلج، وكلّما أراد الرّجوع كان أبوه ينهره ليستمرّ في تقدمّه عنه، في غمضة عين ظهرت كوكبة من حرّاس الملك «عدنان»، شكّلوا دائرة حول الشّيخ «رجّوان»، وألقوا القبض عليه، انطلق «سَاهور» راكضًا نحو القرية وقلبه يكاد يثب من بين أضلعه، تسارعت أنفاسه، ولفحه الهواء البارد على وجنتيه، لكنّه كان يطير...

جُرحت قدماه ولم يلتفت للدماء وهي تسيل، سقط عدّة مرّات، تدحرج وسقط في بركة من الوحل وزحف ليخرج منها، ثُمّ استقام واقفًا وعاد يركض، ويركض، حتى وصل للقرية، صرخ كما لم يصرخ من قبل، استغاث بجدّه، وبأهل القرية، لم يخرجوا معه بأمر من جدّه «قَاموس»! وحدها أمّه «أهاليل» استجابت لندائه، وأقبل أخوه «سِنمّار» ملتاعًا

لنحيبه، لكنّ حرّاس جدّه منعوهما، صرخ حتّى بحّ صوته، وشعر وكأنّه ابتلع جمرة من النّار صارت تحرق حنجرته، كانت أمّه تصرخ، وتبكي، لكنّهم منعوها خوفًا عليها فعاد وحده، عاد يركض، ويركض، ويجوس بعينيه وسط الأشجار باحثًا عن وجه أبيه، سمع أصوات الحرّاس وهم يعذّبونه، صرخ أبوه صرخة ألم انخلع لها قلبه، فزاد من سُرعته..ورآه للمرّة الأخيرة!

استيقظ «سَاهور» فزعًا وكانت أنفاسه متسارعة وكأنّه كان يركض بالفعل، نفس الحلم يتكرر حاملًا لذاكرته تفاصيل مقتل أبيه عندما غادر معه القرية وهو غلام صغير، ليعيش نفس الألم، ما زال يذكر كلّ شيء، حتى ملمس دماء أبيه الدافئة، ووجهه المضيء وهو يودّعه بنظرة حانية، بكى «سَاهور» يومها حتّى ابيضّت عيناه من الحزن، وكان مرض عينيه من كثرة البكاء سببًا في فقدانه لبصره، مسح وجهه بيديه المرتعشتين، وتحسس جذع الشّجرة التي كان نائمًا تحت ظلالها، واعتدل جالسًا وأسند ظهره إلى الجذع حتّى هدأت أنفاسه، وجلس يسبّح ويستغفر كما علّمه أبوه.

دلف «حمزة» حدود قرية «أُوركا» مع «مُولي» و«هُرهُور»، فرأوا شابًا مليح الوجه على محيّاه مسحة حزن تأسر نفس الناظر إليه، ألقى «حمزة» عليه السلام وهم يقتربون منه، وقد أدركوا من إيماءات رأسه أنّه ضرير، كان يسير وهو يمدّ ذراعه أمامه، وعليه ثياب حنطية اللون فضفاضة وثقيلة وكأنّها من طبقات، وقف أمامهم بعينيه اللامعتين كالبلّور وسألهم:

-من صاحب الصوت الذي ألقى السّلام الآن؟

قال «حمزة» وهو يقترب:

-هأنذا.

التفتَ فور أن تنبّه لاتجاه صوته، تناول «حمزة» كفّه ليُسلّم عليه، فسحبها من بين كفيه ووضعها على صدره وهو يسأله:

-ما اسمك؟

-«حمزة»

صمت هنيهة وكأنّه يُفكّر ثُم تململ قبل أن ينطق قائلًا:

-اسمي «سَاهور»[1]، وأنا ابن الشيخ «رَجْوان» رحمه الله، معذرةً فأنا ضرير، مرحبا بكم في قريتنا، اتبعوني.

كان يشقّ طريقه في صمت مهيب دون أن يتعثّر، وعندما سمع صوت «هُرهُور» وضع يده على رأسه، فانبسطت أسارير الغلام الذي كان يحمل متاعه البسيط في كيس من القماش، وقد بدأ يؤرجح الكيس في حالة من الفرح، فهاهو شاب آخر يشبهه في لون البشرة، جلسوا مع الشّاب بعد أن رحّب بهم، كان المعبد البسيط الذي بناه شعب «أُوركا» على الحدود؛ ولهذا كان هو أوّل محطّة لـ «حمزة» و«مُولي» وهما يصحبان معهما الغلام «هُرهُور»، وكان «ساهور» يلازم المعبد طويلًا كعادته، متأمّلًا، متعبدًا، غارقًا في بحر من السكينة، كانت عيناه واسعتين كمحيط رائق الماء رحيب الأُفق، تودّ لو أنّك مكثت فيه طويلًا، لكنّه لا يرى بهما، بل بقلبه.

انتشلاه بدخولهما من فقاعة الصمت التي كانت تحيطه بينما كان يجلس مستعذبًا وحدته وانقطاعه عن النّاس، فهو يُنادى بالهجين من شعب «أُوركا» لأنّه نصف بشري كأبيه، ويُنادى بالهجين من أهل مدينة «وَرَاشين» لأنّه نصف حوت كأمّه، وهو يكره هذا الوَصف، ويبغض تلك الكلمة! وما زال جدّه الملك «قاموس» ساخطًا عليه لأنّه لم يتحوّل إلى حوتٍ

(١) سَاهور تعني دارة القمر.

حتى الآن كما فعل أخوه «سنمّار»[1]، فها هو يتنقّل بين البحر واليابسة، تارة في هيئته البشرية وهو شاب قويّ الشكيمة، وتارة في هيئة حوت شرس يحسب له سكّان بحر «حندس» الحساب! وقد أصبح مقرّبًا من الجميع في قرية «أوركا».

كان «سَاهور» مستأنسًا بهم، فقد شعر بأُلفة لم يجدها من قبل لسماع صوت «حمزة»! ولهذا وضع يده على صدر «حمزة» كما كان يفعل دومًا عندما يلتقي بصديق جديد يشعر بألفة تجاهه لكي يحسّ بدقّات قلبه وبرنّة صوته في صدره وهو يُحدّثه، هكذا اعتاد أن يفعل حتى قبل أن يفقد بصره، وهكذا كان يفعل مع أبيه...

جلس «سَاهور» معهم في غرفته الملحقة بالمعبد، وسأل «حمزة» بتلهّف:

-من أيّ البلاد أنت؟

قال «حمزة» رامشًا بعينيه:

-أتيت من الشرق.

سأله «سَاهور» بفضول:

-من أيّ بلاد الشرق؟

لزم «حمزة» الصّمت، وتحدّث «مُولي» بصوته الرّخيم قائلًا:

-جئناك من قرية «كُروسكو».

وأخبره عن بلده ومنشئه وقومه وعن وادي الفراديس، وكان «سَاهور» يعرف عن «الدّواسر» وكيف طردوهم من ديارهم، فقد سبق وهاجموا قرية «أوركا» قبل أن يحتلّوا أجساد البعض من شعب أوركا، ويستغلوهم لاحتلال وادي «الفراديس»، رقّ قلب «سَاهور» لهم فرحّب بهم. أخبراه

(١) سِنمّار تعني القمر، وتعني الرّجل الذي لا ينام الليل، وسنمّار هو بنّاء روميّ بنى قصًرا للنعمان اللّخميّ فجازاه بإلقائه من فوقه حتى لا يبني مثله لغيره فيُقال في المثل جوزي جزاء سِنمّار، أي يُضرب على من يجزى على إحسانه بالإساءة.

عن «هُرهُور» وقصّته، وكيف كان «كُوكُون» يعذّبه، وأنّهما أتيا ليعيداه إلى أهله وعشيرته، فقد عُثر عليه عند ينابيع «وَرَاشين» منذ ما يقرب من عشر سنوات، تسارعت دقّات قلبه، قال في غضب بعد أن سمع صوت الغلام وهو يبتعد ليداعب جروًا لطيفًا يأتي من آن لآخر طلبًا للطعام:

-«كُوكُون» كان يعاقبه على ذنب لم يرتكبه!

قال «مُولي» محاولًا التخفيف عنه:

-كانت أم «كُوكُون» رحيمة به، والكثير من أهل القرية أيضًا فقد أحببناه، لكننا لم نكن نعلم أنّه يؤذى بهذا الشّكل.

تمعّضت ملامح «سَاهور» وهو يقول:

-لا بدّ أنّه لاقى الكثير من الأذى من الأطفال بقريتكم، لم يشركوه في لعبهم لأنّه مختلف..أليس كذلك؟

ران عليهم صمت ثقيل، أردف «سَاهور» متألّمًا:

-عانيتُ من هذا في مدينة «وَرَاشين» وأنا صغير، وعانت أمّي لأنّها من شعب «أُوركا» فناداها عمّي «عدنان» بالمسخ، وأعانيها الآن لأنني هجين وهاهو جدّي «قاموس» يبغضني، وأنتم تعانون بسبب لون بشراتكم الدّاكن، ولعلّ «هُرهُور» عانى بسبب لون بشرته الذي لا يشبه بشراتكم هناك.

كان «سَاهور» يشعر بغصّة في حلقه، قال بأسى:

-ألسنا جميعًا من طين لازب؟...ما أحقر نفوس البشر!

ران صمت آخر أطبق على صدره فانطلق يروي لهما قصّة «رسيل»:

-منذ سنوات أنجبت واحدة من نساء شعب «أُوركا» أوّل حفيد لعمي الملك «عدنان» حاكم مدينة «وَرَاشين»، بعد أن تزوجت من ابنه الأكبر

«أَشْهَم»[١] فكان عمّي غاضبًا على ابنه لأنّه خالف أوامره وتزوج من عرق آخر، وأطلق على «رَسيل»[٢] زوجة ابنه تلك لقب «مسخ البحر»،كما أطلق هذا اللقب على أمّي من قبل، وتصادف أن حَمَلت أكثر من زوجة من نساء أوركا المتزوجات من رجال مدينة «وَرَاشين» في وقت متقارب، كانوا يسيرون وسط مدينة «وَرَاشين» ببطونهن المنتخفة فيُغضبون أهل المدينة غير الرّاضين عن هذا التزاوج المختلط، فاجتمع بعضهم وقرروا قتل النساء الحبليات قبل أن يضعن حملهن، وصاروا يتصيدونهن في الطرقات ليلًا، مررنا بأيّام عصيبة، وأثقلها يوم المذبحة حيث قُتلت أكثر من امرأة للأسف، وكان ابن عمّي «أشهم» يحاول حماية زوجته «رسيل»، لكنّ تدابير تلك العصابات بدأت تصل إلى بلاط القصر، فهربَت «رَسيل» تجاه أهلها وعشيرتها من شعب «أوركا» عندما داهمتها آلام المخاض، فقد تأكّدت أنّ بعض نساء القصر يدبّرن لها شيئًا ما، طاردها حرّاس القصر بأمر الحاكم، واشتدّت آلام المخاض عليها وهي تهرول في الطريق، ظلّت تصرخ وكان أهل المدينة يخشون مساعدتها، كانوا يدخلون بيوتهم ويغلّقون الأبواب، فخلت الطُرقات، اختفت حيث عاونتها امرأة غامضة وحملت المولود وفرّت به بينما استمرّت «رَسيل» في السير والدماء تسيل منها، كانت تزحف أحيانًا، وتهرول أحيانًا، وتركض أحيانًا حتى تصل لماء البحر وتعود لطبيعتها كحوت من حيتان «أوركا» وتفرّ من الحرّاس، استدلوا على مكانها من آثار الدماء على الأرض، وتتبعوا صوت بكاء الصغير، فألقوا القبض عليها بعد أن وضعت أقدامها في الماء، لكنّهم لم يجدوا المولود معها!، دار صراع رهيب بينها وبينهم وقتلوها هناك، واختلطت دماؤها بماء بحر «حندس» فتنبهت حيتان «أوركا» واحتشدوا قرب الشاطئ

(١) أَشْهَم من الشهامة وعزّة النّفس، وتعني الذّكي الفؤاد، النافذ الحكم.

(٢) رسِيل تعني الماء العذب.

والتهموا من قتلوها مما تسبب في نشأة المزيد من العداوات بين الشعبين، ماتت المسكينة وهي لا تعرف عن ابنها شيئًا، وكان حرّاس الملك القُساة يبحثون عنه ليقتلوه، أمّا شعب «أوركا» والطّيبون من شعب مدينة «وَرَاشين» فكانوا يبحثون عنه لينقذوه، من أجل أمّه!

بعد هذه المجزرة أصيب ابن عمّي «أشْهَم» بحالة من الحزن الشديد بعد فقدانه لزوجته وابنه، ولا يزال يتخبّط في دهاليزه المظلمة حتى اليوم. ويبدو أنّ هذه المرأة المجهولة التي ساعدت «رَسيل» وضعته عن قصد تحت أشجار العنب التي وصفتموها الآن ليكون في طريق شعب وادي الفراديس وهم ينزحون منه، لتعثر عليه أم «كُوكُون» وتحتضنه وتربيه كولدٍ لها، ربّما هو، وربّما ليس هو.

ولكن....ما يحيّرني هو سبب صمتكم طوال تلك الفترة؟ لماذا لم تعيدوه إلى مدينة «وَرَاشين» وهو رضيع؟ ومنذ لحظة عثوركم عليه؟

قال «مُولي»:

-كلّما همّ أحدنا بالرّحيل من قرية «كروسكو» كنّا نتعرض لشيء غريب.

سأله «سَاهور» باهتمامٍ شديد:

-ما هو؟

-طيور «وَرَاشين» كانت تظهر فجأة وتملأ صفحة السماء فوقنا بشكلٍ غريب ومخيف، ولو مضينا ولم نلقِ لها بالًا لاحقتنا وصارت تنقر رؤوسنا حتى نعود، لم يجرؤ أحد من رجال القرية على الخروج منها، نحن أوّل من يخرج من القرية منذ سنوات طويلة!

سأله «سَاهور»:

-وهل هاجمتكم عندما خرجتم بـ«هُرهُور»؟

قال «مُولي» وهو يراقب «هُرهُور» من بعيد:

-لا... أخبرتني أم «كُوكُون» أنّ الطيور لن تمنعنا، تلك العجوز تُخفي أمرًا ما! لقد شجّعتني على الخروج بالغلام، وأعطتني القلادة التي كانت حول عنق «هُرهُور» عندما عثرت عليه، وأخبرتني أنّه لو أظهرها لن تضرّنا الطيور.

ابتسم «سَاهور» وقال:

-طيور «وَرَاشين» كانت تحمي الغلام، لا بدّ أنّه سيكون ذا شأن عظيم.

كان «هُرهُور» ما زال أمام المعبد يشاكس الجرو الصغير بالقرب منهم وهم يتحدّثون، طلب «سَاهور» من «حمزة» و«مُولي» إخفاء أمر «هُرهُور» عن أهل قرية «أوركا» حتّى يتأكدوا من نسبه وحتى يجدوا المرأة التي عاونت أمّه وهي تلده، وليسألوها عن القلادة، لأنّ لو صحّ نسبه سيكون في خطر!

سأله «حمزة» متعجبًا:

-لماذا الخطر وهو سيعود لأهله وعشيرته؟

قال «سَاهور» موضحًا:

-لأنّه سيكون أكبر الأحفاد الذّكور لعمّي الملك «عدنان»، وبظهوره سينافس أباه في ولاية العهد، ويكون الأحق بها، فالشريعة هناك تقضي بأنّ من له أبناء من الذّكور فقط هو الذي يرث العرش، أمّا من ينجب البنات فلا يرث العرش، وقد تزوج «فِراس»، و«خلدون» في وقت واحد، وزوجتاهما تتنافسان في الإنجاب، وتنتظران الولادة خلال شهور، وربّما يكون «هُرهُور» أكبر الأحفاد.

سأله «حمزة»:

-وإن لم يكن هو الحفيد؟

قال «سَاهور» بثقة:

-سأتكفّل به وأبحث عن أمّه وأبيه، لا شكّ أنّ أمّه من شعب «أُوركا».

-كيف؟

قال «سَاهور»:

-السرّ في القلادة، المهم أن تخفيا الأمر حتى نتيقن، فكما تعلمان عمّي «عدنان» يكره كل ما يتعلّق بشعب «أوركا»، ويكره أمّي، ويكرهني ويكره أخي «سنمّار» لأننا نشبهها، و«هُرهُور» هجين! وربّما يأمر بقتله.

-يقتل حفيده!!

قال «سَاهور» وهو يتألّم:

-لقد قتل الملك «عدنان» أخاه من قبل.

نكّس رأسه وتذكّر أباه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فأنهى حواره معهما، وأمسك البوق ونفخ فيه ليسمع غلامًا لطيفًا كان يساعده ويرعاه، وكان يهتم لأمره، جلس «مُولي» يداوي جراح «هُرهور» التي سببتها ضربات «كُوكُون» بالسياط على ظهره، وكان «سَاهور» يُشفق عليه وهو يُنصت لأنينه، قرر رعايته وحمايته، مهما كان نَسبه، فقد تتعقّد الأمور.

ضيّف «سَاهور» الثلاثة في غرفته البسيطة الملحقة بمعبد أُوركا الصغير، كانوا متعبين من السير، أخبرهم أنّه سيقدمهم إلى شعب «أوركا» على أنّهما طبيبان يبحثان عن عمل في قرية «أوركا»، وكانت القرية في حاجة لطبيب بالفعل، وأنّ هذا الغلام «هُرهُور» في رفقتهما، كما أخبرهما أنّه سيحاول التواصل مع صديقه سادن المعبد الكبير داخل مدينة «وَرَاشين»، حيث كان أبوه «رَجّوان» شيخًا لهذا المعبد الكبير قبل أن يخرجوهم من مدينة «وَرَاشين» مقهورين، وهو يستطيع مساعدتهم من أجل الغلام، كان «سَاهور» يثق بهذا السّادِن، فهو يحفظ السرّ، فقد كان من تلاميذ أبيه «رَجّوان» رحمه اللّه.

جلس «هُرهور» يئنّ متوجعًا، فقد كانت جراح ظهره تؤلمه مرّة أخرى، سأله «سَاهور» ماذا كان يفعل في تلك الجراح وهو في بيت «كُوكُون» فأجهش الغلام بالبكاء، لم يجرؤ يومًا على البوح بألمه، تذكّر ملامح «كُوكُون» القاسية، ونبرة صوته المحمّلة بالكثير من الغلّ والغضب، وهذا الشعور بالهلع الذي كان يسكن صدره فور رؤيته يقترب، وكأنّ أحدهم اخترق صدره بقبضته وأمسك بقلبه ليعصره، وكيف كان صوت دقّات قلبه الصغير المتعب يصمّ أذنيه، فيجفّ حلقه، وتتسع عيناه ويتوقف جفناه عن الرّمش، وترتعش أطرافه، ثُمّ تتوالى لسعات السوط على ظهره، والتي تبدأ موجعة ثُمّ تتحوّل لنار تحرق جسده، وكيف كان يستسلم وينتظر تلك اللحظة التي يتوقف فيها «كُوكُون» عن جلده بالسّوط لأنّ ذراعه أوجعه من شدّة الضرب، فعندها فقط كان يتوقف!

كان يبكي في صمت، احتضنه «سَاهور» حتى هدأ وتوقف عن البكاء، داوى «مُولي» جراح الغلام بدهان ليخفف عنه الألم، يا للمسكين لقد تعرّض للكثير من القسوة خلال طفولته، وبعدما أنهى «مُولي» مهمته، طلب «سَاهور» من خادمه الخاص إحضار ثوب جديد لـ«هُرهُور» يناسب قياسه، وتناول هو ثوبًا جديدًا من ثيابه ومدّ يده به لـ«مُولي» ليرتديه لكنّه فوجئ به وهو يدفع يديه بلطف، ثُمّ قال بأدبٍ بليغ:

-شكرًا لك يا «سَاهور»، أنا نوبيّ وأعتزّ بملابسي الخاصّة، ولن أُبدّلها، فمهما ارتديت من ثيابكم سأبدو مختلفًا على أيّ حال، فلون بشرتي يميّزني، لعلّ تلك الملابس تصلح لـ«حمزة»، وسيفرح بها ويرتديها.

قال «سَاهور» مداعبًا:

-يبدو أنّ «حمزة» لا يعتزّ بثيابكم الخاصّة.

قال «مُولي» متبسّمًا:

-«حمزة» ليس من النوبة.

قال «سَاهور» متعجبًا:

-سمعتك تناديه بـ«أخي»!

ابتسم «مُولي» وأطرق قائلًا:

-أنا وحيد، ومن آن لآخر أشتاق لهذا الشعور بالانتماء لأخ أحبّه ويحبّني، وكنت أبحث حولي في قريتنا، وأنادي من أحبّهم بأخي، لكنني لم أجد منهم من يمنحني هذا الشرف، أمّا «حمزة» فناداني بها بعد لقائنا بساعات، ووددت أن أخبره أنني أعتزّ به كأخٍ لي، فقد وقع في قلبي شيء ما عندما رأيته.

هزّ «سَاهور» رأسه متأثّرًا وقال:

-اعتدنا على إهداء كل من يزور قريتنا ثوبًا جديدًا، هذه تقاليد شعب الأوركا، ولا بدّ أن تقبل الهدية وإن لم تلبسها.

تناول «مُولي» هديته بامتنان شديد وشكره، وران عليهما صمت قصير، مال «سَاهور» برأسه وعاد يسأل:

-ومن أي البلاد «حمزة»؟

صمت «مُولي» هنيهة ثُمّ قال بتحفّظ:

-هل سمعت عن المحاربين يا «سَاهور»؟

رفع «سَاهور» حاجبيه وقال:

-نعم..أخبرني أبي عنهم، ووددت أن ألتقي بواحد منهم! هل هو مُحارب؟

-نعم...«حمزة» مُحارب.

تسارعت دقّات قلب «سَاهور» وقال بانفعال:

-يا له من شرف عظيم، لكنه...لا ريب سيحتاج للعون!

قال «مُولي» بثقة:

-«حمزة» شابّ طيّب، فيه من الشهامة والمروءة ما أثار إعجابي، ولن أتأخرّ عن الوقوف بجانبه، سأطمئن أولًا على «هُرهُور»، ثُمّ سأساعده لإتمام مهمّته.

قال «سَاهور» بحماس:

-وسأكون معكما بإذن الله.

دلف «حمزة» الغرفة بعد أن أنهى جولة سريعة حول المعبد، قال بعفوية:

-لا أثر لمخلوق حول المعبد هنا، أين النّاس؟

ابتسم «سَاهور» وقال وهو يطأطئ رأسه:

-ستراهم بعد قليل...لا تقلق.

قال «حمزة»:

-رائحة البحر تفوح في الأجواء، لا شك أنّك تعشقه يا «سَاهور».

تردد «سَاهور» قبل أن يجيبه بخفوت:

-نعم...أحب البحر.

رفع «سَاهور» الثياب بيديه تجاه «حمزة»، وقال بلطف:

-هذه هديتك.

ثُمّ تحسس «سَاهور» الجدار وقام مستندًا عليه بحرص شديد، أحضر جرابًا من الخيش كان معلّقًا في ركن غرفته الخاصّة المُلحقة بالمعبد وحمله على كتفه، والتقط عصاه التي لا يستغني عنها أبدًا، وخرج أمامهما وهو يسير بثبات، فقدماه لا تضلّان الطريق أبدًا، وكلّ شبر هنا وهناك مطبوع في نفسه وذاكرته، كان يحفظ طوبوغرافية المكان عن ظهر قلب، مما أثار إعجاب «حمزة»، وصلا القرية التي كانت تضج بأصوات سكانها فالتفتت الوجوه نحوهم بفضول، تناهى إلى سمعهم صفير عجيب وصيحات منغمة قال «سَاهور» أنّها لغة الأوركا،

ثُمّ تعالى غناء بصوت شجي وعذب من شاب نحيل بلغة البشر على حافّة الطريق، يبدو عاشقًا وحزينًا! وهناك من يراقبونه في صمت. على مقربة منه تعالت ضحكات عفوية تصدرها ثلاث فتيات مراهقات لهنّ شعر غجريٌ أحمر، ولعب لطيف لصغار يشبهون «هُرهُور» المسكين، مباريات وتصفير وتشجيع للمصارعين بحماس، وباعة جائلون ينادون على بضائعهم بصوتهم الجهوري تارة، وبصيحات الأوركا تارة أخرى، كانت الأجواء دافئة وحماسية للغاية، إنّها قرية «أُوركا» التي تضجّ بالحياة.

وقف «سَاهور» أمام بيت من بيوت قرية أُوركا، وكانت البيوت تتنوع في طرازها بين البسيطة التي لها أسقف من الخوص وجريد النّخل، وبين أخرى بُنيت بطريقة هندسية بديعة، كانت أكثر فخامة من عامة البيوت هناك، وكان البيت الذي وقف أمامه من أكثرها فخامة. استدار «سَاهور» محدثًا «حمزة» و«مُولي» و «هُرهُور» قائلًا:

-انتظروني هنا، وكما اتفقنا، أنتما طبيبان وافدان للعمل بالقرية التي بحاجة لطبيب وهذا غلام معكما يعاونكما.

ثُمّ طرق الأرض بعصاه ودلف إلى البيت، ومكث فيه وقتًا كان كافيًا لتجمّع بعض سكان قرية أُوركا حول البيت، فُتح الباب فخرجت منه امرأة فارعة الطول لها جبين عريض ووجه مستنير على جانبيه تنساب جديلتان طويلتان، تبخترت في ثيابها الحريرية وسارت بخيلاء نحو الضيوف الثلاثة لابنها «سَاهور»، كانت شامخة في كبرياء وهي تطلّ على الواقفين، كانت «أهاليل» امرأة وطفاء[1]، في عينها دَعَج[2]، نظراتها تأخذ بلبّ من يتحدّث معها، أطبق الصمت فجأة على أهل القرية فور أن أطلّت عليهم، صاح أحدهم قائلًا:

(١) وطفاء أي غزيرة الأهداب.

(٢) دَعج عين شديدة السواد مع اتساع في المقلة.

-مولاتي الملكة «أهاليل»!

انحنوا جميعًا نصف انحناءة تحيّة لها، فحيّتهم بهزّة رأس خفيفة، واقتربت من «هُرهُور» وهي تحدّق في وجهه وملامحه وقالت وهي تضع أطراف أناملها على ذقنه:

-مرحبا يا صغيري.

ثُمّ التفتت تجاه «مُولي» و«حمزة» ونقلت عينيها بين وجهيهما وقالت بصوت جهوري لتُسمع من حولها:

-مرحبًا بكما في قريتنا، وأخيرًا لدينا طبيبان بارعان.

التفتت نحو ابنها «سَاهور» وقالت:

-أحسنت يا «سَاهور»، فنحن في حاجة لخبرتهما.

كان «سَاهور» قد أخبر أُمّه بسرّ الغلام «هُرهُور»، وطلب منها أن تتكتم الأمر حتى يتيقنوا من نسبه، دلفوا جميعًا لبيت «سَاهور»، أمرت الملكة الخدم بالانصراف وإخلاء ساحة البيت، وجلست بجوار ابنها «سَاهور» وهي تضع يدها على يده، ودار بينها وبين ضيوف ولدها حوار قصير، فقد كانوا في حاجة شديدة للراحة والنوم، انتقلوا مع «سَاهور» لدار ضيافة أخرى أكثر بساطة خُصصت لهم، وأخيرًا سترتاح أقدامهم التي أتعبهاً السير الطويل من قرية «كُروسكُو» وحتى قرية «أُوركا».. بدأت جروح ظهر «هُرهُور» تتقرّح كما لم يحدث لها من قبل، وكأنّ الدهان لا يطببها ولا يداويها! لاحظ «مُولي» الخشونة التي أصابت بشرة الغلام في أماكن متفرّقة، بدأ «هُرهُور» يبكي بين يديه فسقاه دواء منوّمًا، وجلس يتفكّر في حيرة، لماذا لا يرى أي أثرٍ للدواء الذي أعدّه بنفسه على جراح الغلام؟، لقد ثبت نجاحه في علاجٍ الجروح التي تشبهها خلال السنوات السّابقة، وهو على يقين أنّه دواء ناجح! رقد بجوار الغلام وتوسّد ذراعه واستسلم للنوم، أمّا «حمزة» فكان يحدّق في سقف الغرفة، يتساءل أين

أخاه «خالد» الآن، كاد النعاس يغلبه، أجفل عندما لامست كفّ «سَاهور» جبهته، كان يتمتم بالدعاء! ثُمّ أحكم الغطاء على كتفه قبل أن يخرج من الغرفة، انتفض قلب «حمزة» ورفع رأسه يتأمّل وجهه الهادئ وعينيه العميقتين، راقبه وهو يسير مبتعدًا، بدأ قلبه يخفق بشدّة..كاد يناديه ليعود، لا بدّ أنّه «خالد»، فها هو يحنو عليه كما يفعل دومًا، يحكم عليه الغطاء ليلًا كعادته!

يا إلهي! ربّما يعاني «خالد» من فقدان البصر هنا على أرض مملكة البلاغة لأنّه محبوس في صورة «سَاهور» كما حُبست «مِسكة» من قبل؟ تُرى كيف سيتيقن أنّه هو؟

نام «حَمزة» أخيرًا بعد أن أنهكته الأفكار المتناطحة في رأسه، قرر أن يذهب إلى المكتبة العظمى في اليوم التالي، أو ربّما يبحث عن «قصر الحوراء» فهو يحتاج إلى دليل يرشده، فليس من العدل أن يُترك وحيدًا بسبب خوفهم جميعا من بطش «الدّواسر» به، سُحقًا للدواسر، فليظهروا الآن وليقع ما يقع مهما كانت عواقبه!

10

«سِنمّار»

«حمزة»......

صفير الرّياح يدوي في دروب قرية «أُوركا» الخالية من المارّة، كان الوقت مبكرًا عندما استيقظتُ من نومي، كان «مُولي» غارقًا في النوم وكذلك كان المسكين «هُرهُور» مستلقيًا على بطنه بظهر عارٍ لعلّ برودة الهواء تخفف من هذا الحرقان الذي يشكو منه، خرجتُ من البيت ومررت بـ«سَاهور» الذي كان ينام متوسدًا ذراعه وملصقًا ظهره بجدار

ردهة البيت، كم هو شاب بسيط ومتواضع، حتى في ملابسه، لا يبدو عليه للوهلة الأولى أنّه حفيد لحاكم شعب «أوركا»، تخلّى عن تلك المظاهر التي بدى لي أن أمّه تتمسّك بها! أو ربّما هو زاهد في كلّ شيء، لا أدري! ربّما سأعرف عنه المزيد اليوم.

سرت في الطرقات، ما زال الجميع نائمون، شعرت بالرّهبة تتسرّب إلى صدري، أنا بين شعب من الوحوش التي تتحوّل إلى بشر، فكيف يأمن البعض النوم بجوارهم على وسادة واحدة! وكيف يتزوج أحدهم من أنثى وهو يعلم أنّها تتحوّل إلى وحش من وحوش البحر الفتّاكة، بل كيف تعشق فتاة ما شابًا وهي تدرك يقينا أنّه في حقيقته وحش كاسر!

توجّهتُ نحو شاطئ البحر حيث كانت السكينة تظلل الأجواء، تسرّبت رائحة البحر إلى خلاياي فأزالت ما بصدري من رهبة وقلق، أغمضت عيني ووقفت أتلذذ باصطدام موج البحر بقدميّ وانسحابه بينما تتوغّل أصابعي بين حبّات الرّمال المبتلّة، فتحت عينيّ ووقفت أجترّ ما مررتُ به مستغلًّا صفاء ذهني لكي أعيد ترتيب الأمور في رأسي، قررت أن أغادر قرية «أوركا» والبحث عن المكتبة العظمى، ليس من الضروري بقائي هنا بين شعب «أوركا».

«هُرهُور» الآن لا يحتاج لحمايتي، كما أنّ «مُولي» سيلازمه حتى يتحقق من أمر نسبه، وقد تعهّد «سَاهور» برعايته حتى إن لم يثبت أنّه حفيد الملك «عدنان».

نعم سأرحل، ولكن..تؤلمني فقط تلك الشكوك التي راودتني عن كون أخي «خالد» مأسورًا في شخصية «سَاهور»، فربّما يحتاج لبقائي هنا معه!

هاج البحر وماج، وكأنّ بركانًا تفجّر في أعماقه، شعرت بنبضات تتردد في الماء وتلامس قدمي، تراجعت نحو كوخ قريب واختبأت خلفه ووقفت أراقب ما يحدث، اقشعرّ بدني عندما رأيت حوتًا ضخمًا يُلقي

بجسده على الرّمال، بدأ ينتفض وكأنّه أصيب بصعقات كهربائية، انشقّ جلده، وتفسّخ لحمه، وظهر قلبه من بين أضلعه وهو يختلج وينبض، ثُمّ خرج من قلبه جسد شاب قوي البنية، كان يزحف في البداية وهو يسعل بشدّة ويرتجف والسوائل تتناثر من فمه وأنفه، ثُمّ اختبأ خلف جسد الحوت الذي انشق وتوارى في خجل! أصدر صفيرًا غريبًا ومنغّمًا وظل يردده فأدركت أنّها لغة الأوركا، فُتح باب الكوخ فجأة وخرج منه رجلٌ عجوز يحمل رداءً وأسرع تجاهه وأعطاه له فارتداه الشّاب على عجل، وسريعًا ما وقف هذا الشاب على قدميه بثبات وقوّة!!

موجة عظيمة من موجات البحر ألقت بأطرافها على الشاطئ فسحبت بقايا جلد الحوت واللحم والعظام المهترئة، وكأنّ البحر يعلم، وكأنّ البحر يشهد، وكأنّ البحر يدري، وكأنّ البحر يُخفي الأثر. وتتابع الموج وهو يكنس بقايا هذا الحوت ليحتفظ بها في حضنه، تمامًا كما نُدفن بعد موتنا لتحتضن الأرض بقايانا للأبد.

كاد قلبي يقفز من بين أضلعي، تلاشى حوت ووُلد من جوفه بشر! عجيب ما رأيته بأمّ عيني، والأعجب ملامح الشاب الذي رأيته يسير بقامته الطويلة وذراعيه المفتولي العضلات أمامي، وبحركاته وإيماءاته التي تنمّ عن قوة وبأس شديد، فقد كان نُسخة مُكررة من «سَاهور»، وكأنّه هو أمام عيني الآن، ناداه العجوز بـ«سنمّار» وسأله إن كان يحتاج لشيء آخر، فالتفتَ تجاهه وحيّاه بإيماءة سريعة ومضى إلى القرية..

يا إلهي! «سَاهور» و«سِنمّار» توأمان كما أنا وأخي خالد!

شعرت بضيق في أنفاسي، وجلست في ارتباك شديد، كُنت أرتجف من شدّة البرد ومن هول ما رأيته، في تلك اللحظة كان العجوز عائدًا لكوخه فلاحظ وجودي، ظننته سيصيح عليّ لكنّه حدّق في وجهي بنظرة باردة، وسألني بهدوء وهو يشير إلى لأدخل الكوخ معه:

-أنت «حمزة» أليس كذلك؟

قُلت متعجبًا:

-بلى...ولكن من أين تعرف اسمي؟

-رأيتك بالأمس مع «سَاهور»، وعلمت من كلام الملكة «أهاليل» أنّك طبيب جديد وافد للقرية هنا، وكذا رفيقك، ادخل بسرعة.

دلفنا إلى كوخه المزدحم بالثياب، تلفّت باحثًا عن مكان لأجلس فيه فاقترب الرّجل وأزاح كومة من الثياب كانت مكدّسة فوق أحد المقاعد فجلست وما زالت الرّهبة لا تبارح صدري، تأمّلت الجدران فرأيت الكثير من المشاجب علّقت عليها الثياب وكأننا في مخزن، قال وهو يسكب لي شرابًا ساخنًا من قدر نحاسي معلّق فوق نار المدفأة يغلي به الماء مع عيدان القرفة:

-هل رأيته؟

قُلت وأنا أتخبط في اضطراب:

-نعم...هل أنت...مثلهم؟

قال العجوز بوجه جامد وخال من التعابير:

-لا، لستُ من شعب «أُوركا»، أنا من مدينة «وَرَاشين»، زوجتي تخيط الملابس، وتحملها ابنتي إليّ لأبيعها هنا.

ثُمّ أردف وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

- تكفينا نفس واحدة يا بنيّ، لا أدري كيف يتحمّلون هذا، لو كُنت مكانهم ما تركت البحر أبدًا! وحوش البحر أكثر سعادة منّا.

طالعته متعجبًا فأضاف موضحًا:

-أن تكون حرًا بلا قيود، بلا قوانين، تسبح في بحر مترامي الأطراف كما يحلو لك، تقفز في الهواء، وتغوص تحت الماء، ويهابك الجميع،

وتفترس ما تشاء كيفما تشاء ومن أيّ بقعة تشاء، ولن تُسجن لهذا السبب، وأنت غير مطالب بالعمل وجلب المال لتنفقه على صغارك، سترتاح من البشر وعفانة نفوسهم، لن تحتاج إليهم، ولن تتصارع على سلطة، ولن يخونك حبيب، أليست حياة الحيتان أكثر سلامًا يا بنيّ؟

ثُمّ شرد بعينيه وأردف قائلًا وهو يُشير لكومة الملابس التي وضعها على الأرض ليُجلسني:

-في كلّ مرّة يخرجون فيها من الماء يحتاجون لثياب جديدة ليستروا عوراتهم بها، بينما كانوا لا يأبهون لهذا وهم حيتان في البحر! أليس هذا مثيرًا للسخرية!

أطلق تنهيدة ثُمّ أكمل وما زال وجهه الجامد الملامح خاليًا من التعابير:

-زوجتي تسكن في كوخ آخر في بقعة بعيدة عن مكاننا هنا، فهذا الجزء من الشاطئ مخصص للرجال، أمّا النساء فلهن مكان منفصل، قديمًا كان الأمر سيئًا للغاية، وكان الصيادون من أهل «وَرَاشين» يراقبون المتحولين خلسة، ويتلصصون على النساء أمّا الآن فلا يجرؤ هؤلاء الصيادون على المجيء هنا.

سألته بفضول:

-هذا الصفير الذي أطلقه «سِنمّار»، كيف تفهمه؟

-تلك هي لغة الأوركا، تعلّمتها من صديقي الذي تزوج واحدة من نسائهم، فعلّمها لغتنا، وعلّمته هي لغة الأوركا.

هززت رأسي متعجبًا من حالهم وسألته:

-وهل يتحوّل أطفالهم أيضًا؟

-قُرب البلوغ يتحوّلون إلى بشر ويفدون إلى القرية، أمّا الهجناء فيحاولون، من يجرؤ على التجربة يفعل، ويغوص ويغوص حتى يصل لقاع بحر «حِندس»، حيث الظلام، وحيث تتقطع أنفاسه، وينطلق ماء البحر ليحشو جوفه فينتفخ جسده، وتتعملق عضلاته، ويتمدد جلده، ويتسرّب مِلح «حندِس» إلى كلّ ذرّة من جسده، ويدور به الماء فيصير حوتًا من حيتان «أوركا»!

سألته وأنا أحتضن القدح الساخن بيديّ وقد بدأ الدفء يتسرّب إليهما:

-وهل ينجح كلّ الهجناء؟

-لا... بعضهم يفشل ويلفظه البحر وهو فاقد لوعيه فيفيق مذعورًا من هول ما رآه ولا يعود لتكرار التجربة أبدًا، وبعضهم يموت ولا نراه مرّة أخرى.

ثُمّ فرقع بأصابعه وأضاف:

- ها هو «سنمّار» أقدم على التجربة ونجح فيها، أمّا «سَاهور» فلم يفعلها وأَظُنّه لن يفعلها أبدًا!

-لماذا؟

-«سنمّار» قلبه ميّت كجده! أمّا «سَاهور» فهو شاب حساس ومرهف الحَسّ يُشبه أباه!

كان الشّروق قد اكتمل عندما ودّعت صاحب الكوخ وعدت سيرًا إلى بيت «سَاهور»، تعجّبت مما رأيته، يبدو أنّ الجميع هنا يستيقظ مبكرًا! مبكرًا جدًا! فقد كانت شوارع قرية «أوركا» مزدحمة بسكانها، رائحة الشواء تفوح في الأرجاء، من ذا الذي يُفطر على اللحم المشوي وفي هذا الوقت المبكّر؟ تساءلت وأنا أمرّ من أمام مطعم تتصاعد من نوافذ بنائه الأدخنة وقد احتشد أمامه شباب القرية، كانت البيوت مبنية بطريقة

عشوائية، هناك الكثير من النخل هنا وهناك، لا يوجد نظام ثابت للبناء هنا، المكان يضجّ بالحياة والحركة، صخب البحر يصدر من جميع الاتجاهات، ويبدو أنّهم قوم يأكلون كثيرًا وبنَهم شديد،كدت أصل إلى بيت الضيافة الذي قضيت ليلتي فيه مع «مُولي» و«سَاهور» عندما فوجئت بمن يقذف رأسي بعظمة غليظة ما زالت آثار اللحم عالقة بها، آلمني هذا بشدّة، فالتفتُ غاضبًا وأنا أتحسس مؤخرة رأسي فوجدته «سنمّار» وكان رفاقه يضحكون، أربكتني نظراته، وشعرت بضيق شديد، لمَ أحبّ أن تكون البداية هنا كما كانت في قرية «كروسكو»، شجارًا وعداوة، والأمر هنا يختلف فليس هناك غلام يُضرب لأُدافع عنه، كما أنني قررت الرحيل إلى المكتبة العظمى، ولهذا سأتخطّى هذا في الحال، قررت أن أستدير وأمضي في طريقي وأتجاهل ما فعله حتى ألتقي بشقيقه «سَاهور»، وكُنت مخطئًا...

فور أن استدرت رماني مرّة أخرى بالقدح الذي كان في يده الأخرى فأصابني في منتصف ظهري، تناولت القدح فورًا وقذفته نحوه وكان متأهّبًا فأطاحه بذراعه، ووقف يطالعني بتنمّر، توقف رفاقه عن الضحك، واقترب هو بينما كانت عيناه تشعان غضبًا، قال وقد بدأ رفاقه يلتفّون حولنا:

–من يقبل الضربة الأولى يخسر نصف المعركة.

–أيّ معركة؟

دفعني في صدري بيده وقال بتنمّر:

–معركتك أنت معي أنا.

قُلت وأنا أتعجب من غضبه غير المبرر:

–لست هنا من أجل الشجار! أنا طبيب!

قال غاضبًا:

-بل أنت جاسوس..لا شكّ أنّ عمي «عدنان» أرسلك لتتجسس علينا.

قالها وأمسك بذراعيّ وضرب جبهته بجبهتي فجأة وبعنف شديد، تعالى صياح الشباب وبدأ صراخهم وصفيرهم الغريب يعلو، كانوا يشجعونه وكان أكثر مني عنفًا وشراسة، كانت صورته وهو يخرج من قلب الحوت على الشاطئ ما زالت تتردد في ذاكرتي، انهال عليّ بالضربات واللكمات، بدأت أصرخ في انفعال وأصيح كما لم أفعل من قبل، وانطلقت تارة أُدافع عن نفسي بضربات متفرّقة، وتارة أهرب من ضرباته وأتفاداها، سقطنا على الأرض وانخرطنا في مصارعة عنيفة، تارة هو فوق صدري، وتارة أدفعه وأعلو صدره، التوى بمهارة ولفّ ذراعه حول عنقي من الخلف ليخنقني، وكاد يفعلها وهو يُردد:

- أيّها الجاسوس اللعين.

كدت أفقد الوعي لولا حضور «سَاهور» الذي شق الصفوف وهو يناديه بصوت هادر:

-«سَنمّار» اترك «حمزة» فهو ضيفي!

انتفض «سَنمّار» وحررني من تحت ذراعه فور أن سمع صوت أخيه، وكنت أسعل بشدّة وأحاول التقاط أنفاسي..

اقترب «سَاهور» وكان يمدّ يده أمامه باحثًا عن أخيه، لامس صدره بيده، ووقفا أمام بعضهما وجها لوجه، وكأنّ كلّ منهما انعكاس لأخيه أمام المرآة، نسخة مطابقة لا يُفرق بينهما سوى الثياب الفضفاضة والثقيلة التي يُصرّ «ساهور» على ارتدائها، وتلك النظرة الخالية التي تسكن عينيه الضريرتين! عانق «سَاهور» شقيقه بحرارة وبدا لي أنّه لم يلتقِ به منذ فترة طويلة، وقرّب فمه من أُذن أخيه «سِنمّار» الغاضب وهمس إليه بشيء ما فتمعّضت ملامحه والتفت إليّ وهو يثقبني بنظراته، اقترب «سِنمّار» منّي ومدّ يده إليّ وساعدني على الوقوف، وأشار لرفاقه

فانصرفوا جميعًا وهم يتمتمون، وسرنا معًا في صمت نحو بيت الضيافة القريب منا، حيث كان «مُولي» يقلّب كفيه في حيرة بينما يتفحص جراح «هُرهُور»، الأمر يسوء، والغلام يبكي. وكانت رأسي تؤلمني بشدّة فقد ضرب «سنمّار» جبهته في جبهتي بعنف شديد ونحن نتصارع منذ قليل، قال «سِنمَّار» فور أن دلفنا البيت:

-أنت عنيد.

كُنت أفرك جبهتي فتركت هذا وقلت متعجبًا:

-أنا!

قال بنبرة تشوبها السخرية:

-لقد استفززتك فتركتني ومضيت! يبدو أنّ كرامتك لا تُجرح بسهولة.

ثُم أضاف وهو يهزّ كتفيه:

-تركتني أغلبك بسهولة رغم قدرتك على الفوز! حركاتك تشي بالكثير، أعرف هذا بخبرتي في المصارعة والقتال، لقد نلتَ حظًا من التمرين والتدريب!

-لستُ...

قاطعني قائلًا:

-لماذا لا تستخدم مهاراتك كلّها في القتال؟ لماذا التغلب عليك سهل للغاية؟ لماذا الفوز ليس مهمًا لديك؟

جفّ ريقي وتخشّب لساني في فمي، كانت تلك هي الكلمات التي كان أخي «خالد» يرددها دومًا بعد أن ينتصر عليّ في أي لعبة ونحن صغار، وحتى قتالنا وجهًا لوجه أثناء ممارستنا للرياضة منذ عامين قبل أن أمتنع عن الذهاب إلي التدريبات، كان دومًا يفوز..ويكرر تلك الكلمات، هل تلك إشارة منه؟ وهل يحاول إخباري بأنّه أخي؟

يبدو أنني سأبقى هنا بقرية «أُوركا» حتى أتأكد، انتشلني «سَنمّار» من أفكاري وهو يسألني مرّة أخرى:

-أنت محارب إذًا؟

أدركت حينها ما قاله «سَاهور» له عنّي فأجبته:

-نعم، وهذا صديقي وهو طبيب نوبيّ من قرية «كروسكُو».

طالع «سَنمّار» وجه «مُولي»، ثُمّ قال:

-هو نوبيّ وأنت والغلام لا! ما الذي جمعكم معًا هنا؟ ومن تسبب في تلك الجروح التي أراها على ظهر هذا الغلام المِسكين؟

قال «سَاهور» بصوت خافت:

-تلك قصّة طويلة تخصّ «هُرهُور» سأخبرك بها ونحن في طريقنا إلى قصر جدي الملك «قاموس»، فقد علم بوصولي، وطلب حضوري، وأريدك أن تذهب معي.

هزّ «سِنمّار» كتفيه قائلًا:

-هل سترحل سريعًا وتعود لعزلتك كما تفعل دومًا؟ ابق هنا يا فتى! أمّك تتعذّب لغيابك!

طأطأ «سَاهور» رأسه في حزن ولم يُجبه، ران عليهما الصمت للحظات، ثُمّ رفع رأسه وقال لأخيه «سِنمّار»:

-هيّا بنا لقصر جدّي.

قبل أن ينصرفا كان رسول أُمهما الملكة «أهاليل» بالباب، أخبرهما أنّ الملك «قاموس» يطلبنا جميعًا للقائه في قصره، فهو يود رؤيتنا وخاصّة «هُرهُور».

قبل أن نخرج جلس «سَاهور» يروي لأخيه «سِنمّار» قصّة الغلام والعثور عليه قرب ينابيع «وَرَاشين»، وعن احتمال كونه الحفيد الأكبر لحاكم «وَرَاشين»، والذي سيكون سببًا لوصول أبيه «أَشْهَم» للحكم إن ثبت نسبه، وعن قرية «كروسكُو» التي انتقل إليها الغلام مع أهل وادي «الفراديس» النازحين هربًا من «الدّواسر» الذين وفدوا إليهم وقتلوا منهم الكثير وطردوهم منها، وكيف كانت طيور الوراشين تحميه هناك..

كنت أُنصت لحوارهما باهتمام بليغ، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أعرف فيها أنّ «الدواسر» يحتلّون الآن أجساد البعض من شعب «أوركا» بعد أن تمكنوا من السيطرة عليهم بسبب خوفهم وضعف أرواحهم، أنهى «سَاهور» كلامه مع أخيه واستند إلى الجدار وقام يتحسسه، رأيتُ نظرة الشفقة لأوّل مرّة في عيني أخيه «سِنمّار» الممتلئة دومًا بالغضب، لكنّها سريعًا ما تبدلت عندما التفت نحوي ووجدني أمسك برأسي، كانت ما زالت تؤلمني، ضربني في صدري وهو يمرّ بجواري متوجهًا نحو الباب وقال:

-كن أكثر صلابة يا فتى...

ثُمّ ضحك ساخرًا وقال:

-مُحارب!

بدا لي «سنمّار» متربصًا وعنيفًا، يبدو أنّ الشكوك ما زالت تراوده تجاهي، لكنّ كلماته التي وجهها إليّ فور دخولنا بيت الضيافة تُشبه كلمات أخي «خالد» كثيرًا! أو...ربّما...لا أدري!

أشعر أني سأجنّ قريبًا إن لم أعثر على أخي هنا، جلست أتأمّل في حال هذا الشّعب الغريب الذي يسبح تارة في الماء، ويسير تارة على الأرض، وقد يُفاجئني أحدهم بطيرانه في الهواء! كلّ شيء قد يحدث على

أرض هذه المملكة العجيبة!، أطلّت جملة جديدة في كتاب «أوري»، فاهتزّ في حقيبتي، فأخرجته لأقرأها:

«الطيران في الهواء كالسّباحة في الماء، كلاهما تحليق، ودوران، وقبض، وبسط، وما عليك إلّا السعي، فالعمر يُطوى، والرزق يوزّع»

11

قصر «قاموس»

الكثير من الصخب، والكثير من الخدم، والكثير من الأفواه التي تثرثر، والكثير من الطعام، يبدو أنّ شعب أوركا شعب أكول بطبعه، لكن البدانة ليست من سماتهم الظاهرة، وربّما هذا لكثرة حركتهم ونشاطاتهم، فالكلّ يتحرّك ويعمل طوال الوقت، كان أفراد الشعب يتميّزون ببشراتهم البيضاء، وقاماتهم الطويلة، وقوّتهم الظاهرة على النساء والرّجال معًا، أصواتهم كانت عالية وممتلئة بالحماس، بالصفير والصياح إن تحدثوا بلغة الأوركا الخاصّة، أو حتى لو استخدموا لغة البشر في حواراتهم، دلف «سِنمّار» بلاط القصر قبلنا وحوله عيون الفتيات تلاحقه، فالكثيرات يعشَقنه ويطلبن وداده لكنّه لا يبالي، أمّا «سَاهور» فكانت خطواته دؤوبة لكنّها بطيئة إلى حد ما، كان يتحسس الطريق بعصاه التي لا تغادر يده، وكان «حمزة» يحمل «هُرهُور» فقد أشفق عليه، قرر «مُولي» خلع قميص الغلام فقد بدأت الثيّاب تلتصق بجروحه الملتهبة، وكان يسير وهو يحمل هذا القميص بجوار «حمزة»، وصلوا إلى ديوان الملك وكانت زوجته تجلس بجواره، على رأسيهما تاجان من المرجان أبدع من صنعهما لهما، على مقربة منهما كانت الملكة «أهاليل» تتأمّل ولديها بفخرشديد، اقترب كلاهما وقبلا يد جدّهما وجدتهما، وتراجعا ليقفا أمامهما بتواضع شديد واحترام، قال الملك «قاموس» لهما:

-مرحبا بحفيديّ المفضلين «سَاهور»، و«سِنمّار» الحبيبين.

كانت كلماته تخرج بصفير خفيف نظرًا لتساقط معظم ضروسة لكبر سنّه، التفت نحو «سَاهور» وسأله:

-أما زلت تصرّ على هجر القرية يا «سَاهور»؟ ما الذي يعجبك في تلك البقعة الموحشة التي تسكنها، ألا تملّ من وحدتك تلك؟ قال «سَاهور» بهدوء شديد:

-لا بدّ أن نعتاد الخلوة مع أنفسنا، فيومًا ما سنخلو بأنفسنا في قبورنا.

-كن بيننا وتحدّث إلينا يا بنيّ.

صمت «سَاهور» هنيهة وقال:

- أنا دائم الحديث مع نفسي، تُحاورني الحياة وأُحاورها، وتناجيني الذّكريات، ذاك البوح والإسرار والإفشاء منها يكفيني.

-تقتات على الماضي! وأين الآن؟ وأين مستقبلك؟ لا تكذب على نفسك فعزلتك ستقضي عليك.

- أنا لا أحتاج للكذب على نفسي.

ثُمّ أضاف «سَاهور» وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

-هي نفسي! لن أُنافقها، ولن أنبذها لاختلافها عنّي، فأنا نفسي ونفسي أنا...هجين!

تمعّضت ملامح الملك «قاموس» وقال بضيق:

-لم ننبذك لاختلافك، أنت تعلم أننا نُحبّك كما نُحب أخاك، أنت حفيدي، وابن ابنتي الحبيبة «أهاليل».

قال «سَاهور»:

- وأبي «رجّوان» وأنا منه وهو منّي، لديّ شعور مديد بحضور أبي بين أضلعي، أنا دائم الاجترار لكلّ كلماته وحركاته وسكناته، أتنفّس من خلالها، أقتبس ابتسامة برائحة أنفاسه.

دمعت عينا «أهاليل» عندما تحدّث «سَاهور» عن أبيه، قال الملك «قاموس» بصوت يرتجف:

-أمّك تحتاجك، وأخوك يحبّك، عش بيننا واسعد بحياتك... واختر من بنات الأوركا من تعجبك، حتى وإن كانت هجينة مثلك سأزوجها لك.

هزّ «سَاهور» رأسه وقال وشفته ترتجف:

-«هجينة»! طالما تتردد تلك الكلمة في جنبات القرية هنا سيظل هناك حاجز بيني وبينكم.

تجاهل الملك كلمات حفيده الأخيرة وقال:

-ألا تشتاق لزوجة تؤنسك؟

قال «سَاهور» مندفعًا:

- أخشى الحبّ...

-لماذا؟

-لأنني...أخشى الفراق.

ووضع يده على صدره قائلًا:

-هنا..الفراق يترك وجعًا هنا يا جدّي.

رنا«سنمّار» إلى وجه أخيه «سَاهور» وبدا عليه التأثّر، أراد أن يدير دفّة الحوَار مخففًا عن أخيه فقال موجهًا كلامه لجدّه الملك «قاموس»:

-هل أخبرتك أمّي عن «هُرهُور» يا جدّي.

أضاءت عينا الملك «قاموس» فقال وهو ينظر تجاه «هُرهُور» الذي كان لا يزال نائمًا على كتف «حمزة»:

-نعم أخبرتني، لو صح نسبه ستنقلب الأمور في مدينة «وَرَاشين»، سينشأ صراع دموي بين أبناء عمكم «عدنان».

قالت الملكة «أهاليل» بإشفاق:

-الغلام مريض ويحتاج إلى رعاية وأُريد أن أتولّى هذا الأمر.

تنحنحت الملكة الأُم بعد صمت طويل وكانت تراقبهم بعين ثاقبة وهي تجلس بوقار بجوار زوجها، ثُمّ أشارت لـ«حمزة» ليقترب منها وهو يحمل «هُرهُور»، تفحّصت جراح الغلام بعين خبيرة وقالت:

-أتذكرين يا «أهاليل» كيف كان جسد «سِنمّار» يحتقن ويلتهب وهو صغير، وكيف تدهورت حالته وارتفعت حرارته، وكاد يموت قالت «أهاليل» وهي تمسح على رأس «هُرهُور» بحنانٍ بليغ:

-نعم أذكر يا أُمّي، لم ينجح مع جراحه الدواء ولا الدهان، كدت أفقده، ولم تتحسّن تلك الجروح وتلتئم إلّا بعد أن غسلها أبوه بماء ينابيع «وَرَاشين»، هذا الماء مُبارك جعل اللّه فيه دواء وشفاء.

قال «مُولي» وكان يُنصت إليهما:

-لم ينجح الدواء الذي أعددته بيدي، وأنا أعالج به الكثيرين منذ سنوات!

قال «حمزة»:

-فلنأخذه إلى الينابيع إذًا، أو نُحضر له الماء إن استطعنا.

قال «سِنمّار» وهو يبتسم ساخرًا من «حمزة»:

-كونك مُحاربًا لا يعني أنّك تستطيع اختراق مدينة «وَرَاشين» بسهولة، سيلاحظونك كما لاحظتك، فأنت غريب، وللوصول إليها لا بدّ من دخول مدينة «وَرَاشين»، سيقبض حرّاس الملك عليك، وبالمناسبة ماء الينابيع لا يُنقل لأنّه يفقد فائدته، سنرسل الغلام مع من نثق به من أهل مدينة «وَراشين» المقيمين بيننا، ولنتخير رجلًا تزوج من نساء أوركا، فهو يستطيع ضمّه لأولاده ولن يلاحظه أحد.

قالت «أهاليل»:

-لا أُحبّذ هذه الفكرة..ربّما ينكشف أمر «هُرِهُور»، وقد يأمر أحد أعمامه بقتله، فهو يكره كلّ ما يتعلّق بشعب «أُوركا» والمسكين هجين.

ثُمّ التفتت تجاه «حمزة» وقالت:

-أنت مُحارب، وأنا مطمئنة لوجودك بيننا، وستتمكن من حمايته إن لزم الأمر، سنفكّر معًا في طريقة ما.

قال «سِنمّار» ساخرًا:

-تبالغين يا أمّاه!

شعر «حمزة» أنّ «سِنمّار» يحاول استفزازه مرّة أخرى، كاد يقول شيئًا ليرد به عليه، لكنّ الملكة «أهاليل» أسرعت قائلة:

-أخبرني زوجي رحمه الله أنّ لقاء المحاربين شرف عظيم.

قال «حمزة»:

-صدقيني يا مولاتي، لم أفعل شيئًا منذ وصولي إلى أرض المملكة هنا أستحق به تلك المكانة!

-ستفعل إن شاء الله يا «حمزة»، اختيار الكتاب لك يعني أنّك أهلٌ لهذا!

ثُمّ أردفت:

-أخبرني زوجي أيضًا أنّ كلًّا منّا مُحارب بطريقة ما، لكننا ربّما لا نملك كُتبًا لنّدافع عنها ونسترد كلماتها، لكننا نستطيع الدفاع عمّا نؤمن به، عن الحبّ، عن المبادئ، عن الشرف، عن الحقوق، عن العدل! ولهذا سأدافع عن هذا الغلام ولن أتخلّى عنه.

قالت الملكة الأمّ وهي ترنو لابنتها «أهاليل»:

-لقد ترك «رَجْوان» بصمة عميقة في قلوبنا، ما زلت أذكر كلماته..

استدارت «أهاليل» وقالت والدموع تنفر من عينيها:

-فما بالك بأمّ أولاده، ومن نهلت معه من الحبّ نهلًا!

ثُمّ أطلقت تنهيدة وأردفت:

-اعتصر فؤادي لرحيله.

قال «سَاهور»:

-بل قولي...ذُبح الفؤاد يا أُمّي!

قال الملك «قاموس» محاولًا إنهاء الحديث عن «رَجوان» فقد أربكه هذا كما بدا للحضور:

-حياة «هُرهُور» تهمّنا جميعًا، فأبوه أكثر أبناء الملك «عدنان» رفقًا وأحسنهم خلقًا، ومن مصلحة شعبنا أن يحكم «وَرَاشين» بعد أبيه، ما زلت أذكر حفل زفافه إلى زوجته من بنات الأوركا والتي كان يعشقها بجنون، ولم يمنعه اختلافها عنه من الزواج منها.

رفع «سَاهور» صوته قائلًا:

-كما فعل أبي عندما تزوّج أُمّي!

ران عليهم صمت ثقيل، أرادت «أهاليل» أن تقول شيئًا لابنها، لكنّ الملك «قاموس» أشار لها لتصمت، وقال بصوته الرّخيم:

-يبدو أنّك لن تسامحني أبدًا يا «سَاهور»!

قال «سَاهور» بتصميم وهو يستدير مغادرًا:

-سمعت أنّ قافلة «فسقاس» وصلت لمدينة «وَرَاشين» منذ ليلتين، وتعلمون أنّهم يأتون للتجارة، يستطيع «مُولي» دخول المدينة خلسة وهي مزدحمة بهم، سأذهب معهم من أجل «هُرهُور» غدًا، معبد «وَرَاشين» الكبير على حدود قريتهم هناك، ويكاد النّاس لا يزورونه! لذا سنقيم هناك ليلة أو ليلتين، سادِن المعبد من تلاميذ أبي رحمه اللّه، وأنا أثق به،

وسنذهب إلى الينابيع في الخفاء، وسأطلب من السّادن تكليف أحدهم بشكل سريّ ليبحث عن المرأة التي ساعدت أمّ «هُرهُور» وألبسته القلادة.

صاحت الملكة «أهاليل» قائلة وهي تسير خلف ابنها الذي كان يُغادر دون أن يحيي والدها الملك «قاموس»:

-لا...لا تذهب يا ولدي، عمّك لن يرحمك، سيقتلك حرّاسه! كل أهل «وَرَاشين» يعرفونك.

توقف مكانه وقال دون أن يلتفت إليها:

-لن يضرّوني يا أمّي..لن يضرّني أحد.

صاح الملك «قاموس»:

-«سَاهور»...عد إلى هنا، لم أنهِ كلامي معك!

لم يُجبه «سَاهور»، وأكمل طريقه بخطوات ثابتة وهو يتحسس الطريق بعصاه، كان شامخًا برأسه، وعيناه الضريرتان مكتحلتان بالدموع.

لاحظ «حمزة» تلك النظرات التي تبادلها الحضور بعد انصراف «سَاهور»، هناك سرّ ما بين الملك «قاموس» وحفيده «سَاهور»، قام «حمزة» هو و«مُولي» بتحيّة الملك «قاموس» وزوجته وابنته «أهاليل» وانصرفا خلف «سَاهور»، أمّا «سِنمّار» فقد استبقاه جدّه وأسرّ له بحديث خاص وكان حديثًا هامًا.

«حمزة».....

مرّ النهار سريعًا، وقمنا نستعد للرحيل، فقد أخبرني «سَاهور» أننا سندخل مدينة «وَرَاشين» ليلًا حتى لا نلفت الأنظار إلينا، وصلنا لمعبد «وَرَاشين» أخيرًا، جلت فيه بنظراتي وأعجبني المكان، أعمدة من الرّخام

المنقوش بينها مساحات شاسعة، قلّة من المصلين هنا وهناك، وهذا شابٌ يقرأ من كتاب ما ويشرح للآخرين وكانوا يشكلون حوله حلقة صغيرة تحت القناديل البديعة وهي تتدلّى من السقف المرتفع، أعجبني المكان ولكنني كُنت حائرًا! فقد كان لديّ الكثير من الأسئلة لـ «سَاهور»..

عندما دلفنا لمدينة «وَرَاشين» لمَ كان الصغار يلعبون في الطرقات وسيقانهم مقيّدة بسلاسل طويلة منَ الحديد معلّقة بأبواب البيوت؟

لماذا يرتدي كهلٌ حذاءً ثقيلًا يجعله يجرّ أقدامه جرًّا؟ ولم العامّة لا يرتدون هذا الحذاء مثله!!

ما السرّ في «ينابيع وَرَاشين» التي يتحدثون عنها باستمرار؟

وما سرّ الرائحة العطرة التي تعبق بها الأجواء هنا؟

لكنّ «سَاهور» لم يوجه إليّ أي كلمة منذ أن دلفنا المعبد الكبير، بدا منشغلًا بأمرٍ ما، وكان كثير الصّمت، نادى على سادِن المعبد، الذي هشّ فور أن رأى «سَاهور» فرحّب به وبِنا ترحيبًا حارًا وأجلسنا في غرفة خاصّة.

بدأ «مُولي» بفحص جراح «هُرهُور» مرّة أخرى ثُمّ قال:

-حرارة «هُرهُور» ما زالت مرتفعة، الجروح ملتهبة وتحتاج إلى تنظيف فقد احتقن جلده وتقرّح، سأنظّفها وسأضطر لقصّ أطراف جلده، وربّما سأسقيه منوّمًا حتى لا يتألّم.

سألته وقد أشفقت على الغلام:

-ضُرب كثيرًا وهو في بيت «كُوكُون»، وربّما جرح أكثر من مرّة، فهل كان يشكو من هذا هناك؟

قال «مُولي»:

-لا...ولكن يبدو أنّ «كُوكُون» بالغ هذه المرّة، فالغلام بدأ يكبر، وهو فصيح اللسان، كما أنّه ذكي، وأظنّه كان قد بدأ يرد عليه ويسأل ولهذا استفزّه.

قال «سَاهور»:

-غدًا صباحًا نغسلها بماء «ينابيع وَرَاشين» لعلّها تساعد في العلاج.

قال الغلام وقد اقشعر بدنه وهو يُنصت إلينا بينما يغلق عينيه وينام على بطنه في استسلام:

-لا شكّ أنّ ماء الينابيع بارد.

هزّ «مُولي» رأسه وقال:

-نعم، وماء تلك الينابيع يعالج الجروح.

قال الغلام وهو يتألّم:

-لعلّها تُخفف عنّي، فالجروح تحرقني بشدّة.

-سأقوم بدهانها بدواء ليلطفها يا صغيري، لا تقلق.

قال الغلام وهو يئن من الألم:

-لكنني لستُ من أهل مدينة «وَرَاشين»، كيف سيسمحون لي بالاغتسال من ماء ينابيعهم وأنا غريب.

انحنى «سَاهور» وقال وهو يمسح على رأسه بحنان بليغ:

-سأذهب معك ولن يمنعنا أحد.

اطمأنّ الغلام وتوسّد ذراعه ونام، تذكّرت كيف كان الشّجار بيني وبين «كُوكُون»، لقد تحررت من بعض خوفي هناك، وبقي بعض الخوف.. لم يمحه شجاري مع «سِنمّار»! لكنني أشعر الآن أنني أفضل من ذي قبل، لعلّ تلك الرحلة لمملكة البلاغة هنا ستمحو هذا الشعور المؤلم بالخوف القابع في صدري منذ طفولتي..

بدأت أراقب الظلال التي ألقتها الشموع المضاءة على الجدران وهي تتراقص، كنت منهكًا للغاية، وكانت قدماي تؤلماني بعد سيري لمسافات طويلة من قرية «أوركا» إلى مدينة «وَرَاشين»، توسّدت ذراعي بجواره ورحت أراقب ملامحه البريئة، وغرقت في النوم.

12
«الرّحالة»

«حمزة»....

استيقظت على رائحة جميلة تُداعب أنفي، فتحت عينيّ فرأيت ضوء الشمس يغمر الغرفة، لم أجد «هُرهور»! ولا «مُولي»!، خرجت أبحث عن «سَاهور» أيضًا فلم أجده، غسلت وجهي وعدت للغرفة، كان بجوار الفراش صحن منقوش يحتوي على بعض الفطائر وكوب من الفخّار ممتلئ باللبن، تناولت شيئًا منها قبل أن أقف لأصلي وأطلب من الله أن يدلّني على أخي «خالد» فأنا في قلق عليه، أسرعت أسأل السّادن عن «سَاهور» و«هُرهُور» فأخبرني أنّهما ذهبا إلى «ينابيع وَرَاشين» مع «مُولي». أشار نحو الجهة التي ساروا فيها، وأخبرني أنّ الينابيع قريبة جدًا، قررت أن ألحق بهم لأرى تلك الينابيع، فأعارني ملابس جديدة لأرتديها، وطلب مني تغطية رأسي بقلنسوة حتى لا أكون غريبًا بمظهري الشّاذ بملابسي الكتّانيّة وأنا أسير في طرقات مدينة «وَرَاشين»، وأنّ «سَاهور» و «هُرهُور» فعلا هذا قبل خروجهما، أمّا «مُولي» فلم يفعل، لأنّه يرى نفسه متميّزًا ببشرته الدّاكنه، كما أنّه يعتزّ بثوبه ذي الطراز النوبي الأصيل.

توغّلت في المدينة، واكتشفتُ أنّنا كنّا على الحدود، فالمنطقة التي كنّا فيها كانت مخصصة للمنشآت العامّة كالمعبد الكبير، والدواوين، وبيت للقاضي، وآخر لطبيب المدينة، أما أهل مدينة «وَرَاشين» من عامّة النّاس، فيعيشون في قلب المدينة حول قصر الملك «عَدنان» الذي يقع في مركزها، كانت بيوتهم مستديرة الجدران ولها أسقف كالقباء، وكأنّها كرات مجوّفة سقطت على الأرض، نوافذها وأبوابها ذاتِ طراز هندسي بديع، حتى ملابسهم كانت مختلفة عن ثياب أهل قرية «أوركا». وقفت أتأمّل القصر وحرّاسه، فوجدت نفسي في ميدان واسع وكبير يمتدّ أمامه، عدت للسير، فكثرت الطرق الفرعية وضللت الطريق، فابتعدت عن مدينة «وَرَاشين» دون أن أنتبه، وسلكت دربًا يقود لغابة، رأيت فيها الأعاجيب.

كُنت أجول بعيني وسط الأشجار بحثًا عن تلك الينابيع، توغّلت فرأيت الأشجار تزداد طولاً وكثافة، أشجار البَيْلَسَان[1] كانت في كلّ مكان، ألوان سيقانها متدرجة على الجانبين، بين السيقان الضاربة بلونها للون الرمادي، والأخرى التي تميل للون البني، وبأزهارها التي تتجمع على قمّة الغصن لتكوّن ما يشبه المظلّات كُنت أسير وأنا أتأملها بإعجاب شديد. ثمار التوت الأزرق كانت تطلّ من بين الفروع، وأنا أعشق التوت الأزرق، رائحة الأشجار العطرية القويّة داعبت أنفي، لولا اضطرابي وقلقي على مصير أخي لكان هذا أجمل مكان زُرته في حياتي. صوت الكروان الذي تردد في الأجواء أصابني بالقشعريرة، فرفعت رأسي للسماء تلقائيًا باحثًا عنه، وفور أن أنزلت رأسي اصطدمت بكيان مادي أسقطني أرضًا على ظهري، اعتدلت لأرى ما هذا الشيء لكنني لم أجده! ركضت تجاه شجرة قريبة ووقفت وأسندت ظهري إليها متأهّبًا له، مرّ هذا الكيان المادي أمام عيني مرّة أخرى بسرعة شديدة حتى أنني لم ألحظ تفاصيله، حاولت أن

---

(١) البَيْلَسَان:شجر من فصيلة البخوريات يستخرج منه العطر، ثماره عنّابية، وله زهر أبيض صغير كهيئة العناقيد.

أتمالك نفسي وأستعيد رباطة جأشي، تنفّست بعمق وقررت أن أسير مرّة أخرى.

مرّة أخرى ظهر الكيان المادي أمامي ولكنه مرّ ببطء هذه المرّة، كان رجلا أربعينيًا قويّ البنية، قمحيّ البشرة، له شعر ملبّد، عليه ثياب ترابية اللون، يحمل حقيبة على ظهره، ويتعلّق بوشائج الأشجار الغليظة التي.... تتدلّى من الهواء..اللا شيء...الـ..

-أنت محارب؟

قالها وهو يقفز بعد أن ترك الوشيجة[1] الغليظة التي كان يتعلّق بها وهو يطالعني بتعجّب، ازدردت ريقي وأجبت سؤاله بسؤال آخر:

-من أنت؟

خلع الحقيبة التي كان يحملها، والتي جذبت انتباهي لأنّها تشبه حقائب الرّحالة في عالمنا! وأخرج منها خنجرًا فتراجعت للخلف ووقفت متأهّبًا له، لكنّه جرح يده فسالت الدماء من جرحه بلونها الأحمر، قال بعد أن أراني الدماء تسيل وبعد أن أعاد الخنجر لحقيبته:

-دمائي ليست سوداء كأهل مملكة البلاغة هنا، لا تخف مني، اسمي «هشام»، أنا عالق هنا منذ سنوات..

-أتعني أنّك كُنت محاربًا و...

-لست محاربًا، وليس لديّ كتاب لأدافع عنه، أنا فقط علقتُ هنا بطريقة ما!

-ماذا تعني؟

لم يجب لكنّه سألني وهو يقترب:

-لم تُخبرني عن اسمك!

(١) الوشيجة مفرد وشائج وهي زوائد وعروق الشجرة التي تتصل بها وتشبه الرّباط والحبال.

-أنا «حمزة».

- هل التقيت بحراس المكتبة يا «حمزة»؟

-الحقيقة....

لم أكمل كلماتي، كانت مشاعري تتأرجح بين الحذر منه والاطمئنان إليه، وخشيت أن أعرّض نفسي للخطر، لاحظ اضطرابي وخوفي فبدأ يحكي لي عن نفسه ليبعث في نفسي الطمأنينة، قال بعد أن جلس وأسند ظهره لجذع شجرة بيلسان قريبة:

-لم يُخبرني «بُرهان» أنّ هناك محاربًا جديدًا قد وصل لأرض المملكة، لكنّه ألح عليّ منذ لحظات لكي أمر من غابة البَيْلَسَان! ولا ينجح في دخول الغابة هنا إلّا المحاربين، لهذا أظنّه كان يدفعني دفعًا لألتقي بك.

-ومن هو «بُرهان»؟

مسح وجهه بيده وقال:

-هُدهُد من هداهد المملكة، هؤلاء الذين يحملون حرّاس المكتبة.

-هُدهُد!! أظن هذا يُفسر هذا التاج الذي لمحته على رأس الطائر الذي حمل السيد «وَضّاح»، ظننت أنّ الصقور فقط من تفعل هذا!

افترّ ثغره عن ابتسامة وقال:

-طالما التقيت بالسيّد«وَضّاح» فأنت حتمًا شخص مهم جدًا.

ثُمّ اتسعت عيناه وهو يقول:

-المملكة هنا أكبر مما تتخيل يا «حمزة»، هناك طيور مختلفة الأشكال والألوان، لا تكفّ عن إحضار المحاربين من كل البلاد، تعددت قصص الكتب القديمة، ولغاتها، وقيمها، لقد رأيت الكثير من العوالم المختلفة.

ثُمّ زمّ «هشام» شفتيه وسألني:

- صحيح...ما رقم كتابك؟

-رقمي خمسة باللغة النوبية «ديجا».

قال «هشام» باندهاش:

-اللغة النوبية.. إذًا أنت من أحفاد «أبادول»!!

-نعم.

هزّ رأسه وقال:

-رائع جدًا، سمعت عنه ما أثار إعجابي.

سألته بفضول شديد:

-لماذا أنت عالق هنا يا سيّد «هشام»؟ ومنذ متى؟

شرد بعينيه وقال:

-لا أدري...لكنّها عدّة سنوات!، توقفت عن العدّ، أو فلتقل لم تعد لديّ القدرة على تمييز الزمان والمكان، أسأل المحاربين من أي عام أتوا، ويخبرونني دائما بالتاريخ والعام، لكنّ المشكلة أنني لا أذكر العام الذي كُنت فيه قبل أن أكون هنا، حتى اسمي الحقيقي لا أدري هل هو فعلًا «هشام» أم لا، لكنني وفور أن وصلت إلى هنا استغرقني نوم طويل في أرض عفراء واسعة وسمعت في أحلامي من يناديني بهذا الإسم، كان هذا قبل أن ألتقي بـ«بُرهان»، فأصبح هذا الاسم الذي أُعرّف نفسي به. أخبرني حرّاس المكتبة أن وجودي هنا غريب عليهم، أتدري؟ لم يحملني صقر، ولا نسر، ولا هُدهُد، ولم أتسلّم كتابًا لأدافع عنه، بكلّ بساطة وجدت نفسي هنا! وما زلت لا أعرف السبب!

أنا رحّالة في تلك الدنيا الغريبة، أتأرجح بين عوالمها لعلّني أعثر على ذاتي، وكلّما بحثت عن طريقي أجدني ضللت في طريق آخر، أتعثّر عليه، أحيانًا أتوكأ على من ألتقي بهم، وأكون أنا عكازهم في الكثير من الأحيان، لا أذكر شيئًا عن الماضي، لكنّني أحمل حنينًا لا يُبارح صدري أبدًا! وأخشى أنّ يكون أحدهم يشتاق إليّ وقد خذلته، ربّما أمّي، أو أبي، أو زوجتي، أو حبيبتي التي لم أتزوجها بعد! ما عُدت أعرفني يا صديقي!

ثُمّ غضن حاجبيه وقال بثقة:

-لكنني لن أكفّ عن المحاولة مرّات ومرّات حتى أصل للنهاية.

-أيّ محاولة تقصد؟

لم يجبني...وبقي سؤالي معلّقًا في الهواء، أشفقت عليه، وتسرب الخوف لنفسي، ماذا لو حدث لي مثلما حدث له! حانت منه التفاتة فلاحظ اضطرابي فقال بهدوء:

-ستتخلّص من الخوف مع كلّ خطوة تخطوها هنا، ومع كلّ تجربة تخوضها في جنبات المملكة، ومع كلّ معركة تكسبها أو حتّى تخسرها، فالخسارات دروس لا تُنسى.

ثُمّ أضاف وشبح ابتسامة ساخرة يلوح على شفتيه:

-أمّا عنّي... فهناك نداء داخليّ يدفعني لكي أستمرّ، وأستمرّ، فأنا أُحبّ ما أفعله، وإلّا... ما فعلته!

سألته وأنا أتفحّص ملابسه وحقيبته:

-من أين لك بتلك الحقيبة؟

ابتسم وهو يتحسس قفلها بيده وقال:

-من أحد المحاربين، دومًا قبل رحيلهم يهدونني شيئًا ما، فقد ساعدت الكثير منهم ومنهن، أتعلّق بتلك الوشائج التي رأيتها تتدلّى من السماء، وأتأرجح بها وأتنقل من عالم لآخر هنا...

-أهكذا؟ بهذه البساطة!!

اشتعلت عيناه بالحماس وقال:

-نعم، هل تحب أن تجرّب؟

-لا..لا

أطرق للحظات ثُمّ قال:

-هذا هو الفارق بيني وبينكم يا «حمزة»، أنا ألقي بنفسي وحسب، ليس لديّ ما أبكي عليه، أقفز لعلّني أجد مغامرة جديدة تلهيني عن التيه الذي أعيش فيه.

-ربّما فقدت ذاكرتك لسبب ما!

-ربّما...

-لماذا لم تطلب من حرّاس المكتبة أن يعيدوك؟

قال بفتور:

-كلّما حملني صقر أو هدهد أسقط في عالم آخر هنا، أحداث أخرى، أناس مختلفون، أهلكت «بُرهان» معي بمحاولاته الكثيرة ليحملني حتى أتعبته ومللت، ما عدت أطلبها منه.

-لماذا لم تُحاول أن....

قاطعني قائلًا:

-لم أتوقف عن المحاولة...ولكن!

امتعضت ملامحه، ثُمّ قال وهو يفرك كفيه:

-دعك الآن مني يا «حمزة»، وأخبرني لماذا أنت في «غابة البَيْلَسَان»؟

-كُنت في مدينة «وَرَاشين» مع غلام صغير.

-مدينة «وَرَاشين»!!

قالها السيّد «هشام» متعجبًا وهو يفتح حقيبته ويخرج منها رقعة من الجلد مرسوم عليها خريطة ما، بدأ يحرّك أصبعه عليها ويتتبع الخطوط والرسوم، قال متعجبًا:

-ما الذي أتى بمدينة «وَرَاشين» بجوار غابة «البَيْلَسَان»!

سألته متعجبًا:

-هل هما بعيدتان عن بعضهما؟

-بالتأكيد، لقد رسمت تلك الخريطة بنفسي يا «حمزة».

أخرج من جيب بنطاله بوصلة غريبة الشكل، كانت إبرة تلك البوصلة تدور بسرعة شديدة، وكان يقف متخشّبًا كالصنم وهو يحملق فيها، قال باندهاش:

-عجيب جدًا! إبرة الأَسْطُرلاب[1] تدور بسرعة! ولا تثبت على جهة محددة!

ثُمّ أضاف وهو يتمعّن في ملامحي:

-يبدو أنّ «بُرهان» أراد أن يدفعني للقائك وربّما لمساعدتك دون تصريح مباشر منه، وكأنّه مكلف بإخفاء هويتك أو حمايتك بشكل ما.

قُلت بثقة:

-نعم فـ«الدّواسر» يطاردونني.

---

(١) الأَسْطُرلاب هو آلة فلكية قديمة (تُشبه البوصلة) أطلق عليها العرب ذات الصفائح، وهو نموذج ثنائي البعد للقبّة السماوية يُظهر كيف تبدو السّماء في مكان محدد ووقت محدد، وقد رُسمت السماء على وجهه ليَسهل إيجاد المواطن السّماوية عليه.

قال فزعًا:

-ماذا قُلت!! وهل تحرر الدّواسر من أسرهم؟

-نعم تحرروا، هل سمعت عن ممر «أمانوس»؟

اتسعت حدقتا عينيه، وكأنهما زمرّدتان تشعان دهشة، قال ببطء:

- أخبرني عن قصّتك بالتفصيل يا «حمزة» منذ وصولك وحتى اللحظة.

كنت أحتاج لشخص أثق به، وخاصّة بعد استحالة اتصالي المباشر بالمغاتير، و«الزاجل الأزرق»، وتنبيه حارس المكتبة لي، وقد ظهر السيّد «هشام» في الوقت المناسب، بدأت أروي له قصة عمتّي وزوجها و«مِسكة»، ثُمَّ ما حدث لأخي، ثمّ ما حدث بمدينة «وَرَاشين».

انتهيت من سرد تفاصيل ما حدث لي، كان السيّد «هشام» يفرك لحيته بأصابعه، قال بعد صمت طويل:

-أنت تبحث إذا عن «خالد» في وجوه كلّ من التقيت بهم هنا.

-كدت أُجنّ، عندما ضربتَ «كُوكُون» ندمت وقلت في نفسي لعلّه أخي «خالد»، فالتقيت بـ«مُولي» فقلت ربّما هو أخي وليس «كُوكُون»، ثُمّ التقيت بـ«سَاهور» وظننته هو، حتى...أنت! ظننتك أخي!.

-ألم تخبرني أنّ «مسكة» قالت في رسالتها أنّ الشخصيّة التي حلّت محلّها تشبهها في الطباع؟

-بلى.

-إذًا...ابحث عمّن يشبهه في الطباع، وحاول أن تتواصل معه وربّما ترى علامة ما!

-ما يحزنني أنّه لن يتمكن من إخباري بأيّ شيء على لسانهم، هو الآن يعيش حياة أخرى، ذكرت «مسكة» أنّ الكلمات كانت تُحبس في صدرها ولم تتمكن من البوح بحقِيقة أمرها لأحد.

لاح بصيص أمل في عيني السيّد «هشام» وقال:

-ربّما أنا مثلهم!

ثُمّ عاد يسألني:

-لكنّهم يعرفون من هم، ومن أين أتوا كما كتبت «مِسكة» في رسالتها.. أليس كذلك؟

-بلى.

شرد السيّد «هشام» للحظات وقال بانفعال:

-لكنني لا أذكر أيّ شيء عن حياتي قبل مملكة البلاغة للأسف.

قُلت أشجّعه:

-ربّما أنت فعلا مثلهم، حللت محلّ شخصية ما!، وستتذكّر كلّ شيء، فممر «أمانوس» هذا فُتح منذ عشرين سنة.

غضن حاجبيه وقال:

-لكن...

-لكنّ ماذا؟

تحسس وجهه بأصابعه وقال:

-أنا لم أتغير خلال السّنوات التي علقت فيها هنا، لم أكبر، لم أضعف، ملامحي ثابته، حتى حرّاس المكتبة، والهدهد «بُرهان» لاحظوا هذا.

قلت باندفاع:

-ربّما هذا سرٌّ يتعلّق بالوقت، فاللحظة هنا بالتأكيد تختلف عن اللحظة في عالمنا هناك.

هزّ السيّد «هشام» رأسه وقال هامسًا:

- «حمزة»...هل تسمح لي بقراءة رسالة «مِسكة»؟

-بالتأكيد.

أعطيته الرسالة، وراقبته وهو يطالعها باهتمام شديد، كان يعيد قراءة فقراتها وكأنّه يدرسها، بعد أن أنهى قراءتها أعادها إليّ والحيرة تقبع بين عينيه.

وقف السيّد «هشام» فجأة وطوى الخريطة التي كانت مبسوطة أمامنا على الأرض ثُمّ دسّها في حقيبته ورفعها على ظهره، وغمره النشاط فجأة، وصار أكثر حماسًا من ذي قبل وقال:

-هيّا بنا إلى مدينة «وَرَاشين».

سرت خلفه وسألته بفضول:

-هل زُرت مدينة «وَرَاشين» من قبل؟

-نعم منذ فترة طويلة.

سألته لعلّني أجد إجابة لديه على ما يحيّرني:

-أهل هذه المدينة غريبو الأطوار، وددت أن أسألك..لماذا يربطون أقدام الصغار بالسلاسل؟

-حتى لا يطيروا.

-ماذا!؟

-كما سمعت يا «حمزة»، حتّى لا يطيروا في الهواء، سكان هذه المدينة غريبوا الأطوار بالفعل، فطبيعة أجسادهم تختلف عن طبيعة أجسادنا، يُولد الأطفال على فطرتهم، أنقياء، قلوبهم البيضاء لا تحمل إلّا الحبّ والتسامح، لا يطمعون كما نطمع، ولا تغلبهم شهوة فتكسرهم، لهذا أرواحهم خفيفة، فترتفع أجسادهم عن الأرض مقدار شبر أو شبرين، وكلّما كبروا ازدادت نفوسهم ثقلاً، وكلما كبروا أكثر ازدادت ذنوبهم أكثر، فتثقل أرواحهم بها، عندها

يكسرون السلاسل بأنفسهم، فما عادت هناك حاجة إليها بعد أن لامست أقدامهم الأرض.

-والكبار؟ ألا يطيرون؟

-قلّة منهم فقط يحافظون على نقاء أرواحهم ولفترة لا تدوم، ولو عُرف عن أحدهم أنّه ارتفع مقدار شبر أو شبرين يسرع بارتداء حذاء ثقيل، حتى يستر نفسه، لأنّ حاله يتأرجح كأحوالنا جميعًا، قلبه يتقلّب، تارة يتوب فترق روحه وتخف، وتارة يذنب فتثقل مرّة أخرى، ولهذا يفضلون الثبات على الأرض بطريقة ما حفظًا لماء وجوههم، فأهل المدينة لن يرحموه لو طار ثُمّ سقط، أرأيت كيف سترنا اللّه؟

-الحمد للّه على جميل ستره!

-وما قصّة المعبد؟

-كان المعبد لشيخ من كبار المدينة يُسمّى «رَجْوان»، أحبّوه جميعًا لحسن خلقه وحكمته، وكرمه الشديد، وعدله في الفصل بين المتخاصمين، حتى صار الجميع يطالب بأن يكون حاكما لمدينة «وَرَاشين»، وكان هذا يُغضب من يطمحون لتلك المكانة، كما كان يغضب شقيقه «عدنان» والذي هو حاكمهم الفعلي. تزوج هذا الشيخ العابد في شبابه من زوجة بارعة الجمال، أنجب منها ولدين وكانا جميلين كأمهما

-وماذا حدث بعد ذلك؟

أكمل السيّد «هشام» قائلًا:

-كاد الشّيخ يستجيب لمطلب أهل المدينة، فغضب أعداؤه، وحتى أخوه، وتخلّى عنه عندما هددوه بخطف ولديه، وبذبح زوجته الغريبة عن المدينة، فأعلن أنّه سيرحل من المدينة، فثار مريدوه من سكّان المدينة، لكنّه لم يتراجع، وخرج مع زوجته وولديه «ساهور» و«سنمّار»

وسار معهم نحو قرية «أوركا» التي تطلّ على بحر «حندس» ولم يروه مرّة أخرى.

-لقد التقيت بـ«سَاهور» و«سِنمّار» وأمهما وبالملك «قاموس» كما أخبرتك.

-أجل أخبرتَني بهذا وأنت تسرد تفاصيل رحلتك، وهذا يحيّرني، لأنّه لم يكن ضريرًا عندما رحلوا، لعلّه عاد مع أبيه بعد رحيلي من المدينة ثُمّ فقد بصره لسبب ما، فقد كنت أتصنّع أنني عطّار لأتمكن من البقاء هناك لأكبر فترة ممكنة، فالإقامة هناك كانت تروق لي، وكان لي أصدقاء كثيرون.

ثُم انتبه «هشام» وتلفّت حوله وقال:

-هيّا نجمع بعض الأعشاب من هنا وهناك، سنحتاجها، من الآن نحن عطاران، هيّا اتبعني يا «حمزة».

جمعنا الكثير من الأعشاب، لم أميّز بينها، لكنّ السيّد «هشام» كان خبيرًا، كان يعرف أسماء الأعشاب وفوائدها، هذا «بابونج»، وهذا «قرنفل»، وهذا «إكليل الجبل»، أما هذا فـ«أقحوان»، وهذه عشبة «ذيل الحصان» التي تطرد السموم من الجسم، وتلك عشبة «كفّ مريم» وهي تخفف آلام البطن والصداع، وهذا «قرقاص» يشبه الشّاي وهو يُحبّه كثيرًا. جمعت في حقيبتي الكثير من أزهار«البَيْلَسَان»، فهي الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه، كُنت أتأمّل السيّد «هشام» وأفكّر، ما حقيقة هذا الرّجل؟، ومن أين يعرف كلّ أسماء النباتات تلك؟ وكيف يفرّق بينها، وهل هو مدرّس أحياء أم مهندس زراعيّ أم... عالم نباتات أم ماذا؟! لا بدّ أنّه شخصٌ مثقف، بل مثقف جدًا، وربّما عائلته تبحث عنه منذ سنوات!

جمعنا ما تيسر لنا حمله، ومررنا بطريق قصير وموعر تنتشر فيه نبتة خضراء قصيرة لها زهرة بنفسجية مخروطية الشكل. وقف السيّد «هشام» أمامها يتفكّر، وبدأ يفرك أوراقها بيديه ويشمّها، ثُمّ وقف حائرًا فسألته:

-ما بك سيّدي؟

قال وهو يمضغ ورقة من هذا النبات:

-أشعر أنني نسيت اسم هذا النّبات، وأودّ أن أتذكّره.

قُلت وقد أعجبني لونه:

-يبدو جميل الشكل.

أغمض عينيه مقشعرًّا وقال:

-مذاقه لاذع، يُشبه مذاق الرّيحان، لكنّ نكهته أقوى..لا أذكر اسمه!!

جمع البعض من أوراق تلك النبتة ووضعها في جيبه، وبدا لي مشتت الفكر، باغتني قائلًا:

-لا ريب أنّك أتيت بخنجر أبادول معك!

تململتُ قائلًا:

-للأسف لم أحضره معي، لكنّ السيّد «وضّاح» أخبرني أنّ لكل محارب أدواته، وسيعثر عليها بنفسه، وربّما أعثر عليها أثناء تجوالي، ليتني أستطيع التجوال مثلك بسهولة.

-تستطيعّ ذلك بالفعل!

-كيف؟

-بالأَسْطُرلاب وخريطتي تلك.

أجفلت لمجرّد تخيّل انتقالي لمكان آخر، قلت وقد شعرت بالارتباك:

-ربّما لو تمكّنا من تحديد المكان الذي سنذهب إليه أولًا، فالأمر لا يحتمل تضييع الوقت...فهل هذا ممكن؟

-نعم، إن كُنت قد زرت هذا المكان من قبل سأنقلك إلى هناك بسهولة، فأنا أضع العلامات على خريطتي واحتفظ بها.

قلت دون أن أفكّر:

-قصر الحوراء مثلا؟ هل التقيت بها من قبل؟

-بالتأكيد، التقيت بها وبابنها «الزّاجل الأزرق» وأستطيع أن أنقلك إلى هناك...

وقفت حائرًا، فأنا أودّ لقاء «الحوراء» وابنها «الزّاجل الأزرق»، وحرّاس المكتبة العظمى أيضًا، لكنّني أخشى المجازفة، وأخشى ألّا ألتقي بـ «مُولي»، و«ساهور» مرّة أخرى، فربّما يكون شقيقي «خالد» قد حلّ محلّ شخصيّة أحدهما، فطِن الرّحالة لما أفكّر فيه فقال ليطمئنني:

-نستطيع العودة لنفس المكان مرّة أخرى إن أردت، لقد زرت غابة البَيْلَسَان مرّات ومرّات، فعلتها من قبل، لا تقلق.

جلت بعيني في المكان، كانت دقّات قلبي تتواثب، اليوم أنا صاحب القرار، فماذا سأفعل هنا؟

مرّت دقائق كان «هشام» يتحدّث فيها إليّ، لكنّني كنت أسبح في ملكوت آخر، قررت أخيرًا أن أخاطر ولتكن مغامرة سريعة، فقلت بحماس:

-حسنًا...فلنذهب إلى قصر «الحوراء» الآن.

ابتسم السيّد «هشام»، ووضع ورقة من هذا النباتِ الذي قال لي أنّه قد نسي اسمه في فمه وبدأ يمضغها، ثُمّ أخرج الأَسْطُرلاب من جيب سترته، وأخرج الخريطة من حقيبته وبسطها على الأرض أمامه، كان يضع علامات مختلفة عليها، وكانت العلامات كثيرة، يبدو أنّه زار الكثير من الأماكن في مملكة البلاغة.

وضع الأَسْطُرلاب فوق بقعة تُشِير إلى مكان قصر «الحوراء»، وطلب منّي أن أضِع أصبع السبّابة على الأَسْطُرلاب معه، وضع كلانا أصبعه على عدسة الأَسْطُرلاب الزّجاجية، وأغمض السيّد «هشام» عِينيه، أمّا أنا فلم أتوقف عن التحديق في الشعاع الفضّي الذي انبثق من الأَسْطُرلاب، دارت الأرض بنا وكأنّنا واقفان على حجر صخري دوّار، اختفت أجواء الغابة، وابتلعتنا سحابة من الضباب الكثيف، ثُمّ ارتفعنا في السّماء، حرّك «هشام» يديه بانسيابية وطوى الخريطة ودسّ الأَسْطُرلاب في جيبه، بينما كنت أتأرجح في مكاني بعد أن فقدت اتزاني، صاح السيّد «هشام»:

-ستظهر الوشائج الآن، تعلق بواحدة منها، وتشبث بها جيدًا.

بدأت الوشائج المعلّقة في الهواء تمرّ من أمامنا، جدائل من الليف وعروق الأشجار المجدولة تتدلّى من السماء! كانت تتوالى أمامنا بسرعة شديدة، وكان لا بدّ من التعلق بواحدة منها لكي ننتقل لقصر الحوراء، قفز السيّد «هشام» في الهواء وتعلّق بواحدة منها فاختفى في الحال، ترددت قليلًا قبل أن أفعل مثلما فعل، لكنّني سحبتُ نفسًا عميقًا، وجمعت أطراف شجاعتي وتعلّقت بوشيجة من تلك التي تمرّ أمامي، استحال ما حولي أبيض وكأنّني سقطت في بحر من الحليب، ومضات توالت أمام عيني كالبروق المتتالية، شعرتُ بصعقات خفيفة تجتاح جسدي، بدأ رأسي يدور ويدور ويدور ثُمّ بعد لحظات سقطتُ على الأرض أمامها... إنّها الملكة «الحوراء»!

رفعت عيني فرأيتها تقف في شموخ ومن خلفها برز عرشها بينما كانت بومتها «الشهباء» ساكنة على كتفها الأيمن، كان وجه الحوراء ممتلئًا بالتجاعيد، لكنّها رغم ذلك بدت لي جميلة، سقط حاجباها لكنّ جبينها كان شامخًا بعزّة، لا تزال تحتفظ ببقايا جمال متعب على قسمات وجهها اللطيف، كانت ترتدي برنسًا مرصّعًا بفصوص برّاقة، بثيابها البيضاء

الواسعة ونظرتها الحانية أشعرتني بالمهابة والسكينة، كانت تلف رأسها بوشاح سماوي اللون وقد انسدل من فوق رأسها ليغطى كتفيها.

حرّكت «الشهباء» رأسها وكُنت أعلم أنّ تلك البومة قد مكّنت الملكة «الحوراء» من الإبصار بعينيها كما أخبرني أبي، بعد أن فقدت بصرها عندما دلفت الغابة المسحورة أثناء رحلته مع أمّي لاسترداد كتاب «إيكادولي»، ابتسمت فور أن رأتني وقالت بصوتها الحنون:

-مرحبًا أيّها المحارب.

ثُمّ تمعّنت في ملامحي وأردفت قائلة:

- أنت أشبه بـ«أبادول» من أبيك «أنس»، ومن جدّك «كمال»!

ثُمّ التفتت تجاه «هشام» وقالت له:

-كيف أنت أيّها الرّحالة الحائر؟

-بخير يا مولاتي، ما زلت أتخبط في دهاليز ذاكرتي الممحيّة.

-هل وصل حرّاس المكتبة لشيء جديد يخصّك؟

قال بيأس:

-لا!

سألتُها بفضول:

-هل عاد إليك بصرك يا مولاتي؟ أراك تحرّكين رأسك وتنظرين إلينا بعينيك!!

ابتسمت بعذوبة وقالت:

-عندما تقف الشهباء على كتفي تنشأُ صلة ما بيننا، شيء لا يُشرح، لكنّه يُحس يا بنيّ، وكأنّه اتصال روح بروح أخرى! لهذا رأيتها بعيني هاتين عندما أهدتني قدرتها على الأبصار وهي تقف على كتفي في الغابة المسحورة، شعرت كأنّ عينيها نُقلت لعينيّ، وعندما رأيتها

ظننت للحظات أنّه قد عاد إلي بصري، ثُمّ أدركت الحقيقة فور أن التفتّ!...كنت أراها بعينيها ولا تسألني كيف! فأحببت لونها وأطلقت عليها اسم «الشهباء»، أحيانا إن غابت عنّي أو خرجتُ من القصر وحدها تُظلم عيناي مرّة أخرى، ولا أرى إلّا ما تراه هي بالخارج، إن أحبّت هي أن تريني ما تراه!

ثُمّ قالت وهي تقترب مني:

-كُنت أنتظر وصولك بشغف، فقد حملت لي الرّياح أخبارك، أعرف كلّ ما مررت به يا بنيّ، وسمعت حديثك مع «هشام» بالغابة، أُدرك الآن خطورة الأمر، فـ«الدّواسر» يتربّصون بك لأنّك حفيد «أبادول».

ثُمّ طأطأت رأسها وقالت وقد بدا عليها القلق:

-لقد أخفيت الأمر عن «المغاتير»، وقررت أن أخبر ابني «الزّاجل الأزرق» ولكن بعد أن أطمئن عليك يا«حمزة» أوّلًا.

سألتها بتلهّف:

-هل تعرفين أين أخي «خالد»؟ وفي أيّ شخصية حلّ كزائر هنا؟

-للأسف، تبقى حقيقة الزوّار خفيّة عنّا، لهذا اجتهد حرّاس المكتبة العظمى في غلق الممرات بيننا وبين عالمكم منذ أمد طويل، وإغلاق ممر «أَمَانوس» القابع تحت هذا الجبل الأنورً العظيم، جبل «أمانوس» الذي مرّ على سفوحه عشرات الحضارات، بخيرها وشرّها، بأهوالها وأعاجيبها، وبأنفاس شعوبها المختلفة، وبأحلامهم وتاريخهم وأساطيرهم.

ثُمّ استدارت الملكة «الحوراء» وهي تقول:

-فَتح ممر «أمانوس» حدث نتيجة لأمر خارق لقوانين مملكة البلاغة، فقد تعاونَ «الدواسر» مع أحد كبار السحرة البارعين، لم أعرف

حقيقة «مسكة» إلّا بعد اختفاء صديقة عزيزة لي، نحن لا نعرف الزوّار إلّاَ بعد رحيلهم وعندما..

توقفت عن الكلام وبدا على وجهها التأثّر، فسألتُها بفضول:

-عند ماذا؟

قالت الملكة بشجن:

-عندما تضحّي حورائية من حورائيات غابة البَيْلَسَان بنفسها لكي يعود هذا الزائر لموطنه، إكراما له، وحفاظًا على استقرار المملكة هنا، فبمجرّد رحيله يعود كل كيان إلى أصله، ولقد ضحّت صديقة لي من كبار الحورائيات بنفسها لتنال هذا الشرف، ولتعود «مِسكة» إلى ديارها بسلام.

-ومن هن الحورائيات؟

قالت بجدية شديدة:

-تلك قصّة طويلة سيخبرك بها «هشام» لاحقًا وهو يعرف القصّة بالتفصيل، فالوقت يسرقنا، وعليك أن تنتبه فلقد علم «الدّواسر» بوصولك، أخبرهم «ساجور».

-ومن هو «ساجور»؟

-السّاحر الذي عاونهم، وسيبحثون عنك، وأنت تحتاج لمن يعينك على أداء مهمّتك.

علِقتُ في فقاعة من الحيرة وقُلت لها:

-سأذهب إلى غابة «البَيْلَسان» وأتحدّث إلى «الحورائيات»، فلتُضحّي واحدة منهن وتنقذ أخي «خالد».

ابتسمت الملكة «الحوراء» بلطف وبدأت تشرح لي:

- «خالد» دلف لعالم رواية كاتب ما، وتلك الرواية ترتبط بكتابك كمحارب، وهو الآن في شخصية من شخصيّات الرّواية، ونحن لا نعرفه، بعد أن تسترد كلمات كتابك الذي اختارك لتُدافع عن القيم التي دُوّنت على صفحاته، وتُسلّمه إلى المكتبة العظمى، ستظهر هالة مضيئة فوق رأس الشخصية التي يتخللها الزّائر، وستراها «الحورائيات»، وعندما تتعرّف عليه ستقوم بالتضحية لتُساعده، فيعود لدياره في سلام.

قُلت وقد ازداد قلقي على أخي:

-إذًا لا بدّ أن أستردّ كتابي لكي تظهر تلك الهالة المضيئة للحورائيات، ويرينها فوق رأس أخي...أقصد فوق رأس الشخصية التي حلّ فيها كزائر لمملكة البلاغة.

هزّت «الحوراء» رأسها موافقة، ران علينا صمت خفيف قطعته قائلًا لها وأنا أراقب «الشهباء» وهي مستقرّة على كتفها:

-أخبرني أبي أنّ المحاربين يتسلمون خريطة من حرّاس المكتبة في بداية رحلتهم!

هزّت رأسها موافقة وقالت:

-وهذا نظام المملكة بالفعل، لكنّ عائلة «أبادول» ستبقى دوما مميزة، لقد خرجتم دومًا عن المألوف، كل واحد منكم بدأ رحلته على أرض مملكة البلاغة بطريقة ما تختلف عن الآخرين، لم يتبع أيّ منكم خريطته، كنتم دومًا من المغامرين.

ازدادت حيرتي فسألتها:

-ماذا سأفعل الآن؟

-ستعود إلى مدينة «وَرَاشين»، فـ«مُورفو»[١]، و«مُونارش»[٢] ستصلان قريبًا.

-ومن هما؟

-فتاتان من الحورائيات علمت أنّهما تسللتا من الغابة، وأودّ منك مساعدتهما، فبمجرّد أن يرى أهل المدينة وجهيهما لن يتقبلوهما

-لماذا لن يتقبلوهما؟

قال «هشام» وهو يضغط على كتفي:

-سأخبرك لاحقًا عن الحورائيات بالتفصيل يا «حمزة».

قالت «الحوراء» بحزم شديد:

-اتبعاني بسرعة.

تبعناها إلى شُرفة غرفتها الواسعة، وقفتْ بشموخ ثُمّ رفعت ذراعها في الهواء، في تلك اللحظة اقترب نُهامٌ[٣] أبيض كالجليد، عيناه الواسعتان تبرقان، ثُمّ وقف على ذراعها وأصدر صوتًا مميّزًا قبل أن يسكن تمامًا كأمّه التي كانت ساكنة على كتف الملكة «الحوراء» التي استدارت وقالت موجهة كلامها لي:

-هذا هو أكبر أبناء بومتي «الشهباء»، أطلقتُ عليه اسم «الدّيسق»[٤] سيصاحبك في رحلتك يا «حمزة»، وسيكون دليلك، وسترى بعينيه ما يحدث هنا وهناك.

انتفض قلبي وسألتها:

-لماذا!! هل سأفقد بصري!

---

(١) مُورفُو: نوع من الفراشات الزّرقاء.

(٢) مُونارش: نوع من الفراشات البرُتقالية.

(٣) النُهام: هو ذكر البوم.

(٤) الدّيسق: هو اللون الأبيض اللامع.

-ستفقده فقط عندما يُريد «الدّيسق» أن يريك شيئًا حدث في مكانٍ آخرَ بعيدًا عنك، وسيعود إليك بصرك في الحال، والآن اتركه يقفْ على رأسك، ليبدأ التواصل معك.

ترددت كثيرًا، لولا تشجيع السيد «هِشام» لي، تذكّرت نصائح جدّي «أبادول» وكيف أنني لا بدّ أن أثق بالحوراء فدنوت منها وقلبي يكاد يقفز من بين أضلاعي، وتلاقت عيناي بعيني ذكر البوم الذي ضرب بجناحه ضربة خفيفة وطار نحوي ووقف على رأسي فأصابتني قشعريرة اجتاحت جسدي، ثُمّ غطى عينيَّ بريش جناحيه الأبيضين اللامعين، ثُمّ انطلق «الدّيسق» مرتفعًا في السّماء، بينما أظلمت عيناي فغطيتهما بكفيّ وانطلقت أصرخ قائلًا:

-لقد عميت! أنا لا أرى! لا أرى أي شيء!

ثُمّ شهقت عندما بدأت أرى بعيني «الدّيسق» الذي طار مُحلّقًا فوق مملكة البلاغة، مرّ على حدائق القصر، ثُمّ انطلق محلّقا فوق نهر طويل ماؤه أخضر فقلت وأنا أتأرجح في مكاني:

-يا إلهي..أهذا هو النهر الأخضر؟

مرّ «الدّيسق» بالجبل الأحمر، ذاك الجبل ذي القمّة البيضاء التي تحيطها السحب الحمراء، كان شاهقًا ومهيبًا، هوى قلبي عندما رأيت انحداره الشديد، فمددت أصبعي في الهواء وصحت قائلًا:

-هذا الجبل الأحمر الذي كان أبي يقف عليه مع أمي بعد أن أنقذها من الموت.

ثُمّ حلّق «الدّيسق» فوق غابة كثيفة الأشجار، ورأيت كوخًا وسطها فوقع في قلبي أنّه كوخ العجوز «ناردين»، فقلت بحماس شديد:

-تلك هي الغابة المسحورة! ..وهذا هو كوخ «ناردين»! العجوز التي أحبّها أبي وأمي!

استدار «الدّيسق» وعاد يحلّق فوق قصر «الحوراء» البديع، كان القصر بارزًا وكأنه نُحت داخل بلورة عملاقة، كلّ جزء منه كان رائعًا في حدّ ذاته، تحفة فنية لا تشبه ما يجاورها، شرفاته كانت وكأنّها محار مفتوح تطل منه لؤلؤات بديعة، بواباته عليها نقوش والتواءات تشبه فروع الأشجار، وكأنّ الأزهار المنحوته تضجّ بالحياة من روعتها، عاد «الدّيسق» ووقف على رأسي في سكون، وكُنت قد جلستُ على الأرض من هول ما رأيته بعينيه، فعاد إليّ بصري في الحال، ثُمّ انتقل ليقف على كتفي، فوقفتُ أحاول استعادة رباطة جأشي وقلت منتشيًا:

-يا إلهي! لقد كُنت أطير!

فور أن اعتدلت واقفًا وجدت السيّد «هشام» ممددًا على الأرض، يشكو من ألم شديد في معدته، وحرقة في حلقه،كانت «الحوراء» تمسك بيده وتتحدث إليه، التفتت نحوي وقالت:

-يقول إن هذا بسبب نبتة عثرتما عليها في غابة البَيْلَسَان اليوم، ومضغ أوراقها منذ قليل وقد نسي أنّها نبتة سامّة، وتذكّر الآن، لا بدّ أن تصحبه فورًا إلى «البِيمارِسْتَان»[1] يا «حمزة».

-وأين هو «البِيمارِسْتَان»؟

-على أطراف مملكة الشّمال.

رفع «هشام» يده فأدركت أنّه يطلب الخريطة، أخرجتها وبسطتها على الأرض وسحبت الأَسْطُرلاب» من جيبه ووضعته حيث أشار لي فقد كان يعرف مكانها على الخريطة، ووضعنا أصابعنا على «الأَسْطُرلاب»، تحامل على نفسه وتعلّق بوشيجة وهو يصرخ من الألم، وتبعته في الحال، وانتقلنا معًا وقد رافقنا «الدّيسق» هذه المرّة.

(١) البِيمارِسْتَان كلمة فارسية تعني المستشفى.

13

«البِيمارِسْتَان»

سقطّتُ على الأرض بجوار السيّد «هشام» في أرض بستان مهجور أشجاره جرداء وكأنّ حريقًا قد نشب بهَا! لا أوراق ولا أزهار ولا ثمار! أجفلت عندما سمعت صوت صفير الرّياح، انطلق «الدّيسق» محلّقًا بجناحيه في رحاب السماء فوقنا، بدأنا السير وكنت في أسوأ حالاتي، فالرياح شديدة، وأنا لم أعتد على الحياة بتلك الطريقة، فمنذ وصولي لأرض مملكة البلاغة وأنا أتنقل من مكان لآخر وبسرعة لم أعتد عليها. كان السيّد «هشام» يئن من الألم، وضعت ذراعه حول عنقي واحتضنت جذعه بذراعي وسرت معه وهو يجرّ قدميه جرًّا. كان يحفظ الطريق، بل يعرف كلّ شيء حتى الاتجاهات، سألته بفضول:

-لماذا لم نصل إلى «البِيمارِسْتَان» مباشرة!

هزّ رأسه قائلًا:

-لا أدري!

-فلنُعد المحاولة بالأَسْطُرلاب مرّة أخرى.

قال بخفوت:

-حسنًا، فلنُعِد المحاولة بسرعة.

أعدنا المحاولة، لكننا وصلنا إلى نفس البقعة التي كنّا نقف عندها، أعدناها مرّة ثالثة وتكرر الأمر! قال السيّد «هِشام»:

-هذا يعني أننا لا بدّ أن نمرّ بتلك الطريق بالذّات.

-لماذا؟

-لسبب سيظهر لاحقًا، اعتدت على هذا.

-غريب أمر هذا الأَسْطُرلاب! من أين أتيت به يا سيّد «هِشام»؟

-لا أذكر...ربّما أحضرته معي! وربّما وجدته هنا!

قررنا السير بسرعة وخاصّة أنّ البِيمارسْتَان ليست ببعيدة عنّا كما قال السيّد «هِشام» الذي كان يعافر ويقاوم وكُنت أخشى عليه، بدأت تمطر بشدة، عجزنا عن السير فجلسنا قليلًا تحت ظلّ شجرة كانت أغصانها الكثيفة تخفف من هطول المطر على رؤوسنا زفر السيّد «هشام» بحرقة وكان يبدو عليه الإرهاق والانفعال الشديد وهو يقول:

-لقد مللت، أشعر بإحباط شديد.

-هوّن على نفسك، سنصل سريعًا إلى البِيمارِسْتَان.

التفت نحوي وعيناه تقطران حزنًا وقال:

- لا أَظُنّ أنك تدرك ما يخالج قلبي من أحاسيس، ليتني أتذكّر من أنا ومن أين أتيت وكيف أتيت..أو ليتني أموت وأرتاح!

أدركت أنّ الأمر أكبر من آلام معدته، هناك آلام أعمق، جراح غائرة في صدورنا، تطفو على السطح عندما نضعف، هشاشة في نفوسنا يطرق عليها أي عارض نمرّ به بقسوة، حتى ولو كانت شوكة، فننهار ونضعف وقد نبكي بحرقة لسبب تافه، وكان قد بدأ يبكي، أشفقتُ عليه فقلت لأثبّته:

-حاول أن تتماسك يا سيّد «هِشام».

قال بصوت منكسر:

-لم أتوقف عن المحاولة...لكنني فقط تعبت!

ثُمّ انفجر صارخًا بشجن ووجهه غارق بالدموع:

-كيف لرجل في عمري أن يتحمل كلّ هذا، أشعر أنني أموت ببطء، بل ربما أنا ميِّت بالفعل، يبدو أن حياتي أفلت، سنوات عمري انتهت منذ لحظة وصولي هنا!

تأثّرت بكلماته، لاحظ تأثّري بمسح وجهه بكفّيه، قال وهو يهزّ رأسه مرارًا وكأنّه يؤكد لي:

-أنا بخير...أنا بخير.

وقام يحثّني على معاودة السير، قلت محاولًا إلهاءه عن الألم:

-ما رأيك أن أحكي لك عن أخي «خالد».

وافقني بهزّة رأس واهنة، فقلت:

-أخي لديه حضور أسير، نحن متطابقان للغاية، النّاس يخطئون بيننا كثيرًا، إلا أبي وأمّي، فهما يعرفاننا من نظرة واحدة، بل من همهماتنا وأنفاسنا...لو اقتربت من أمّي تعرفني دون أن تلتفت.

تأمّلت وجه السيّد «هشام»، فوجدته شاحب الوجه، راح يحثّني لأكمل الكلام فقال:

-وماذا أيضًا؟

قلت وقد فاض قلبي حنينًا لأخي:

- أخي «خالد» ناجح في دراسته، ولديه الكثير من الأصدقاء، ومحبوب من رفاقه.

سألني وكان جسده قد بدأ يرتجف:

-وأنت؟ هل لك أصدقاء كثيرون؟

-لا..لم أنجح في تكوين صداقات حقيقية حتّى الآن، يقولون إنني لا أجيد المزاح، وليس لديّ مهارات الحوار، كما أنني ارتجالي عديم الاكتراث في بعض الأحيان مما من شأنه أن يثير من يتعاملون معي، ربّما أخي «خالد» هو صديقي الوحيد!

-ألا تغار منه؟

-وكيف أغار وهو أنا، وأنا هو؟ لا أجد فارقًا بيني وبينه!

رمقني بنظرة خاطفة وقال:

-ألا تشعر بالحماس، أو بالرغبة في أن تكون ناجحًا في دراستك مثله؟ ألا تغبطه؟

-أشعر بالتأكيد، لكنني لا أحمل له غلًا لكونه الأفضل! فأنا أفتخر به! كما أنّه الجبل الذي أستند عليه في الشدائد.

رفع السيّد «هشام» عينيه بوهن وقال بابتسامة واهنة:

-«سَنَشُدّ عَضُدك بأخيك».

توقف عن الكلام هنيهة ورفع رأسه وكأنّه يقتنص فكرة ثُمّ قال:

-أظنّك أفضل منه في الكثير من الأشياء يا بنيّ، لكنّ ثقتك بنفسك قد اهتزّت لسبب ما!

قلت وقد كُنت قد بدأت آنس إليه:

-ظروف حياتنا وضعتنا تحت ضغوط كثيرة، خوف أبي المبالغ فيه علينا كان له أثر عظيم في نفسي، هأنذا هنا رغم كلّ المحاذير التي أحاطنا بها، وبتشجيع منه! و«الدواسر» يبحثون عنّي ليقتلوني.

-اعذره يا «حمزة»، أنت لا تعرف معنى أن يكون ابنك في خطر، وما أخبرتني به يمثّل تهديدًا متواصلًا لكم على الدوام، كما أنّ هناك غموضًا يلف الأمر!

باغته بسؤالي:

-هل لديك أبناء؟

امتعض وجهه وشردت عيناه، حتى أنني ندمت على طرحي لهذا السؤال، فقد رأيت ملامح السيّد «هشام» تتغيّر أمام عيني، وكأنّ الفصول الأربعة مرّت على وجهه فجأة! استدركت الأمر سريعًا وقلت وأنا أشير تجاه «الدّيسق»:

-هل لاحظت كيف يتبعنا «الدّيسق» بحذر؟

-نعم، يتنقل في هدوء، كلّ الطيور هنا أمرها عجيب!

-لا أدري لماذا لا يحدّثنا كالرّمادي!

ثُمّ تذكّرت أبي فقلت:

-أتدري يا سيّد «هشام»، لقد بدأت أعذر أبي بالفعل، مملكة البلاغة تبتلع الواحد منّاَ رغم أنفه، وليس بيدنا حيلة، ولا آبائنا.

عاودنا السير وابتلّت ملابسنا للغاية، كان السيّد «هشام» يتوقف عن الكلام من آن لآخر ويحبس أنفاسه ويتلوّى من الألم، قال بصوت واهن:

- لا بدّ أن تساعد نفسك على اجتياز العقبات التي تواجهها في حياتك، أنت شاب مهذّب وتبدو سليم الطويّة يا «حمزة»، ولكنك أسير!

-أسيرٌ لماذا؟

-أنت أسير الخوف من المجهول، والخوف من المخاطرة، والخوف من تكرار المحاولة، فلتكسر هذه الأغلال، تحرر من مخاوفك! ليس من العيب أن نخطئ، ولكنّ العيب أن يكون الوقوع في الخطأ هو نهاية محاولاتنا، ولكي نحاول لا بدّ أن نغامر!

-تكرار الفشل يوجعني مرّتين، الضرب على الجراح المفتوحة مرّة أخرى مؤلم يا سيّد «هِشام».

-وربّما تنجح فيبرأ جرحك!

-سأفعل يا سيّد «هشام»...سأفعل إن شاء الله.

هدأت نفسه قليلاً كما هدأ المطر، وكنّا نحثّ الخطى، قلت لألاطفه وأخفف عنه:

-شكرًا لك، فوجودك هنا على أرض المملكة هنا يعني لي الكثير، وقد طمأنني كثيرًا.

قال السيّد«هشام» متجاهلًا إطرائي بحياء:

-لا ريب أنّ صديقك النوبيّ وكذا «سَاهور» قلقان عليك.

-سنعود لهما معًا، فهما سيلزمان معبد مدينة «وَرَاشين» لعدّة أيّام كما أخبرتك.

-أتعلم أن مدينة «وَرَاشين» بُنيت على شكل دائري كما بُنيت بغداد.

-حقًّا؟

هزّ رأسه في هوان وضعف وقال:

-كانت بغداد قديمًا مزرعة للبغداديين يقال لها «المباركة»، وكانت لستين شخصًا فعوضهم الخليفة المنصور رحمه اللّه عوضًا عن أرضهم عندما استقر رأيه على اختيار المكان لتقام عليه مدينة بغداد.

بدأ حديث السيّد «هِشام» يعجبني، ما زلت أراه واسع الثّقافة، لا بدّ أنّه قرأ الكثير من الكتبِ، قلت مستزيدًا للحديث الشائق فسألته:

-وكيف بُنيت بغداد؟

رمش بعينيه وأردف قائلًا:

-عندما استشار الخليفة «المنصور» أصحابه قالوا له عن المكان:

«أنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك، إلا على جسر أو قنطرة، ولا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج إلى العبور، فدجلة والفرات خنادق لأمير المؤمنين.»

أنزل السيّد «هِشام» ذراعه من فوق كتفي بصعوبة وأمسك عودًا من حطب وبدأ يرسم دائرة كبيرة ووقف أمامها وهو يقبض على معدته وقال:

- خطت المدينة أولًا بالرماد على الأرض، وأقبل «المنصور» يدخل من كل باب ويمر في ممرّات المخطوطة التي خطها المهندسون

على الأرض مستخدمين الرماد، فأمر أن يحفر الأساس على ذلك الرسم. فأنشأ المدينة في عام مائة وخمسة وأربعين من الهجرة على شكل مدينة مدورة.

سألته متعجبًا:

-ولماذا مدوّرة وليست مربعة؟

قال وعلى فمه ابتسامة واهنة لكنّها واثقة وكنت أشعر أنه فرح لأنه يخبرني شيئًا لا أعرفه:

-لأن المدورة لها معان سوى المربعة، فالمربعة إذا كان الملك في وسطها كان بعضها أقرب إليه من بعض، أما المدور فالملك على مسافة متساوية من الجميع، لا أفضلية لأحدهم على الآخر.

أقبلت أعاونه لنكمل سيرنا، وأسندته مرّة أخرى، أردف مكملًا حديثه:

- بنى لها أربعة أبواب، وحفرت حولها الخنادق، وأقيم لها سوران السور الداخلي أطول من الخارجي.

قلت بإعجاب:

-كان أهل العراق أذكياء.

قال وقد بدأت أنفاسه تضعف:

-نعم...وما زالوا!

قال بعد صمت لوهلة:

-أتعلم يا «حمزة»؛ يقولون إنه بعدما رُسمت المدينة على الأرض بالرماد، وضعت فوق تلك الخطوط كرات من القطن، ثم صب عليها النفط وأشعلت فيها النيران، بغية إبراز شكلها بصورة واضحة أمام المنصور...فرأى النموذج أمامه مضيئًا ورائعًا ومشتعلًا.

قلت وقد تخيلتها أمامي:

-وقد تم وبنيت بغداد المباركة، أتمنى أن أزورها يومًا ما.

كزّ على أسنانه وقال وهو يئن من الألم:

- هيا لنصل قبل هبوط الظلام، فقد اشتد ألم رأسي.

بدأ الظلام يغلّف الأجواء، تعثّرت بشيء فسقطتُ على وجهي وأسقطت السيّد «هشام» معي، كان المطر قد أغرق المكان فلانت تربته، تفحّصت قدمي وقبل أن أعتدل قائمًا برزت جمجمة من تحت الأرض، أجفلت لوهلة ثُمّ مددت يدي ونقرتها بأصبعي ثُمّ سحبتها ببطء، كانت تجاويفها ممتلئة بالوحل، استدرت لأريها للسيّد «هِشام» فوجدته وقد انثنى على نفسه وقد بدأ يصرخ من شدّة الألم وأخرج ما في جوفه على الأرض، قال وهو يئن من الألم:

-لا أقدر..أظنني سأموت الآن.

ثُمّ فقد وعيه بين يديّ، تلفّتُ حولي فلم أجد من يساعدنا، قررت أن أحمله، أمسكت بذراعه فسمعت هسيسًا يصدر من الأرض وكأنّ هناك امرأة تستغيث وتناديني قائلة:

«خذني معك، خذني معك»

رأيت وميضًا يصدر من الجمجمة، رأيت طيف امرأة يتمثّل أمامي، ثُمّ اختفى فجأة، لم يكن لديّ وقت للتفكير، فالسيّد «هشام» في خطر، فدسستها في حقيبتي، وحملت السيّد «هشام» على كتفي وسرت أحثّ الخطى حثًا نحو البيمارِسْتَان. وسريعًا ما رأيت بقع الضوء تتراقص هنا وهناك فأدركت أنها شعلًا يستضيء بها أصحابها وكنت أسير على ضوء القمر. وصلنا إلى قافلة كانت قد وصلت للتو من المشرق، سألتهم أن يساعدوني فأسرعوا يحملونه معي إلى داخل البِيمارِسْتَان.

كانت البيوت حول البِيمارِسْتَان منخفضة ومتلاصقة والأزقّة ضيقة متعرّجة، والشوارع هادئة وخالية إلا من قلّة من المارة. فالجوّ ممطر والليل قد حلّ ببرودته.

أما «البِيمارِسْتَان» فهو بناءٌ بديع كانت الأشجار تحيط بها من كل جهة وأمامه نافورة على شكل أنابيب علوية يتساقط منها الماء بعذوبة في حوض فسيفسائي بديع ويصدر خريرًا لطيفًا.

بعد أن مررنا من بوابة البِيمارِسْتَان التي كانت تشبه القصر استوقفني شاب وعرفني بنفسه وأنّه أحد طلاب الطب والذين يقضون جلّ وقتهم في صحبة الأطباء المتخصصين ليكتسبوا منهم الخبرة ويستقوا العلم من أصوله، ودلّني على الطريق، مررنا بالقاعة الخارجية فاكتشفت أن هناك غرفة مخصصة للفحص، فبمجرد دخول المريض إن كان به مرضٌ خفيف يُكتب له العلاج ويّصرف من مكان مجاور خصصوه كصيدلية خاصّة بالبيمارِسْتَان، وأمّا إن كان المريض حالته تستوجب دخوله المكان كان يقيّد اسمه.

طلب مني الشاب أن أخلع ملابسي أنا و«هشام» الذي عاونته في خلع وارتداء ملابسه لأنه كان في غير وعيه وبدأت تراوده الهلاوس أثر ارتفاع درجة حرارته. دلّنا الشاب على غرفة منفصلة من غرف البِيمارِسْتَان لنسلّم ملابسنا لتوضع في مخزنٍ خاص، ثمّ أعطانا ملابس جديدة مجانية لمنع انتقال العدوى عن طريق الملابس، انزعجت عندما أصروا على عدم دخول حقيبة السيّد «هشام»، وكانت الخريطة و«الأَسْطُرلاب» بها، فوضعت كتابي أيضًا بالحقيبة وأحكمت إغلاقها، وانقبض قلبي وأنا أنصرف تاركًا الحقيبة وما فيها معهم..

دلفنا إلى رواق مسقوف بين الفناء والحجرات، على الجوانب ممرات تؤدي إلى غرف منفصلة، وصلنا أخيرًا إلى العنابر الخاصّة بالرجال.

نام «هشام» على سرير خاص به عليه ملاءات نظيفة و أدوات خاصة.

اقترب أحدُ الأطبّاء من «هشام» ووضع كفّه على جبهته وتفحّص عينيه، ثمّ فتح فمه واقترب منه ليشمّه، صمت لوهلة وكأنه يفكّر في شيء ما ثمّ أشار إلى مساعده الذي أسرع بإحضار ماء بارد وبدأ يصب الماء على رأسه، بينما أسرع آخر بعد أن أمره الطبيب بإحضار الدواء من القسم المخصص لتحضير خلطات مختلفة يستخدمونها لعلاج المرضى، وسريعًا ما عاد بقارورتين إحداهما تحتوي علًى سائل والأخرى تحتوي على مسحوق أخضر علمت أنهم سيقومون بإضافته للماء ثم غليه ليشربه.

رفعوا رأس «هشام» وسقوه الدواء السائل، وجلست وأنا أشعر بالعجز الشديد، كنت أتفحص نبضه من آن لآخر مما لفت نظر الطبيب تجاهي فسألني بعد أن ثبّت عينيه على وجهي:

-أنت أخوه..أليس كذلك؟

أجبت وأنا أمسح جبين السيّد «هشام»:

-بل نحن أصدقاء.

جلس الطبيب بجوار «هشام» من الجهة الأخرى واستأذن من الشاب الذي كان يمسح رأسه بخرقة مبللة بالماء البارد ليكمل هو المهمة وسألني باهتمام:

-من أين أنتما؟

أجبت محاولًا تغيير مسار حديثه حتى لا ينكشف أمرنا:

- وددت أن أصف لك النبات الذي أكل منه صديقي، إنّه...

قاطعني قائلًا:

-أعرفه جيدًا فرائحته كانت تفوح من فمه عندما فحصته وهو معروف لنا، لم تخبرني...من أي البلاد أنتما؟

أجبته قائلًا وأنا أتنقل بعينيّ بين وجهه ووجه «هشام» الذي بدأ يفيق:

- أنا «حمزة» وهذا أخي «هشام»، جئنا مع القافلة التي وصلت للتو.

لا أدري ما الذي دفعني لقول هذا، لكنني خفت أن يرتاب في أمرنا، وكان لكلماتي أثرٌ بليغٌ عليه فوقف ثمّ مدّ يده تجاهي وحيّاني قائلًا:

-ومرحبًا بكما، أُعرّفك بنفسي أنا «ثابت».

عندها فتح السيّد «هشام» عينيه ونظر تجاهي ثمّ أشار لـ«ثابت» وكأنه يريد أن يخبرني بشيءٍ عنه، حاولت أن أستفسر منه لكنه عاد لفقد وعيه، التفتُّ لأجد «ثابت» وهو يتحدث مع الشاب الآخر بلغة غريبة لم أسمعها من قبل!، ثمّ استدار وسألني باهتمام:

-هل دوّنت اسمك في سجلات بيت الحكمة؟

هززت رأسي نافيًا فقام بعد أن طمأنني على السيّد «هشام» وأخبرني أنّه سينام لساعات.

مرّت الليلة وأنا أُقاوم النعاس لتسقط رأسي على صدري من آن لآخر وكنت أنتبه فأسرع بلمس وجه السيّد «هشام» لأتحقق أن حرارته قد انخفضت، وكانت قد انخفضت بالفعل ولله الحمد.

كان الأطباء يمرون بانتظام ليطمئنوا عليه، تركوني معه بعد أن أوصاهم «ثابت» بي وأخبرهم بأننا غرباء. أصابني لقائي بهذا الشّاب بالاضطراب مرّة أخرى، ماذا لو كان أخي خالدًا! عدت لفقاعة الصمت التي ألوذ بها من آن لآخر، جلستُ أتفكّر في ما يحدث لي وكيف أتيت إلى هنا؟ خرجت أتجوّل قُرب البيمارِستان، رفعت رأسي فرأيت «الدّيسق» يقف ساكنًا فوق سقف بيت من البيوت القريبة، فأدركت أنّه يراقبنا من بعيد، هبّت نَسمات لطيفة فشعرت بالسكينة تتنزّل على صدري. مرّ بجواري شاب فعلق عطره في أنفي، وددت أن التفت إليه وأسأله دون مقدمات عن اسمه، لعلّه أخي «خالد»!

كانت عيناه مثبتتين على الأرض وهو يسير، بدا شارد الذّهن، تأمّلت وجهه القمحي اللون وعينيه الواسعتين ولحيته الخفيفة، لاحظت أثر النعمة عليه فثيابه أنيقة كما أن عطره الأخّاذ قد أعجبني. تبعته بالفعل لمسافة قصيرة وأنا أكاد أجنّ، كلّما رأيت شابًا ظننته أخي! ترددت هل أكمل سيري خلفه أم لا! وأخيرًا عُدت لغرفة السيّد «هشام» الذي كان لا يزال نائمًا وجلست بجواره بعد أن قبّلت رأسه فقد اشتقت إلى الحديث معه.

أشرقت الشّمس ورأسي تتأرجح بينما أغالب النعاس، تجوّلت في المكان وأنا أراقب الأروقة، روح طيبة يتعامل بها الأطباء مع مرضاهم دون تفرقة بين غني وفقير، ولا بين عربي وغير عربي، ولا بين أبيضَ وأسود، الكلّ سواسية هنا!

عرفت أن العلاج مجاني للجميع، والمرضى ينعمون بنفس المستوى من الخدمة أيّا كان مستواهم المادي، رأيت طعامهم ووجدتهم يقدمون لهم أطايب الطعام من لحوم الأغنام والأبقار والطيور.

مررت بجوار رجل يبدو أنه تعافى من مرضه ويستعد لمغادرة «البِيمارِسْتَان» كانوا يسلمونه ثيابًا جديدة ومبلغًا من المال يكفيه إلى أن يصبح قادرًا على العمل وحتى لا يضطر إلى العمل في فترة النقاهة فتحدث له انتكاسة. كُنت أعرج بسبب الجرح الصغير الذي أصبت به في قدمي عندما تعثّرت بالجمجمة الغريبة، تذكّرتها وقررت أن أعود للسيّد «هِشام» لعلّه أفاق لأخبره عنها، عندما عدت وجدته غارقًا في النوم والعرق يغطي جبهته ويبلل قميصه، فجلست بجواره وخلعت حذائي لأتفحّص جرح قدمي، دلف الطبيب «ثابت» ليطمئن على السيّد هشام»، وفور أن رأى جرح قدمي انتفض وشخصت عيناه وقال باندهاش:

-دماؤك حمراء! أنت محارب!!

وأسرع بغلق الستار الذي يحجبنا عن الآخرين، دنا منّي وتمعّن في الجرح وهو يقول:

-أخبرني معلّمي أنّه التقى بمحارب منذ سنوات طويلة، لزم هذا المحارب البِيمارِسْتَان لأسبوع كامل، حتى شفي واختفت أعراض مرضه.

ثُمّ رفع عينيه وغرسها في عينيّ وهو يقول:

-هل أنت بخير؟ هل تحتاج إلى المساعدة؟

-أنا بخير.

قال والشغف والفضول يطلّان من عينيه:

-سمعت عنكم الكثير، ووددت دومًا أن ألتقي بمحارب منكم، هل أدّيت مهمتك هنا؟ وهل بدأ كتابك في استرداد كلماته؟

-ليس بعد.

-لا بدّ أن ترى مُعلّمي السيّد «عطيّة اللّه» حالًا، هيًّا اتبعني، ولا تقلق على رفيقك، سيظل نائمًا لفترة طويلة.

سرت بجواره، وكان في غاية الحماس، التفت كثيرًا بينما كنّا نسير وكان يطالعني بإعجاب شديد، شعرت باحتقار نفسي، فأنا لم أفعل شيئًا يُذكر حتى الآن، أيّ محارب أنا!! وصلنا لصدر مبنى البِيمارِسْتَان حيث كانت تقبع غرفة كبير الأطباء، طرق «ثابت» الباب برفق ثلاث مرّات، وانتظرنا حتى أذن لنا كبير الأطباء فدخلنا غرفته، كان «عطيّة اللّه» رجلًا مسنًا ونحيفًا له وجه مستدير ولحية كثيفة غزاها الشيب، وعينان نابهتان وواسعتان سقط حاجباهما، صوته الرّخيم يشعرك بالوقار، بدا لي بسيطًا في مظهره، قال بذهولٍ فور أن أخبره «ثابت» أنني محارب:

-محارب!!

قال «ثابت»:

-نعم...ولقد أخبرته عن هذا المحارب الذي التقيتَ به منذ سنوات يا سيّدي.

قال وهو يجول في ملامحي بعينيه:

-«كمال»...ليتني أعرف أين هو الآن! كان محاربًا طاهر القلب، أحبّه الجميع هنا وخاصّة أنّه ابن «أبادول».

قُلت بحماس شديد:

-هو جدّي «كمال»، و«أبادول» جدّي الأكبر

انفرجت أساريره وسألني بشوق:

-وكيف هو؟

-بخير يا سيّدي.

-كان جدّك «كمال» صديقًا عزيزًا لي، أمضينا الكثير من الوقت معًا.

طُرق الباب فجأة، ودلف أحدهم، وقع في نفسي أنّه من المغاتير، وصدق ظنّي بالفعل، أدركت هذا من هيئته وثيابه وهذا المنديل الذي يتلثّم به، كان يحمل رسالة مختومة، خرج الشاب الذي أحضر الرّسالة سريعًا، فضّ كبير الأطبّاء الرّسالة، وبدأ يقرؤها، برقت عيناه وقال بانفعال وهو يُشير لـ«ثابت» ليُسرع بإغلاق باب الغرفة:

-لا بدّ أن ترحل الآن يا «حمزة» أنت والرّحالة الذي معك.

قُلت متعجبًا:

-لماذا؟

قال وهو يرفع كفّيه ويهزّهما بتوتّر:

-اخفض صوتك، هذه الرّسالة من الملكة «الحوراء» تقول إنّ هناك من يتبعك، وتقول لك عُد إلى مدينة «وَرَاشين» بسرعة.

-وماذا عن صديقي «هِشام»؟

قال الطبيب بثقة:

-اتركه هنا ولا تقلق.

-لكنني لن أتمكّن من الرّحيل بدونه.

التفت كبير الأطباء تجاه «ثابت» وسأله عن حالة السيّد «هِشام»، تحدّثا عن النبات الذي تسبب له في حالة التسمم، وعما تناوله من علاج، التفتا نحوي وقال كبير الأطباء بجديّة شديدة:

-خذه معك وسنعطيك الدّواء اللازم، وإن شئت مددناك بالخيل والمؤونة، ودليل ليدلّك على الطريق.

-لن أحتاج إلى هذا!!

تبادلا النظرات وسألني «ثابت» باندهاش:

-كيف هذا والطريق طويل؟

-أريد حقيبتي وحقيبة صديقي والملابس التي حُفظت قبل دخولنا البِيمارِسْتَان، سأرحل بطريقتي الخاصّة.

كان كبير الأطباء يدرك أنّ للمحاربين طرقهم في الانتقال بين جنبات مملكة البلاغة، هزّ رأسه بتفهّم، وأشار لـ«ثابت» الذي خرج في الحال ليحضر لي الحقيبتين والملابس، وبقيت مع كبير الأطبّاء الذي أخرج صندوقًا خشبيًا عتيقًا وفتحه برفق ليسحب منه خنجرًا مرصّعًا بالأحجار الكريمة له مقبض مذهّب لا يشبه خنجر «أبادول»، فهذا له نصل حلزوني مفرّغ وغريب الشّكل، حمله على كفيه وقدّمه لي بطريقة توحي بتقديره له، وقال بتأثّر:

-سقط هذا الخنجر من جدّك»كمال» وهو يفرّ ممن تبقى من ساحرات «ماذريون»، وكانت تلك لحظة فراقنا دون وداع يليق بمحبّتي له، كان يقضي عليهن به، هو الوحيد الذي استطاع هذا..هو فقط من فعلها!

-ولماذا هو فقط من فعلها؟

-لأنّ الخنجر وحده لا يكفي!

-كيف؟

-يحتاج لقبضة رجل يثق بقدرة اللّه، وليس بالخنجر نفسه! فما الخنجر إلّا أداة لقتالهم، ما هو إلّا قطعة من حديد! وكان هذا أعظم درس تعلّمته في حياتي، تعلّمت أن أثق بقدرة اللّه في شفاء المرضى بالدواء الذي أعطيه لهم، فما الدواء إلّا وسيله، والقدرة بيد اللّه وحده! «اليقين» يا بنيّ!

مددت يدي وتسلّمت منه الخنجر، كان مقبضه باردًا كقطعة من الجليد! قال كبير الأطباء وهو يسحب قارورة رفيعة ممتلئة بمسحوق رمادي اللون:

-ساحرات «ماذريون» يكرهون رائحة هذا المسحوق، انثر قليلًا منه في وجوههن وسيهربن في الحال.

-وما هذا؟

تردد كبير الأطباء قبل أن يُجيبني قائلًا:

-مادة حارقة ومخلوطة بعظام مطحونة!

أجفلت وسألته:

-وهل سألتقي بهن!

قال بثقة:

-سمعت ممن أثق بهم أنّ بعضهنّ استعدن قوتهن.

ثُمّ أردف كبير الأطباء بتأثّر:

-أقرئ جدّك «كمال» منّي السلام، وأخبره أن «عَطيّة اللّه» يشتاق إليك.

دلف «ثابت» إلى الغرفة وهو يحمل حقيبتي وحقيبة السيّد «هشام»، وتوجهنا نحن الثلاثة إلى حيث كان السيّد «هشام» نائمًا كما تركناه، أسدل «ثابت» الستار بعد أن تلفّت يمينًا ويسارًا ليراقب المكان، بدأنا نسكب الماء على رأسه ليفيق، لا بد أن يستيقظ ليتمكّن من الإمساك بالوشائج التي ستحملنا إلى هناك، استطعنا إفاقته ولكن بصعوبة، ولمّا فطن لكلماتي بدأ يعافر ليقف على قدميه، تذكّرت «الدّيسق»، كيف سأحضره الآن!

فور أن نطقت باسمه دلف من نافذة الغرفة كقذيفة المدفع ووقف على كتفي، أجفل كبير الأطباء، وانتفض «ثابت»، هززت رأسي لأطمئنهما، قال كبير الأطباء وهو يفرك كفيه في قلق:

-انتبه لنفسك، وثق بقدرة اللّه يا ولدي.

أخرجت الخريطة وبسطتها على الأرض، وبقي أن أضع «الأَسْطُرلاب» على مكان مدينة «وَرَاشين» بالخريطة، أشار السيّد «هشام» على بقعة ما، ووضعنا عليها الأسْطُرلاب، ثمّ وضعنا أصابعنا فوقه، ودارت الأرض بنا، واختفى الطبيبان من أمام عيني، واستحال المكان أبيض، وغشينا الضباب، ثُمّ ظهرت الوشائج، عاونت السيّد «هشام» ليتعلّق بواحدة منها، وتبعته و«الدّيسق» على كتفي، سقطنا على أطراف مدينة «وَرَاشين»، أمام واحدة من بواباتها الأربع، ورأينا سورها الأصغر الخارجي وقد برز من خلفه سورها الأكبر، تمامًا كما بُنيت مدينة بغداد من قبل! عاونت السيّد «هشام» ليستند على جذع شجرة كانت بجوار البوّابة العريضة التي كان التجار يدلفون من خلالها، وحلّق «الدّيسق» فوق رؤوسنا، أسند السيّد «هشام» رأسه على كتفي وأغمض عينيه، ثُمّ انزلق عن كتفي وتوسّد ذراعه واستغرق في النوم، تحسست خنجر جدّي «كمال» الذي أعطاه لي كبير الأطبّاء بالبيمارِسْتَان، ثُمّ أخرجت الجمجمة التي عثرتُ عليها، رحت أتأمّلها وأمرر أصابعي على كل نتوء فيها، ظهر طيف المرأة مرّة أخرى، هذه المرّة كانت صورتها أكثر وضوحًا، كانت تبدو مهمومة

وحزينة، أشارت إلى رأسها ثّم إلى فمها، وكأنّها تريد إخباري بشيء ما، ثُمّ تبخّرت في الهواء، أعدت الجمجمة لحقيبتي، وتفقّدت كتابي فلم أجد جملة واحدة فيه، بعد نحو ساعة استيقظ السيّد هشام»، كان أفضل حالاً من ذي قبل، سألته عن الجمجمة وأعطيتها له فقلّبها بين يديه ولم يعرف عن أمرها شيئًا، حذّرني من حملها ونصحني أن أتخلّص منها، لكنني لم أتمكن من طرحها، وقررت أن أستبقيها في حقيبتي لعلّني أتبيّن حقيقة تلك المرأة وما تعنيه تلك الجمجمة الغريبة. شعرنا بالجوع فقررنا دخول مدينة «وَرَاشين» لنبحث عن شيء نأكله، بدلنا ملابس البِيمارِسْتَان، وعدت أرتدي الملابس التي أعطاها لي «سَاهور»، وأخرج السيّد «هِشام» من حقيبته قميصًا رماديًا طويلاً وارتداه على بنطاله، ثُمّ أخرج عباءة كبيرة وعقدها على الحقيبة وحملها على كتفه وكأنّها بضاعة يحملها ليبيعها، وسألته ونحن في طريقنا عن الحورائيات، فبدأ يخبرني عنهن، ودورهن العظيم في مملكة البلاغة[١].

14

مدينة وَرَاشين

«حمزة».....

دلف السيّد «هشام» مدينة «وَرَاشين» وسار فيها وكأنّه يحفظ كلّ شبر على أرضها، كان هناك رجلٌ يحملق في وجهه ويتمعّن فيه وكأنّه يعرفه! حتى أنّه سار خلفنا، همس لي السيّد «هشام» ونحن نسير أمامه:

-لا تنس، نحن عطّاران.

(١)ما ذكر عن البِيمارِسْتَان ووصفه ونظام العلاج بداخله مذكور في الجزء الثاني من كتاب «ماذا قدّم المسلمون للعالم» للدكتور «راغب السرجاني»، مبحث المستشفيات في الحضارة الإسلامية، وللمزيد من المعلومات تنصح الكاتبة بقراءة الكتاب المذكور.

قلت مازحًا:

-عطّار يمضغ النباتات السّامة.

التفت نحوي وابتسم ثُمّ قال:

-أعرف الكثير من النباتات، لكنني لم أذكر اسم هذا النبّات إلّا ونحن واقفان أمام «الحوراء».

-ربّما كنت تعمل في مجال يختصّ بعلم النبات يا سيّد «هشام»، لعلّك ستستعيد ذاكرتك قريبًا، وستصل إلى الحقيقة، أتدري، ربّما أنت محارب وفقدت كتابك هنا!

كان يبدو شاحبًا ومتعبًا، قال وهو يربّت على كتفي:

-دعك منّي الآن، فقد أهلكتني الخواطر طويلًا ولم أصل لتفسير لما أنا عليه، سأظلّ هكذا عالقًا أتأرجح بين وشائج الحياة هنا.

قُلت متعجبًا من نظرات الرجل الذي يتبعنا:

-لا بدّ أنّه يتساءل من نحن، ألم تُخبرني أنّك قد زرت المدينة من قبل؟

-بلى زرتها وعملت بالعطارة، ولكن منذ فترة طويلة، ولا أرى الآن وجوه من كنت على تواصل معهم... دعنا نتحدّث إليه.

التفت السيّد «هشام» وسار نحو الرجل وحيّاه بإجلال، سأله إن كان يعرف حانوتًا لبيع الحبوب والعطارة لأنّه يحمل بعض الأعشاب النّادرة، ويودّ بيعها لهم، انفرجت أسارير الرّجل ورحّب بنا ودعانا لكي نتبعه، وسريعًا ما وصلنا إلى حانوته وجلسنا داخله وضيّفنا غلام له يعمل هناك، داهمت الرجل نوبة من السُعال، لزمنا الصّمت للحظات حتى انتهى من سعاله، ثُمّ سأله السيّد «هشام» بهدوء شديد:

-سمعنا عن قريتكم الكثير، وعن قصّة الشيخ «رَجّوان».

أطلق الرّجل تنهيدة ثُمّ قال:

- لقد عادوا جميعًا، عاد شعب «أُوركا»، بعد أن حدث ما حدث!

ظهرت علامات الفضول على وجه السيّد «هشام» وهو يسأله:

-وما الذي حدث؟

قال الرجل بصوت يشوبه الحزن:

-بعد أن رحل الشيخ «رَجْوان» من المدينة ومعه زوجته «أهاليل»[1]، وولداه «سَاهور» و«سنمّار»، كان ولداه في مرحلة البلوغ، وانتقلوا لقرية «أوركا» حيث تسكن عائلة زوجته «أهاليل» وعشيرتها من الحيتان التي تتحوّل إلى بشر، غضب أبوها الملك «قاموس» عندما رآها تدلف القرية ومعها زوجها «رَجْوان»[2]، فقد كان يأمل أن تتزوج ابنته من أهلها وعشيرتها لتتولّى وشقيقها حكم شعب «أوركا» يومًا ما، وبدأ يُعامل زوج ابنته «رَجْوان» معاملة سيئة، لكنّ شعب أوركا أحبّوا زوجها كما أحبّه أهل مدينة «وَرَاشين» من قبل، رقّ الملك لحفيديه الهجينين، وعانى كلاهما من معاملة النّاس، فهؤلاء في مدينة «وَرَاشين» يرونهما من أنصاف الحيتان، وشعب «أوركا» يرونهما من أنصاف البشر، وحدث هذا للجيل الأول الناشئ من تلك الزيجات التي تمّت بين الشعبين.

كان «سِنمّار» يعشق البحر، بعد بلوغه ظهرت على جلده علامات تُشبه الحراشف، فنصحته أمّه بأن يقفز في الماء ويحاول الغوص إلى عمق أكبر مما اعتاده وهو صغير، حبس أنفاسه وقفز في الماء وظلّ يهبط مخترقًا طبقاته وظلماته وبجواره أمّه ترافقه وتراقبه، واكتشف حينها أنّه يستطيع التغير والتحوّل كما تتحوّل أمه باختيارها من حالة لأخرى، أقام له جدّه احتفالًا كبيرًا، فقد أسعده هذا للغاية، وصار «سنمّار» محط أنظار وإعجاب المراهقات من بنات «أوركا»، بينما بدأ الجميع يعامل

---

(١) «أهاليل» الأمطار الشديدة.

(٢) «رَجْوان» الرّاجي والآمل.

«سَاهور» بشكل مختلف، وكأنّه ارتكب جرمًا لأنّه لم يتحوّل كشقيقه الأكبر «سنمّار»، فلازم والده، يسير معه، ويخرج للتأمّل معه، ويصلّي معه، ويسبّح معه، وكان شابًا طيب القلب ورقيق الطباع.

عانى «رَجّوان» من معاملة الملك «قاموس» القاسية له، وبدأت الخلافات تدور بين الملك وابنته، والتي كانت تذوب عشقًا في زوجها الحنون، مرت أعوام قِليلة، ومن آن لآخر كان كلّ من تزوج من أهلِ مدينة «وَرَاشين» من بنات «أوركا» يتم طرده فينزح وينضم إلى شعب «أوركا» بقريتهم والذي بدأ يتغيّر في معاملته لهم ويحتضنهم ويرحب بهم، حتى الملك «قاموس» نفسه بدأ يتقبّل الأمر، وأحب «رَجّوان» وقرّبه منه.

ويومًا ما، شاع في الأجواء أنّ الملك «عدنان» حاكم مدينة «وَرَاشين» مرض مرضًا شديدًا، وزعموا أنّه على فراش الموت، فرقّ «رَجّوان» لأخيه «عدنان» الذي كان يحبّه حبًا شديدًا، رغم الأفاعيل التي كان يفعلها به ليبعده عن الحكم، فقرر العودة لزيارته، وخرج رغم معارضة زوجته «أهاليل» والتي كانت تخشى عليه غدر أعدائه بمدينة «وَرَاشين»، فرافقه ابنه «سَاهور»، والذي كان يلازمه كظلّه، عندما دلفا إلى مدينة «وَرَاشين» استقبلهما أهل المدينة بالترحاب والتهليل وفرحوا بعودة الشيخ الذي يحبونه، وألهاهم هذا عن مرض الملك «عدنان»، مما أغضب زوجته غضبًا شديدًا. لم يُطل الشيخ «رَجّوان» البقاء في مدينة «وَرَاشين»، وبعد انتهائه من زيارة أخيه غادر المدينة مع ابنه «سَاهور».

خرج حرّاس الملك خلفهما بأمر من الملكة، وبعد أن ابتعدا عن المدينة أسروا «رَجّوان»، واستطاع «ساهور» الفرار منهم، واندس بين الأشجار، ثُمّ أسرع يطلب النّجدة من أمّه وأهلها فرفض جدّه الملك «قاموس»، ومنع الشعب من الخروج، وأخبرهم أنّ هذا سيتسبب في اشتعال العداوة بينهم وبين أهل مدينة «وَرَاشين»، فغضبت «أهاليل» وحاولت الخروج مع ابنها لكنّ الملك أمر حرّاسه بمنعها، فعاد «ساهور» لأبيه وحيدًا، واختبأ

خلف شجرة ليراقب أباه لعلّه ينقذه، فوجد الحرّاس يلتفّون حول جذع شجرة بلّوط كانوا قد قيّدوا «رَجْوان» بها، وجعلوه مرمى لسهامهم فخرج «ساهور» محاولًا إنقاذ والده، فأسروه هو الآخر ورشقوا والده بالسّهام أمام عينيه تباعًا فسالت دماؤه حتى وصلت لقدمي «ساهور»، ولفظ أبوه أنفاسه الأخيرة وعيناه عالقتان بعيني ابنه، والذّي صرخ صرخة ارتجت لها الأجواء فور أن لامست دماء أبيه الدافئة أديم قدميه، وفقد بصره في تلك اللحظة وهو يبكي بحرقةٍ كما لم يبك من قبل.

كان السيّد «هشام» يبدو في غاية الانزعاج وهو ينصت لما يرويه الرجل لنا، فقال بتأثّر شديد:

-يا للمسكين.

أكمل الرجل قائلًا:

-غضبت «أهاليل» فقد ذبح فؤادها لفراق زوجها، كما غضب «سنمّار» لقتل أبيه، قرر الكثيرون ممن تزوجوا من الأوركا أن يثوروا على الملك «عدنان»، فعدد أبنائهم من الهجناء يزيد، والكلّ يخشى على ذريته من غدر الملك «عدنان» وحرّاسه، وكانت «أهاليل» في أوج غضبها وقد جمعت حولها الكثير من من الشعبين، كانت تنتقم من الصيّادين، وكلّ من يؤيد الملك «عدنان» لو اقترب أحد منهم من البحر، فأصبح الصيد محرّما على أهل «وَرَاشين» خوفًا منها، لم يعد «ساهور» و«سنمّار» للمدينة هنا، ولا نعرف عن أخبارهم منذ الحادثة.

ران علينا صمت مهيب، وبدا لي أنّ الرّجل لا يعرف عن وصول «سَاهور» للمعبد الكبير، انصرفنا بعد أن تم الاتفاق بين السيّد «هشام» والرجل على العمل بالعطارة معًا، خرجنا من دكّان العطارة وسرنا نحو المعبد، كان السيّد «هشام» في غاية الحزن، ولم ينبس ببنت شفة طوال الطريق، يبدو أنّه كان يحب الشيخ «رَجْوان» كثيرًا.

وصلنا إلى المعبد سريعًا، كان «هُرهُور» أوّل من استقبلنا، لقد تحسّن كثيرًا كما يبدو بعد غسل جراح ظهره بماء الينابيع، التقينا بـ«سَاهور» الذي وثب في مكانه فور أن سمع صوتي وأنا ألقي عليهم السّلام، بدا لي قلقًا للغاية، وضع يده على صدري مرّة أخرى كما فعل أوّل مرّة التقيت فيها به..وسألني عن سبب غيابي الليلة الماضية..

يا إلهي!! إنّه يفعل كما كان يفعل أخي «خالد» عندما كان يشعر بالقلق ونحن صغار!! يضع يده على صدري ليطمئن! فهل هو أخي؟

وقفت أتأمّله في حيرة، ونقلت نظراتي بين وجهه ووجه «مُولي»، فازدادت حيرتي، لا بدّ أن أراقبهما، لعلّني أصل لأخي وألازمه، رحّب سادن المعبد بالسيّد «هشام»، كان يعرفه من قبل، عانقنا «مُولي» بودّ وترحاب وكان لهذا أثرَ طيب في نفسي، فقد أشعرني هذا أنّه أخي... وربّما هو بالفعل!!

توجه السيّد «هشام» نحو «ساهور» والتقط كفّه بين يديه وأبدى حزنه الشديد لوفاة أبيهِ الشيخ «رجْوان»، تغيّرت ملامح «ساهور» في الحال، بدا حزينًا ومنكسرًا، انعزل عنّا بعد قليل واتجه لأحد أركان المعبد وبدأ يصلّي، وأطال السجود، استسلم السيّد «هشام» للنوم، جلس «هُرهُور» بجوار «سَاهور» وهو يصلّي، كان قد بدأ يتعلّق به ويتبعه كظلّه، علمت من «مُولي» أنّ سادن المعبد كلّف رجلًا يثق به بالبحث بشكل سرّي عن المرأة التي ساعدت أمّ «هُرهُور» منذ سنوات عندما داهتمها آلام المخاض وهي تهرب من حرّاس القصر، لعلّها تُظهر النصف الآخر من القلادة، وتثبت أنّ «هُرهُور» هو حفيد الملك «عدنان» بالفعل، التفتُّ نحو «سَاهور» فوجدته ما زال ساجدًا! يبدو أنّ لديه الكثير من الأسرار يبوح بها في سجوده، كُنت أنتظره لأحدثه، لكنني كنت متعبًا للغاية، غلبني النّعاس وأنا أدعو ربّي أن يدلّني على أخي «خالد».

«مَرمَر»

اسمي «مَرمَر» وهذه أُمّي أمّا أبي فقد مات، يقولون إنّ حاكم مدينة «وَرَاشين» ألقى بأبي في بئر «دِرواس»[1] وكنت أبلغ من العمر عامين فقط، قتلوا أبي لأنّه أغضب زوجة الحاكم، كان أبي يعمل مهمندار[2] في قصر الحاكم، وكان هو المسئول عن خدمة ضيوف القصر، نسيت أن أُخبرك أنّ أبي من أصل فارسي، زار المدينة بقصد التجارة، وفضّل البقاء فيها ثُمّ تزوج من امرأة من أهل مدينة «وَرَاشين» وعاش هنا، وعندما أخبرهم بقصر الحاكم أنّ معنى وظيفته بالفارسية «مهمندار» صار هذا هو اسمه الذي ينادونه به، حتى أنّهم نسوا اسمه الحقيقي. أخطأ أبي في تنظيم حفل أعدّته زوجة الحاكم لكبار المدينة وشيوخها ولم يعجبهم الطعام، قال البعض أنّه كان ذا مذاق حامض، وبصق الملك «عدنان» في وجه أبي وهو مقيّد أمامه وسكب فوق رأسه قدر الطعام الفاسد، فقد كان الطقس حارًا مما تسبب في سرعة فساده ولم ينتبه الطباخون لهذا، وكذا لم ينتبه أبي ويتذوّق الطعام قبل أن يقدمه لهم، مما تسبب في مرض زوجة الحاكم مرضًا شديدًا، فقرر أن ينتقم منه، فأصدر قرارًا بمعاقبة أبي وألقاه في البئر ليفترسه وحش «دِرواس» أمام عيني أمي، كُنت صغيرة، وكانت حينها تحملني وتبكي...

إنّه حاكم ظالم، أهل المدينة يخافون بطشه الشديد، لا يجرؤ أحد على مواجهته، فمن يعترض سيلقى في البئر العميق الذي تفوح منه رائحة نتنة، ولا يتوقف زئير وحشه أبدًا، وهذا يخيفني للغاية...

---

(١) دِرواس: اسم من أسماء الأسد، ويطلق أيضًا اللقب على بعض كلاب الحراسة السمينة.

(٢) مهمندار: اسم أسرة فارسيةللمشرف على إطعام ضيوف الأمراء، وهو مركب من «مِهمان» وتعني ضيف، و«دار» لاحقة مكانية.

إن هذا ما قالته «مَرمَر» لـ«هرهور» عندما التقت به في معبد مدينة «وَرَاشين» قبل قليل من عودة «حمزة» مع السيِّد «هِشام»، كانت تشعر بالهوان والضعف، ولا تقدر على السير، فهي متعبة للغاية، كما أنها حزينة لأنّها ليست جميلة، نعم، فقد نظرتْ إلى وجهها في المرآة عندما كانت أمّها تعدّل من ثيابها قبل أن تحملها وتخرج بها من الدّار، كان الجميع يطالعونها باستغراب شديد، لديها عينان غائرتان يعلوهما حاجبان مقوّسان، وأنف رفيع مدبب، وفم عريض أسنانه دقيقة ومتباعدة، وهي نحيفة للغاية، لهذا لا تُعجب النّاس، تحيّرها نظرات الشفقة التي تلاحقها من الكبار، ونظرات الخوف من الصغار، تكره الاجتماع مع الفتيات من عمرها في مكان واحد، فالكبار يضحكون في وجوه الجميلات فقط، ويعطون الحلوى لصاحبات الشعر الأملس النّاعم فقط، وهذا يُحزنها كثيرًا. أخبرتها أمّها أنّها من «الحورائيات»، وأنّ هناك فتيات أُخريات تلدهن النساء هنا وهناك مثلها، نفس الهيئة ونفس الملامح، وأنّها إن بقيت هنا معهم ستموت لأنّها ستبلغ السادسة من عُمرها خلال الشهر القادم، والمناخ هنا لا يناسبها ولهذا بدأت تضعُف، ولا بدّ من ذهابها لغابة «البَيْلَسَان»، وهناك ستعيش في سلام. أحزنها هذا الكلام الذي كررته أمّها كثيرًا منذ أن بلغَت الخامسة من عمرها، فلقد رأت منذ عام فتاة تشبهها، خرج أبوها من المدينة وهو يحملها بعد أن أصابتها الحمّى الشديدة، وكانت مريضة للغاية، وصعد بها هذا الجبل الأيهم الذي يسمّى «أمانوس»، يقولون إنّه حملها إلى هناك، إلى غابة البَيْلَسَان حيث سترعاها كبرى الحورائيات وستعيش في قصر البَيْلَسَان معهن، لكنّ أباها لم يعد حتّى الآن.

كان «هُرهُور» لطيفًا معها للغاية، لم يخف من ملامحها كما يفعل الغلمان الآخرون، وعندما رأى أمّها تحملها وهي تدلف المعبد وتجلسها على الأرض لكي تتمكن من محادثة سادِن المعبد، أسرع وأحضر لها كوبًا من الماء، وكانت تشعر بالعطش الشديد، وعندما سألها عن اسمها

وأخبرته أنّ اسمها «مَرمَر» ابنة «المهمندار»، سألها عن معنى كلمة «المهمندار»، فبدأت تحكي له قصّتها، وأخبرها هو أيضًا عن «كُوكُون» وأمّه، كما أخبرها أنّ ماء ينابيع «وَرَاشين» يعالج الجروح، وربّما لو شربت منه سيعالجها، فقررت أن تُخبر أمّها عن هذا لعلّها تحملها إلى هناك، انتهت أمّها من حديثها مع السّادِن ومع شّاب لطيف سمعتهم ينادونه «سَاهور»، والذي اقترب منها ليحييها، كان لطيفًا للغاية، مسح على رأسها وأخبرها أنّها فتاة جميلة...جميلة جدًا، فسرّها ما سمعته منه وابتسمت، لكنّ ابتسامتها تلاشت عندما أدركت أنّه ضرير، فهو لا يراها، ولا يرى ملامحها، ولو رآها ما وصفها بالجمال، أرادت أن تُصدّقه لكنها لم تقدر.

حمِلتها أمّها وخرجت بها من المعبد وكانت «مَرمَر» تسند رأسها على كتف أُمّها باستسلام وضعف، انتفضت «مَرمَر» فجأة وارتج قلبها في صدرها عندما مرّ «حمزة» بجوارهما، حدّقت في وجهه! هي تعرف تلك الملامح جيدًا!، تظنّ أنّها رأت وجهه في أحلامها كثيرًا، كان يدلف إلى المعبد مع السيّد «هِشام»، ودت أن تصرخ لتخبره أنّها رأته في الحلم، رفعت رأسها بصعوبة، لكنّها كانت متعبة فلم تتمكن من فتح فمها، شعرت بآلام شديدة تجتاح جسدها الضئيل، فسالت دمعة من عينها على كتف أمّها التي قالت بصوت مرتعش:

-لا بأس حبيبتي، لا تبكي، أخبرني سّادِن المعبد أنّه سيبحث لي عن دليل لأرافقك وسأحملك لغابة البَيْلَسَان، وستكونين في أمان هناك.

ازداد بكاؤها، فهي لا تعرف ما هي غابة البَيْلَسَان، وهي خائفة للغاية ولا تقوى على الكلام، ربتت أمّها على ظهرها وقالت:

-رحم الله أباك، لو كان على قيد الحياة لحملك بنفسه، سنعود للمعبد غدًا إن شاء الله، لعلّ السّادِن يساعدنا، لن أتركك للموت، سأحملك

يا قرّة عيني إلى هناك، ولو وافقت كبيرة الحورائيات هناك على بقائي معكن سأبقى هناك وأخدمكن.

أغمضت «مَرمَر» عينيها ودعت الله ألّا يفرّق بينها وبين أُمّها، وغلبها النعاس.

15
«مُونارش»

بثياب حنطية اللون تختلف تمامًا عن ثيابها البرتقالية المزركشة التي اعتادت التجوال بها كانت تتسلل في الصباح الباكر، لم تخبر«السيّدة الملوّنة» أنّها ستخرج من غابة البَيْلَسَان، كانت على يقين من أنّها ستمنعها، كما أنّها أرادت أن تفعلها بإرادتها، فهي ترى نفسها حرّة طالما لم تؤذِ أحدًا، كانت تقف من آن لآخر خلف جذوع الأشجار لتلتقط أنفاسها وتراقب الطريق، لم تستيقظ رفيقاتها بالجناح في قصر البَيْلَسَان بعد، فقد غرقن في نوم عميق بعد ليلة عامرة بالحكايا عن همس الرياح لهنّ والذي لا يتوقف، قصة وأخرى تتردد هنا وهناك، والفضول ينهش عقلها وقلبها، تُريد أن ترى العوالم الأخرى خارج غابة «البَيْلَسَان»، تتوق للقاء أهلها وسؤالهم عن السبب الحقيقي لتخليهم عنها، لا تصدّق حتى الآن أنّهم لم يأتوا لزيارتها ولو لمرّة واحدة في العام! لماذا يلقون بهن في أحضان الغابة ويهرولون ولا يعودون مرّة أخرى!

كان لديها رغبة شديدة للقاء الناس والاحتكاك بهم لتتعلّم شيئًا جديدًا عن تلك الحياة التي لا تعرف عنها سوى همسات الرّياح.

لقد تغيّرت «مُونارش» فجأة! صارت فتاة أخرى غير تلك التي نشأت بقصر البَيْلَسَان، هذه الفتاة تتوق للحبّ، للحياة التي يعيشها المجهولون

خارج حدود عالمها المحاصر هي وباقي الحورائيات، لم تكن هكذا من ذي قبل، لا تجد تفسيرًا لما آل إليه حالها في الفترة الأخيرة، ربّما هو نوع من النضوج الفكري والجسدي...هي لا تدري. كانت ترتجف، فالرياح باردة، والمطر يرسل رذاذه الخفيف ليداعب أوراق الشجر.كادت تخرج من الغابة لولا فيلق[1] حارسات حدود الغابة الذي ظهر أمامها فجأة، فاستحال المكان أزرق بلون ثيابهن وهن مدججات بالحراب والسيوف، رفعن أيديهن في آن واحد ليصدّنها عن الخروج، وشكلن بدروعهن حاجزًا وحلّقن حولها ووجهن أسنّة الحراب نحوها، حبست أنفاسها ووقفت تنقل نظراتها بين وجوههن، اقتحمت إحداهن الدائرة واقتربت بقامتها الطويلة وعلى ظهرها قوسها وجعبة السّهام وقد برزت منها أسنّة السهام وهي تبرق كاللجين، وقفت قبالتها وسألتها:

-إلى أين يا صغيرتي؟

ارتعدت فرائصها وسألتها بصوت يرتجف:

-من أنتِ؟

-أنا «الآنسة الزرقاء» قائدة حارسات الحدود، أخبريني ما اسمك؟ ولماذا تتسللين في تلك الساعة بهذه الطريقة؟

كانت تلك هي المرّة الأولى التي تلتقي فيها «مُونارش» بـ«الآنسة الزرقاء» التي سمعت عنها الكثير، لطالما أعجبت بقوتها ومهارتها في القتال التي سمعت عنها من «السيّدة الملوّنة»، فقد أخبرتهن أنّها كانت سببًا في حماية غابة «البَيْلَسَان» من الكثير من الأخطار هي وفيلق الحورائيات اللاتي تطوعن للحراسة وتدرّبن على فنون القتال معها، ازدردت «مُونارش» ريقها وقالت بخفوت:

-أنا «مُونارش»، و...وددت أن أخرج من الغابة لكي....

---

(١) فيلق: الكتيبة من الجيش.

قاطعتها «الآنسة الزرقاء» بحدة وقالت:

-كيف هذا وأنت تعلمين أنك لن تتحملي ظروف الحياة خارج غابتنا، وستعرّضين حياتك للخطر، وربّما تموتين خلال أيّام!

-سأجرّب، أليس هذا حقي!!

غضنت «الآنسة الزرقاء» حاجبيها وقالت بحزم:

-لن تخرجي، وستعودين إلى قصر البَيْلَسَان الآن.

عقدت «مُونارش» ذراعيها ووقفت أمامها وطالعتها بعينيها الواثقتين وقالت:

-لن أعود للقصر! ليس لكنّ الحق في محاصرتنا هكذا وحبسنا في الغابة، وكأننا نعيش تحت الإقامة الجبرية لارتكابنا جرمًا ما!

أغمضت «الآنسة الزرقاء» عينيها وتنفّست بعمق قبل أن تجيبها:

-خلقنا لمهمة خاصة يا صغيرتي، نحن بنات الأفكار يا عزيزتي، حلقات الوصل بين الواقع الذي يحدث هنا وخيال الكتّاب في عوالم أخرى، كيف سيعرف الآخرون عنّا إن توقف الهمس، وتوقف الكتاب عن الكتابة!!

هدرت «مُونارش» غاضبة وقالت:

-فلنعش حياتنا الطبيعية بينما نقوم بمهمتنا تلك ونستمتع بالحياة ونحصل على حقوقنا بالكامل، سئمت أن أكون بنتًا لأفكار كاتب ما لا يعرف عن معاناتي ولا يعرف حتى اسمي!

هزّت «الآنسة الزرقاء» كتفيها وقالت:

-نحن بالفعل نستمتع بحياتنا هنا، ونعيش في سلام.

زفرت «مُونارش» وقالت بحنق:

-عندما انتقلت إلى هنا كانت معلّمتي تجبرني أن أمضغ «المرّ» الذي يسيل من جذوع الأشجار واستمرّت على هذا لشهر كامل قبل أن تذيقني رحيق الأزهار، لأذوق المرارة أولًا فيحلو لي بعدها مذاق الرحيق الذي اعتدت الآن شربه كلّ يوم، فصار حلوًا في فمي لأنني ذقت قبله المرّ! لكنني على يقين أنّ هناك ما هو أعذب من رحيق هذه الأزهار، في الحقيقة...لقد مللت من رتابة الحياة هنا، ودنيا الله واسعة، والخيرات كثيرة، دعونا نجرّب بأنفسنا ونرى قبح الحياة خارج غابة البَيْلَسَان لنستشعر حلاوتها هنا.

-لن يروق لك عالم الوحوش هذا، الحياة قبيحة هناك...قبيحة للغاية يا ابنتي، إنّهم يتصارعون على كلّ شيء.

-لن أنافسهم!

-نحن هنا سواسية، كلّنا على مقام واحد، أمّا هناك فيصنفون بعضهم البعض، طبقًا للعرق، واللون، والجنس، والعشيرة، والمال، والجمال...وغيرها من أمور لا دخل للإنسان فيها!

قالت «مُونارش» بابتسامة لطيفة:

-مالي وللتصنيف! سأحبّ الجميع.

-لن تتحملي أحكام البشر، سيرونك...

-قبيحة، أعرف، أخبرتني السيّدة الملوّنة بهذا.

غضّنت «الآنسة الزرقاء» حاجبيها وغرست عينيها في عيني الفتاة وقالت بثقة:

-لسنا قبيحات! نحن جميلات لأننا من صنع الله الذي أتقن كلّ شيء خلقه، ثقي بهذا!!

ثُمّ أشاحت بوجهها وأضافت:

- لسنا جميلات بمقاييس عيون الآخرين فقط، هؤلاء أعمياء البصيرة، لا يرون بقلوبهم.

هزّت «مُونارش» رأسها وقالت:

-أعلم هذا يقينًا ولهذا أريد أن أجرّب الخروج من غابة البَيْلَسَان، لعلّني أغيّر شيئًا ما بتجربتي.

-لا نحتاج للخروج عن إطار فطرتنا وطبيعتنا الخاصّة وما ألفناه هنا لإرضاء الآخرين، فلتذهب آراء الآخرين للجحيم!

-لن أخرج عن المألوف، أنا بشر، وكذا أنتِ وكل الحورائيات هنا، لنا حقّ الحياة، أريد أن..أن..أعيش لنفسي.

-لكننا نختلف عن البشر في التكوين الجسماني، وليس لدينا تلك المشاعر القبيحة التي يتعاملون بها هنا وهناك، تلك الأحاسيس الغريبة، الكره، والأنانية، والطمع، الظلم، والغل والعداوة، وتنقل الريّاح لنا أخبارها ونهمس بها إلى الكُتاب!

عادت «مُونارش» لابتسامتها وقالت:

-وهناك الحبّ، والإيثار، والقناعة، والعدل، والتسامح، بل وسمعنا عن التضحية والعطاء...أليس كذلك؟

زفرت «الآنسة الزرقاء» بحنق وقالت:

-نحن مخلوقات نظامية لها مهمّة محددة، ليس لدينا تلك المشاعر، غريب أمرك! لا أدري كيف تتحدّثين بتلك الطريقة!

غضبت «مُونارش» وقالت:

-فضلًا آنستي تحدّثي عن نفسك، إن كنت لا تملكين تلك المشاعر فغيرك يملكها، لدينا احتياج فطري، ثُمّ...أنا...أنا أشعر أنني أحتاج لأهلي وإخوتي وسأبحث عنهم..أنا بشر ولي حقوق!

-ليس هذا كلامي وحدي، هذا واقع نعيشه كلّنا، أنت حالة فريدة يا «مُونارش» صدقيني نحن لا نحتاج للآخرين، وجودنا هنا في «غابة البَيْلَسَان» صحي للغاية، كما أننا ندعم بعضنا البعض ونعمل دومًا في فريق.

رفعت «مُونارش» حاجبيها وقالت بنبرة تحدٍ أثارت غضب القائدة:

-بل هناك غيري...لقد أخبرتني «السيّدة الملونة» عن «الحوراء» وما حدث لها.

فغرت «الآنسة الزرقاء» فاها وقالت:

-ماذا!!

ثُمّ بدا عليها الارتباك الشديد، وتلفّتت حولها تراقب وجوه الحارسات، وأضافت بصوت يشوبه القلق:

- هل أخبرتك بكلّ شيء عن الملكة «الحوراء» ؟ كلّ شيء؟

-نعم أخبرتني..

-ولكن هذا حدث منذ سنين طويلة، ولن أسمح لك بتعريض نفسك للخطر، فأنا مسئولة عنك هنا.

-كيف سنعرف عن الحياة ونحن لا نرى سوى أشجار البَيْلَسَان؟ لماذا لا ننخرط في الحياة، ونتعامل مع الآخرين؟ أين أهالينا ولماذا لا يقومون بزيارتنا هنا؟ بعض البشر يمرّون بالغابة من آن لآخر، لماذا لا يمرّون علينا مثلهم؟

انتفضت «الآنسة الزرقاء» وقالت:

-من المستحيل أن يمرّ أحدهم من الغابة هنا!

-بل يمرّون، رأيت رجلًا يحمل حقيبة على ظهره أكثر من مرّة، كُنت أختبئ وأراقبه وهو يتفحّص خريطة ما ثُمّ يدير شيئًا في يده!

ثارت «الآنسة الزرقاء» وبدا عليها الانزعاج الشديد وسألتها:

-متى حدث هذا؟ وأين؟

هزّت «مُونارش» كتفيها باستخفاف وقالت:

-وكيف لا تعرفن بدخوله وأنتن الحارسات؟ يبدو أنّكن لا تقمن بحراسة الحدود كما ينبغي!!

استشاطت «الآنسة الزرقاء» غضبًا وقالت:

-يا لكِ من فتاة عنيدة!

ثُمّ قبضت على ذراع «مُونارش» بقوّة وجرّتها خلفها نحو شجرة قريبة وأصدرت أوامرها للحارسات لكي يقيّدنها لحين البت في أمرها بعد استشارة «السيّدة الملوّنة»، كانت «مُونارش» غاضبة للغاية، ظلّت تجذب سلاسل القيود المثبتة في الأرض حتى أدمت قدميها، وعندما أرهقت جلست القرفصاء وأحاطت ساقيها بذراعيها، وندّت من عينيها دمعة تشي بالكثير. ومرّت ساعة ثقيلة عليها وهي ساكنة كالصنم، عاملتها الحارسات ببرود شديد، من بعيد لاح لها طيف ملوّن أدركت فورًا أنّها ثياب «السيّدة الملوّنة»، كانت تسير مع «الآنسة الزرقاء» وعلى وجهيهما علامات القلق، فور أن وصلتا إلى المكان أمرت «الآنسة الزّرقاء» الحارسات بالانصراف، فانصرفن في خطوات سريعة وبنظام شديد، مدّت «السيّدة الملوّنة» يدها لـ«مُونارش» وساعدتها على النهوض، ثُمّ قالت:

-أخبرتني «الآنسة الزّرقاء» أنّك كنت تتسللين، هل حقًا تودّين الخروج وحدك من الغابة؟

-نعم أرجوك يا سيّدتي أن تسمحي لي.

اقتربت وهمست لها:

-ما تطلبينه غريب، ولو سمحنا لك بالخروج سنخرق توازن مملكة البلاغة هنا، وهذا سيسبب لنا الكثير من المشاكل.

-ألست حرّة؟

-بلى...حرّة في موطنك.

-هذا ليس موطني، ولدت بالخارج، هناك...حيث أمّي وأبي!

-يا ابنتي، هناك ما لا يحسن قوله لك، هذا أمر عصي على الشرح، عصي على الفهم.

-هذا حقّي وأنا أطالب به!

-لن تكون الأمور بالخارج كما تتخيلينها.

-سأجرّب.

-لم تؤدي مهمّتك بعد!

-سأقوم بها لاحقًا بعد عودتي..همس الرّياح لا يتوقف! فلينتظر هذا الكاتب الذي أعبث في رأسه!

-كم أنتِ عنيدة!!

استدارت «السيّدة الملوّنة» وسارت بخطوات غاضبة نحو القصر وهي تقول للأميرة الزرقاء:

-افعلي ما اتفقنا عليه.

حلّت قائدة حارسات الحدود القيد من ساق «مُونارش»، وصحبتها إلى زنزانة في قاموس التأديب بجناح حارسات الحدود بعيدًا عن قصر «البَيْلَسَان»، أدخلتها بهدوء وأغلقت الباب بإحكام، طالعتها بنظرة جامدة وقالت لها:

-حاولي أن تهدئي وراجعي أفكارك يا ابنتي.

بكت «مُونارش»، لم تتخيّل أنّ هذا سيحدث لها، انصرفت القائدة وتركتها وحيدة، ظلّت «مُونارش» تبكي حتى غابت الشّمس، فتكوّرت على نفسها وغلبها النوم.



هس..هس..

هذا ما سمعته «مُونارش» قبل أن تفتح عينيها لتجد أمامها عينين واسعتين تحملقان في وجهها وسط الظلام، كادت تصرخ لولا يد الفتاة التي غطّت فمها وهي تقول:

-لا تصرخي أرجوكِ، أنا «مُورفو»، من حارسات الحدود ثُمّ أرخت الفتاة يدها وتركت «مُونارش» التي همست تسألها في الحال:

-ماذا تُريدين؟

-سأساعدك على الهرب.

-حقا؟

-نعم، ولكن على شرط.

-وما هو؟

-سأهرب معك ولن نفترق أبدًا مهما كانت الظروف التي سنتعرّض لها بالخارج.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه «مُونارش»، فهي لن تخرج من غابة البَيْلَسَان فحسب، بل سيكون معها رفيقة تؤنسها، قالت بثقة:

-كُنت على يقين أنّ هذا ليس حلمي وحدي، لا شكّ أنّ لديك نفس الشغف والشوق للمجهول..أليس كذلك؟

ترددت «مُورفو» قبل أن تجيبها، لكنّها قالت بصوت رتيب وعينين منطفئتين:

-بلى يا عزيزتي، لكن قبل أنّ نخرج لابدّ أن تتخلّصي من ثيابك البُرتقالية، وارتدي تلك الثّياب الزرقاء.

ثُمّ أمدّتها بثياب مماثلة للزيّ الرّسمي لحارسات الحدود، بنطال من الجلد السميك وقميص طويل فضفاض مفتوح من الجانبين لتسهل به الحركة، وحذاء طويل نعله مزود من الأمام بقطعة من الحديد إن لزم القتال، ارتدت «مُونارش» الثياب الزّرقاء، وإذا بـ«مُورفو» تمدّها ببعض الأسلحة، فدفعت يدها بانزعاج وقالت:

-لا..لا...لن أحمل هذا الخنجر، ولا هذا السيف، ولن أحتاج للقوس والسّهام.

-اسمعي...إن أردتِ الخروج من غابة البَيْلَسَان ستحملين الأسلحة، وإلّا سينكشف أمرَك، فلا توجد حارسة هنا بلا أسلحة! كلّنا نحملها! كما أننا لا ندري ما الذي سنلقاه خارج حدود الغابة..

حملت «مُونارش» الأسلحة على مضض، وأتمّت ارتداء ملابسها ثُمّ التفتت نحو «مُورفو» وقالت وهي تبتسم:

-هأنذا..حارسة زرقاء من حارسات الحدود.

سكنت «مُورفو» كالصّنم، وكانت فتاة متحفظة وقليلة الكلام، وربّما لا تعرف الابتسام، ولا تظهر الانفعالات على وجهها الرقيق، أخرجت من جيب قميصها عدّة زجاجات رفيعة جدًا تحتوي على رحيق مضاف إليه ترياق خاصّ، ومدّت يدها بها تجاه «مُونارش» وقالت:

-هذا الترياق خاصّ بك، ستمتصين كلّ صباح الترياق المحفوظ في واحدة من تلك الزجاجات، لا أملك الكثير منها للأسف فانتبهي لها.

تناولتها «مُونارش» من يدها وهي تقول بصوت يشوبه التوتّر:

-هل حقًا سنمرض لو خرجنا من الغابة؟

-نعم، لو لم نتناول الترياق سنموت خلال أيّام.

-الملكة «الحوراء» تعيش بالخارج ولم تمت حتّى الآن، سمعت أنّها جاوزت المائة عام.

-لأنّها مرّت بمرحلة لم نمرّ بها.

-كيف؟

-سأحدّثك بعد أن نخرج من هنا فالوقت ضيق، لقد سرقت المفاتيح ولا بدّ أن أعيدها قبل أن تستيقظ الحورائية المسئولة عن حراستك.

-حسنًا هيّا بنا.

تسللت الفتاتان، أعادت «مُورفو» المفاتيح إلى مكانها، ثمّ سارت مع «مُونارش» تجاه أطراف الغابة، خرجتا دون أن يلاحظهما أحد، فقد كانت «مُورفو» تحفظ الغابة جيدًا، كما كانت تحفظ تحرّكات زميلاتها من الحارسات عن ظهر قلب، على ضوء القمر استطاعتا الوصول لحدود وادي «الفراديس»، لكنّ «مُورفو» أخبرت رفيقتها أنّه خطر للغاية ولا ينبغي اقتحام أرضه الآن لأنّه مُحتل من قبل الغرباء، دارتا حول الوادي من بعيد، وكان لا بدّ من السير لمسافة ليست بالقليلة لتصلا لحدود أوّل مكان بعد هذا الوادي، وكانت هي مدينة «وَرَاشين». دلفتا وقت الظهيرة، وكان السوّق يزدحم بالتجار، وفور أن رآهما أحد رجال المدينة، صاح بصوته الجهوري قائلًا:

-ساحرات «ماذريون»...ساحرات «ماذريون»[1]

اجتمع أهل المدينة وشكّلوا حلقة حول الفتاتين، تمعّنوا في ملامحهما وأبدوا انزعاجًا شديدًا ووصفوهن بالقبح الشديد، بدأوا برشقهم بالحجارة، ووقف بعضهم بسلاحه متأهّبًا لقتلهما، كانت الفتاتان مذهولتين مما حدث، وكانت «مُورفو» تُدافع عن «مُونارش» وتحمل الحجارة وتعيد رشقهم بها، حاصروهما فتراجعتا نحو الحائط، وتقوقعت «مُونارش» على الأرض لتستند بظهرها على الحائط وهي في

(١) ماذريون: شجر ورقه كورق الزّيتون له ثمر، وهو يشبه نبات الكِبر.

حالة فزع شديد، فسحبت «مُورفو» سيفها ووقفت أمامها وصاحت صيحة برنّة غريبة جعلتهم يلقون الحجارة ويضعون أيديهم على آذانهم، في تلك اللحظة ظهرت بنات الحدّاد الثلاث، إحداهن قامتها طويلة ويداها كبيرتان ومعروقتان، كانت تبدو كالمصارعة، أمّا الأخرى فبدينة لها وجه ممتلئ ومستدير مشرّب بالحمرة وكانت تحمل في يدها مطرقة خشبية ثقيلة، والثالثة كانت نحيفة لها وجه مرّبع فكّه بارز، تثقبه عينان سوداوان واسعتان تكفيان لإحراق من أمامهما بنظرة واحدة من شدّة البأس، يعلوهما حاجبان كثيفان وغليظان مقترنان زادا نظراتها قوّة، وقفن أمام «مُورفو» وعقدن أذرعتهن على صدورهن وقالت المصارعة بصوت غليظ:

-ساحرات «ماذريون» ضيوفنا، ومن يسيء إليهن ستُصبّ عليه اللعنات وسيُقتل بمرض لعين.

وأضافت أُختها البدينة:

-سيمتلئ جسده بالدمامل والخراريج وسيأتينا لنقوم بكيّها بالنّار.

تعالت همهمات من بالسوّق، فقال أحدهم:

-ابتعدن يا بنات الحدّاد قبل أن ننادي حرّاس الملك لاعتقالكن.

اقتربت عجوز كانت تبيع الأواني الفخّارية قائلة:

-لا وجود لساحرات «ماذريون»، تلك أكذوبة تحتالون بها لاصطياد الفتيات الغريبات وبيعهن في السوق.

رشقها الرّجل بنظرة مقيتة وقال لها:

- ابتعدي أيتها العجوز وإلّا حطمت عظامك بيدي.

وقال آخر:

-أصابتكن لعنة شعب «أُوركا» وعلا صوتكن أيتها الحِقيرات، لم نسمع أصواتكن إلّا بعد زواج رجالنا الحمقى من نساء «أُوركا».

قالت النحيفة من بنات الحدّاد وهي تحدّق في وجهه بعينيها الواسعتين:

-لسنا حقيرات.

قال بنزق:

-بل حقيرات وكلّ النساء حقيرات.

اقتربت المصارعة بقوامها الضخم وقالت بعد أن لكزته في كتفه:

-كررها وستندم.

تراجع الرّجل فقال رجلٌ آخر كان يراقب الحوار من بعيد:

-أنتن عبيد لنا، وكلّ النساء هنا، نحن نملككن، حتى هاتين الساحرتين، وهما تحت إمرتنا الآن.

توارى سريعًا خلف ظهر زميله بعد أن أنهى كلماته، كان يخشى بنات الحداد كما يخشاهن الكثير من رجال مدينة «وَرَاشين»، فهدرت المصارعة قائلة:

-لا سلطان لكم علينا ولا عليهما.

قال الرجل الذي لكزته بنت الحداد في كتفه:

-يومًا ما سنقتلكن يا بنات الحداد وسندفنكن بجوار أبيكن.

ثُمّ صرخ وهو يُشير لـ«مُونارش» و«مُورفو»:

-المسختان لنا.

ثارت الشقيقات الثلاث، وبدأن بسبّ الرجال، وتعالت الأصوات، كان «حمزة» في تلك اللحظة يسير مع «مُولي» في طرقات المدينة ومرّا بالسوق، فسمع كلاهما ما حدث، صاح «حمزة» قائلًا وهو يخترق الحشد بكتفه سائرًا نحو الفتاتين الأسيرتين:

- كيف تجرؤ على وصفهن بهذا!

التفت الجميع إليه، قال الرجل له:

-ومن أنت؟

-«حمزة».

-أنت غريب عن قريتنا، لا تتدّخل فيما لا يُعنيك.

-بل يعنيني،فما تفعله ليس من المروءة!

حاول «مُولي» تهدئة «حمزة» ثُمّ قال بهدوء موجها كلامه للرجال في السوّق:

-اتركوا الفتاتين لحالهما ولينتهِ الأمر.

صاح الرّجل وهو يدفع «مُولي» في صدره بقبضة يده:

-اسكت أنت أيّها الأسود.

قال «حمزة» غاضبًا:

-كيف تجرؤ على مناداته بتلك الطريقة؟

-ومن أنت حتّى تسألني! ما بال قريتنا اليوم يزورها الجرذان من كل حدب وصوب! فليخرجوا من قريتنا الآن

ازداد غضب «حمزة» وقال وهو يثقبه بنظراته:

-لا شأن لك بهم...ولتحدثني أنا.

-لا تتدخّل فيما لا يعنيك، هذه شريعة «وَرَاشين»، ومن ارتضى العيش على أرضنا فليقبل بشريعتنا.

-أيّ شريعة تلك التي تتحدّث عنها!

قال رجل آخر وهو يعبث في لحيته:

-المرأة أدنى من الرّجل، واستعبادها من قوانين الطبيعة، البقاء للأقوى والأصلح، هنّ أقلّ تطورًا منّا، إنهن غبيات، لا يقدرن على فعل شيء وحدهن، يبكين لأتفه سبب، ضعيفات حقيرات، لذا فاستعبادهن منطقي!

رشقت المرأة الطويلة هذا الرجل بحجر في عينه فأصابته إصابة بليغة وأخذ يصرخ، فثار الرّجال حوله وبدأت معركة شرسة بين بنات الحداد وبين عصبة الرّجال الذين كانوا يحاصرون الفتاتين، أوسعتهم المصارعة ضربًا بيديها المعروقتين، أمّا صاحبة المطرقة فكانت تركلهم بقدمها بعنف بعد أن تضربهم بمطرقتها الغليظة التي كانت تحملها في يدها، أمّا الشقيقة الثالثة فكانت قد تسللت ومعها «مُونارش» منذ أن بدأ الجدال بين الرّجل و«حمزة»، دقائق مرّت وقد اشتد وطيس الحرب الدائرة بالحجارة والمطارق، ولم تخلُ من اللكم والضرب والسب، سالت الدّماء، وانفضّ الحشد بعد ظهور حرّاس الملك «عدنان» الذين ألقوا القبض على «حمزة» و«مُورفو»، أمّا «مُولي» فأسرع نحو المعبد ليخبر «سَاهور» بما حدث.

كان الغلام «هُرهُور» يجلس بجوار «سَاهور» وسط معبد «وَراشين» وكان صوت خرير ماء النوافير الرّخامية التي تتوسط صالة المعبد لطيفًا، سأل «سَاهور» الغلام وهو يمسح على رأسه:

-كيف هي جراح ظهرك يا «هُرهُور»؟

قال الغلام:

-أفضل بكثير يا سيّدي، ساعدني الاغتسال بماء الينابيع كثيرًا.

مال عليه «سَاهور» وسأله بفضول:

-أخبرني عن شعورك عندما لامس ماء الينابيع بشرتك يا «هُرهُور»، هل شعرت بأي شيء..غريب!

أغمض «هُرهُور» عينيه وكأنّه يحاول اجترار ما أحسّ به هناك ثُمّ قال:

-ستشعر بها وأنت تقترب منها، ستتسارع دقّات قلبك، هدير عميق شديد سيتردد صداه في صدرك قادمًا من قدميك نحو الأعلى، لكنّك لن تسمع صوته بأذنيك، بل هنا في قلبك، وفجأة سيأتي الانفجار بشكل عمودي، شيء خفيّ سيحملك إلى أعلى حيث ترفّ روحك، وكأنّك تطير بجناحات شفافة.

-يا له من شعور!

اقتحم «مُولي» المعبد وهو يصيح:

-لقد ألقى حرّاس الملك القبض على «حَمزة».

انتفض السيّد «هشام» ووثب في مكانه وكان قد غفا بجوار «سَاهور» وهو يتحدّث مع الغلام، وقام «سَاهور» وهو يتحسس الجدار ليسأل «مُولي» بتوتّر:

-ما الذي حدث؟ أخبرني بالتفصيل..

وقف «مُولي» يروي لهما ما حدث، وفور انتهائه من الكلام، قرر «سَاهور» الذهاب فورًا إلى قصر عمّه «عدنان» ليطلب من الحرّاس إطلاق سراح «حمزة»، ولأنّه لن يستطيع كشف أمر الغلام إلّا بعد العثور على المرأة التي ساعدت أمّه وهي تلده لتدلهم على الأب الحقيقي لـ«هُرهُور» بعد أن ترى القلادة التي تركتها معه، نادى على سادِن المعبد وطلب منه إخفاء «هُرهُور» في مكان أمين، فانصرف السّادن ومعه «هُرهُور»، أمّا «سَاهور» فأخرج القلادة من جيبه وعلقها على صدره وأظهرها، تعجّب «مُولي» من فِعله وقال:

-لكنّك ستدخل قصر عمّك الآن!

غضن «سَاهور» حاجبيه قائلًا:

-نعم سأدخله، لا بدّ أن يراها الجميع، ربّما تتنبه تلك المرأة التي نبحث عنها للقلادة.

اقترب السيّد «هشام» من «سَاهور»، وأمسك القلادة التي كانت على شكل نصف دائرة، قال وهو يتحسس القلادة بيده:

-لا بدّ أنّ تلك المرأة تحمل نصف القلادة الآخر

قال «سَاهور» بثقة:

-أخبرني «حمزة» أنّها مقسومة، لا بدّ أنّ لها نصفًا آخر يُكملها، أشعر أنّ تلك المرأة من سكّان قصر عمّي

ثُمّ أردف يتعجلهما:

- فلنسرع، هيّا بنا، قبل أن يأمر عمّي الحرّاس بإلقاء «حمزة» في بئر «دِرواس»، هكذا يفعلون دومًا بالغرباء.

خرج الثلاثة من المعبد وتوجهوا إلى القصر، بينما كانت «مُونارش» في بيت بنات الحدّاد.

16

بئر «دِرواس»

جلست بنات الحدّاد أمام «مُونارش» وهي ترتجف، كنّ يتمعّنّ في ملامحهما التي بدت لهنّ غريبة وغير مألوفة، وقد ران عليهن صمت مهيب، بدأت أكبرهن بالكلام وكانت هي صاحبة المطرقة التي أوسعت بها الرّجال ضربًا في السّوق، حيث قالت وهي تضع مطرقتها على الطاولة الخشبية العريضة التي كانت تتوسّط ساحة الدّار:

-ما الذي دعاكما للمرور بقريتنا البائسة؟
قالت شقيقتها المصارعة بتحفّز:

-أدركت منذ اللحظة الأولى أنكما من ساحرات «ماذريون».
قالت «مُونارش» بصوت مرتعش:

-لسنا من ساحرات «ماذريون»! قالت العجوز في السّوق إنّه لا وجود لساحرات «ماذريون» وأنّها قصّة مختلقة يستغلّها الرّجال هنا لأسر الفتيات الغريبات عن المدينة.
رشقتها صاحبة المطرقة بنظرة امتعاض وقالت:

-تلك العجوز صديقتنا، وقالت هذا الكلام لتبعد الشكوك عنكما حتى نستطيع تهريبكما، فنحن ندعم المستضعفات ما استطعنا حتى يأذن اللّه بأمر ما، وتتغير طريقة معاملة رجال المدينة لنا فقد سئمنا.
ثُمّ عادت للهجتها الهجومية قائلة:

-أعرف كلّ شيء عن ساحرات «ماذريون» أيتها الحِمقاء، لماذا أنتما في قريتنا؟ من أخرج جماجمكنّ من خنادق جبل «أَمَانوس»؟
غضّنت «مُونارش» حاجبيها وسألتها باستنكار:

-أيّ جماجم!
-تلك التي تسكنونها.
سألتها «مُونارش» باستنكار:

-هل التقيتِ بساحرة من ساحرات «ماذريون» هؤلاء من قبل؟
تلعثمت صاحبة المطرقة وقالت:

-لا.

-فكيف تحكمين أننا منهنّ؟ ومن أين لكِ بهذا اليقين!!

هزّت صاحبة المطرقة كتفيها وقالت:

-مجرّد حدس! هذه الملامح القبيحة لا تخفى عليّ أبدًا.

قالت «مُونارش» بغضب:

-ملامحي ليست قبيحة!

ضحكت الشقيقات الثلاث مما جعل عيني «مونارش» تدمعان، كانت المسكينة ترتجف، وكانت تنقل عينيها بين وجوه بنات الحدّاد بحذر شديد، قامت صاحبة المطرقة وجلبت شالاً من الصّوف وألقته على «مُونارش» لتتدثّر به، ثُمّ ركلت المقعد الخشبي بقدمها لتديره ليكون في مواجهتها، وجلست عليه وعقدت ذراعيها، وقالت بتحفّز:

-أخبريني بقصتكما ولا تخفي شيئًا وإلّا سأسلّمك لحرّاس الملك الآن لتلحقي برفيقتك.

قالت «مُونارش»:

-نحن من حورائيات غابة البَيْلَسَان.

تبادلت الشقيقات الثلاثة النظرات، كُن يعرفن عن أمر الفتيات الصغيرات اللاتي يمرضن ويمتن فور بلوغهن السادسة من أعمارهنّ، وأنّ بعض آبائهن يحملنهن إلى غابة البَيْلَسَان، لأنهن يستطعن العيش هناك، لكنهن لم يرين فتاة ناضجة من الحورائيات من قبل! بل لم يخطر بعقولهن أنهن يعشن حتى يبلغن هذه المرحلة من العمر.

بدأت «مُونارش» تروي لهنّ ما يُمكن إخبارهن به من شأن الحورائيات وغابة البَيْلَسَان، وكيف أنهن لا يعشن خارجها طويلاً، نظرًا لعدم ملاءمة الظروف البيئية لطبيعة أجسادهن، كانت حذرة للغاية، وانتقت كلماتها، أخبرنها أنّهن سمعن من أهل المدينة قصة غابة البَيْلَسَان، سألتها صاحبة المطرقة وهي ترشقها بنظرة تملؤها الرّيبة:

-ومن هذا الشّاب الذي كان يُدافع عنكما؟
قالت «مُونارش»:
-لا أعرفه
أردفت صاحبة المطرقة وهي تحكّ شعر رأسها بأصابعها المكتنزة:
-لقد قبض عليه حرّاس الملك «عدنان» هو ورفيقتك، غدًا صباحًا سيلقونهما في بئر «دِرواس»، سيكونان مكافأة لوحش دِرواس الذي يتضوّر جوعًا منذ أسَبوع.
صاحت «مُونارش» بانزعاج شديد:
-يا إلهي! لا بدّ أن نفعل شيئًا لانقاذهما!
لكزتها المصارعة في كتفها فأوجعتها وقالت:
-لا يجرؤ أحد من سكّان مدينة «وَرَاشين» على معارضة أمر الملك، لقد انتهى أمرهما.
قالت «مُونارش» باستنكار:
-هكذا! دون تحقيق في أمر الشجار الذي وقع بالسوق! أيّ ظلم هذا!
قالت الشقيقة الثالثة والتي كانت تتابع الحوار في صمت لـ«مُونارش»:
-تبدين أكثر هشاشة وضعفًا من رفيقتك، فهي تبدو أكثر ثباتًا وقوّة منك، كانت تُدافع عنك في السّوق! لماذا خرجتما من غابة البَيْلَسَان؟
أطلقت «مُونارش» تنهيدة ثُمّ قالت:
-أبحث عن أبي وأمّي وأشقائي، ليس من العدل أن يتخلوا عنّي ويرحلوا للأبد، لماذا لا يزورونني؟ أشتاق إليهم، أُريد أن أعيش تلك الحياة التي تعيشونها كلّكم خارج الغابة، كما أنني.. أُريد أن أحب وأتزوج وأكون أمًا لطفل جميل!

عادت بنات الحدّاد للضحك سخرية منها، قالت أكبرهنّ بمرارة:

-لا وجود للحبّ في قريتنا، أنت تحلمين، رجال المدينة يتعاملون مع النساء هنا وكأنهن حيوانات أَليفة يملكونها، متاع يشترى ليستخدم، النساء هنا تُباع، وتمتهن، وتذبح، قلّة منهم من يفكرون بعقولهم ويرفقون بالنساء كما كان يرفق بنا أبي ، وتلك القلّة لا تسلم من ألسنة الآخرين، قسوتهم دفعتنا للغلظة والاخشوشان، ولولا هذا لطحنونا طحنًا.

سألتها «مُونارش»:

-وأين هو والدك؟

أرسلت صاحبة المطرقة تنهيدة ثُمّ قالت:

-ألقاه حرّاس الملك في بئر «دِرواس» والتهمه الوحش

-لماذا؟

حانت منها التفاتة نحو وجه شقيقتها المصارعة ثُمّ قالت:

-لأنّه زوّج أختي من شاب من شباب شعب «أُوركا».

سألتها «مُونارش» والفضول يطلّ من عينيها:

-وما العيب في هذا؟ وما هو شعب «أُوركا»؟

حكّت صاحبة المطرقة رأسها بأظافرها مرّة أخرى وقالت وهي تعبث بخصلات شعرها الأشعث:

-تلك قصّة طويلة، سأرويها لكنّ ونحن نتناول الطعام، فأنا جائعة للغاية.

كانت صاحبة المطرقة تتحدّث وهي تلوك الطعام في فمها، وكانت أكثر الشقيقات الثلاثة ثرثرة وحديثًا، أمّا شقيقتها المصارعة فكانت تحبّ شعب «أُوركا» للغاية، لهذا قاطعت أختها مرارًا وتحدّثت عنهم كثيرًا...

وعن زوجها الذي رحل إلى وادي الفراديس مع مجموعة من رجال «أوركا» دون أن يخبرها عن السبب، أخبرتها أيضًا عن تغير سلوكه وتصرفاته قبل أن يرحل.

لزمت الشقيقة الصغرى الصّمت، كانت تلوك الطعام ببطء وهي تراقب «مُونارش» ولاحظت أنّها اكتفت بتناول الحساء فقط، ولم تلمس الخبز واللحم قطّ.

كانت «مُونارش» تحاول الإلمام بأخبار المدينة وما حولها، وجلست تنصت باهتمام بليغ لكلّ كلمة ينطقن بها، أدركت الآن أنّ هناك معبدًا كبيرًا هنا بالمدينة وله سادِن محبوب من الجميع، قررت الفرار إليه، لعلّه يساعدها لتحرر رفيقتَها «مُورفُو»، انتظرت حتى تنهي بنات الحدّاد حكاياهنّ وأخبرتهنّ أنّها تودّ الذهاب إلى المعبد الآن.

كان المكان يعبق برائحة الرّطوبة، وكانت الزنزانة ضيقة ومظلمة، فور دخولهما لم تتوقف «مُورفو» عن القفز ومحاولة الوصول إلى النّافذة، لم تيأس حتّى بعد أن جرّدها الحرّاس من أسلحتها ومن قوارير الترياق الرفيعة التي كانت تحملها، أصابها اليأس فجلست في ركن من أركان الزنزانة، وكان «حمزة» ساكنًا في الرّكن الآخر، يستند بظهره على الجدار البارد وهو يجلس مغمضًا لعينيه بينما يمسك رأسه بكفّيه، فالأفكار تتناطح في رأسه، استبد به القلق بعد أن فقد حقيبته وكتابه والخنجر ذا النصل الحلزوني الذي أمدّه به طبيب البِيمارِسّتَان، وتلك الجمجمة التي لا يعرف سرّها حتّى الآن، فقد سقطت حقيبته على الأرض أثناء إلقاء القبض عليه بينما كان يقاومهم ليهرب، كما أنّه لا يعلم أين «الدّيسق» الآن! فتح عينيه وقال لـ«مُورفو»:

-أخبرتني الملكة «الحوراء» عنكما، أنتما من حورائيات غابة البَيْلَسَان.

التفتت «مُورفو» تجاهه وقالت في ذهول:

-الملكة الحوراء! هل تعرفها؟ وهل التقيت بها؟

-نعم زرتها في قصرها وتحدّثت معها، وأخبرتني أنّكما في طريقكما إلى المدينة هنا.

جلست «مُورفو» قبالته على أرض الزنزانة وقالت:

-لم ألتقِ بها حتّى الآن، يا لحظّك! لقد التقيتَ بملكة عظيمة!

ثُمّ عادت تسأله:

-ما اسمك؟ ومن أين أنت؟

قال وهو يعتَدل في جلسته:

-اسمي «حمزة» وأنا مُحارب.

ران عليهما صمت خفيف، كانت «مُورفو» تعلم عن المحاربين، قالت بجدّية شديدة وهي تعتدل واقفة:

-أمامك الكثير لتؤدي مهمّتك، وجودك هنا بسببنا أنا ورفيقتي خطأ عظيم، وضميري لا يتحمّل أن أكون سببًا في هذا...أين كتابك؟

قال متوتّرًا:

-سقط مني وهم يلقون القبض علينا.

غضنت «مُورفُو» حاجبيها وقالت:

-لا بدّ أن نخرج من هنا، «مُونِارش» في خطر، وأنت أيضًا، لو وقع كتابك في يد خاطئة ستسوء الأمور.

هزّ رأسه قائلًا:

-أخشى أن يقع في يد «الدّواسر».

التفتت نحوه باندهاش وقالت:

-«الدّواسر»! وهل عادوا؟ سمعت أنّهم أُسروا منذ سنوات طويلة! فما الذي حدث؟

سألها «حمزة» متعجبًا:

- ألستِ من الحورائيات؟ والرّياح تحمل إليكن ما يحدث هنا وهناك، وتعرفِن أخبار المحاربين، فكيف لا تعرفين بأمر عودة «الدّواسر»؟ وكيف..

قاطعته «مُورفُو» قائلة:

-بلى أنا من الحورائيات، لكنّني من فيلق حارسات الحدود! ومهامي تختلف!..أرجوك أخبرني من حرر الدّواسر من أسرهم؟

هزّ «حمزة» كتفيه وقال:

-حسنًا، سأخبرك بما أعرفه ولكن على شرط.. أخبريني أولًا عن سبب مجيئكما إلى مدينة «وراشين» بالذّات، وخاصّة بعد ما علمته عن سوء معاملتهم للنساء هنا، وأخبريني أيضًا عن مهمّتك كحارسة للحدود.

انطلقت «مُورفو» في الحديث عن رفيقتها «مُونارش» وكيف بدأت تُطالب بالخروج من غابة البَيْلَسَان لكي تبحث عن أسرتها، وأنّها قررت الخروج معها، وأخبرته عن الترياق وضرورة استرداده حتى تتمكن هي ورفيقتها من تحمّل الظروف حتى تتأقلما على الحياة أو...تعودا للغابة إن تدهورت حالتهما، كان حديثها شائقًا مما جذب انتباه «حمزة»، لاحظ ملامحها الغريبة لكنّها لم تُخفه، بدأ يروي لها قصّته فكانت تحسن الانصات، لم تقاطعه، ولم توجه إليه سؤالًا واحدًا وهو يسرد عليها الأحداث التي مرّ بها، وانتظرت حتى انتهى من كلامه، أخبرها عن زيارته لقرية «كُروسكو» ثُمّ قرية «أُوركا» ثُمّ لقائه بالسيّد «هشام» في غابة «البَيْلَسَان»، وأخيرًا

دخوله لمدينة «وَرَاشين»، كادت تُخبره شيئًا لكنّه شهق فجأة، وحدّق أمامه بشكل مخيف، في تلك اللحظة كان «الدّيسق» يُحلّق فوق مدينة «وراشين» ويحاول أن ينقل إليه ما يحدث خارج زنزانته القابعة في قبو قصر الملك «عدنان»، وقف «حمزة» واستدار نحو الحائط واستند بيديه عليه، كان يرى القصر من بعيد بعيني النُهام الذي أهدته له الملكة «الحوراء»، اقترب «الدّيسق» أكثر فأكثر فاتضحت الرؤية، رأى «سَاهور» وهو يسير تجاه القصر بخطوات ثابته وهو ينقر الأرض بعصاه وأهل المدينة يتلفّتون وهم يرونه يسير بينهم، ويتبعونه في أفواج تتزايد كلّما اقترب من القصر، إنّهم يعرفونه، كان «سَاهور» شديد الشّبه بأبيه الشيخ «رَجّوان» الذي كانوا جميعًا يحبّونه، رأى «حمزة» قلادة «هُرهُور» حول عنق «سَاهور»، ورأى «مُولي» والسيّد «هشام» وهما يسيران خلفه، كانت حقيبة «حمزة» على كتف «مُولي»، أدرك أنّه التقطها من موقع المعركة في السّوق فاطمأن على كتابه، لم يسمح الحرّاس لـ«مُولي» والسيّد «هشام» بالدخول، لكنّهم تعرّفوا على «سَاهور» فسمحوا له بالدخول لديوان عمّه الملك «عدنان»، وعندما دلف «سَاهور» من بوابة القصر، عاد لـ«حمزة» بصره وهو يقف في الزّنزانة، فالتفت ليجد «مُورفُو» ساكنة كالصنم أمامه وقد ألصقت ظهرها بجدار الزنزانة، كانت تستجمع جميع حواسّها وتراقبه باهتمام شديد، بدأ يُخبرها عن «الدّيسق» وما رآه بعينيه، وكانت تُصغي باهتمامٍ شديد.

كان الملك «عدنان» يجلس على عرشه المذهّب، وبجواره يجلس ابناه «خلدون» و«فِراس» يرفلان في ثيابهما الفخمة التي تليق بمنصبيهما، كان كلٌّ منهما يطمح للحكم بعد أبيه، تزوجا في نفس الوقت، فما أن أعلن «فِراس» عن رغبته في الزواج، حتى أسرع «خلدون» وقلّده! والآن ينتظر كلّ منهما أن تلد زوجته الذّكر قبل زوجة أخيه لينال فرصة ولاية العهد قبله،

وكانت الزوجتان تتنافسان وتتشاحنان وكل واحدة منهما ينهشها القلق من أن تُنجب فتاة فتنتصر الأخرى عليها. أمّا شقيقهما الأكبر «أشْهَم» فقد كان يجلس في سكون، لم يكن في حقل المنافسة معهما، فبعد قتل زوجته وفقدانه لولده أصابه اليأس والحزن، مرّت الأعوام ولم يندمل جرح قلبه فزوّجه أبوه من فتاة من أهل «وَرَاشين» تليق به، لكنّه زهد فيها وفي كلّ شيء، وكانت زوجته الأميرة «مَثابة»[1] تصبر عليه لأنّها تُحبّه، صار «أشْهَم» الزوج الحاضر الغائب، والابن الصامت والشاهد على ما يدور في قصر أبيه دون أن ينبس ببنت شفة، حزين لمرض أمّه التي فقدت عقلها فور مقتل «رَسيل»، وكأنّ المصائب اجتمعت في آن واحد، كان يزور أمّه في غرفتها في سرداب تحت القصر، والتي تحوّلت إلى زنزانة حُبست فيها لسنوات، فزوجها الملك «عدنان» يخجل من مرضها، ويُخفي أمرها عن كبار أهل المدينة، وقد توقف «خلدون» و«فِراس» عن زيارتها، أمّا هو فلم ينقطع عنها أبدًا، كان يتألّم في صمت، ويتمنى الموت لكنّه لا يُدركه..

أجفل الملك «عدنان» عندما رأى وجه «سَاهور» وهو يسير نحوه بخطوات ثابته، كانت عيناه البلوريتان تبرقان وكأنّه يراه ويثقبه بنظراتهما، سقط القدح الذي كان يشرب فيه على الأرض ووقف فجأة مما لفت الأنظار إليه، لاحظ الجميع ارتباك الملك! كان «سَاهور» يتحسس البساط بعصاه وفور أن اصطدمت عصاه بأوّل درجة من درجات العرش توقف واستند على عصاه بكلتا يديه ورفع رأسه ووقف ساكنًا ولم يلقِ السلام، قال الملك «عدنان» وهو يجلس مرّة أخرى ببطء شديد:

-«سَاهور»! لماذا أنت هنا؟

-أتيت لأزور أهلي وعشيرتي يا عمّاه.

قال «فِراس» وهو يكزّ على أسنانه:

---

(١) مَثابة تعني رجوع وعودة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ سورة البقرة.

-لست من عشيرتنا، أنت هجين، أمّك من شعب أُوركا.

رفع «سَاهور» رأسه وسأله:

-وماذا عن أبي؟

ساد الصمت حتى بدده «سَاهور» سائلًا إيّاهم:

-لماذا لا تجيبون؟..وماذا عن أبي؟ أليس منكم؟ أليس من لحمك ودمك يا عمّاه؟

ارتجف صوت الملك «عدنان» وهو يجيبه:

-بلى من لحمي ودمي.

اقترب «أشْهَم» منه ووضع يده على كتفه وسأله:

-ماذا تُريد يا «سَاهور» وما الذي أتى بك إلى هنا؟

تذكّر «سَاهور» الغلام «هُرهُور»، وتوقف لوهلة يتساءل هل هو ابن «أشْهَم» بالفعل أم لا، رفع يده وتحسس القلادة، مما لفت نظر «أشهم» لها، فأقبل وأمسكها وقلّبها بين أصابعه، قبض «سَاهور» على يد ابن عمّه وأنزلها من فوق كتفه وقال له:

-طلبٌ واحد وسأمضي يا «أشْهَم».

قال «أَشهم» بصوت واثق وما زالت عينه معلّقة بالقلادة:

-اطلب ما تشاء يا «سَاهور»، وسأحقق لك ما تُريده.

قال «سَاهور» وهو يطرق بعصاه الأرض:

-الشّاب الذي ألقى الحرّاس القبض عليه اليوم، هو طبيب قريتنا، وجئت أطلب إطلاق سراحه في الحال.

قال «فِراس» بتهكّم:

-طبيب من شعب أُوركا! هل تمزح؟ صارت المسوخ تُمارس الطبّ!

علت قهقهاتهم ولم يرّف لـ«سَاهور» جفن وهو يقف أمامهم بثبات، قال بهدوء بعد أن توقفوا عن الضحك:

-«حمزة» ليس من شعب أُوركا.

قال «فِراس» ساخرًا:

-أرأيت يا عقل السّمكة!

التفت «سَاهور» نحوه وكانت عيناه مفتوحتين على وسعهما فأجفل «فِراس»، شعر لوهلة أنّ «سَاهور» قد استردّ بصره وأنّه يراه بهما، سرت قشعريرة في جسدة عندما خطا «سَاهور» نحوه خطوة وقال مُهددًا:

-لو مسّ «حمزة» سوء ستُهاجم طيور الوراشين المدينة، لأنّه مُحارب!

أطبق عليهم الصّمت، تذكّروا جميعًا كيف كانت تهاجمهم طيور الوراشين المعروفة بلطفها فتتحوّل فجأة لطيور جامحة وتُصبح في غاية الشراسة، حيث تكرر هذا أكثر من مرّة، وكان هذا يحدث لخطب جليل في المدينة! وكأنّها تُراقب الأحداث، وتتابع ما يحدث هنا وهناك! فأقبلت في أسراب وظللت السماء فوق مدينتهم، وأفسدت عليهم حياتهم، الزروع والثمار والأشجار، حتى أعين الدواب نقرتها، وألحقت بهم الأذى، سأله «خلدون» في اضطراب:

-وما أدراك يا «سَاهور»؟

استدار «سَاهور» في مكانه دون أن يجيبه، وقال وهو يسير بخطوات منضبطة نحو البوابة:

- جرّبوا أن تؤذوه وسترون بأنفسكم.

ثُمّ صاح وهو يهمّ بالخروج من باب الديوان:

-اطلقوا سراح المحارب قبل أن تغيب شمس اليوم.

خرج «سَاهور» من ديوان القصر وتركهم يتخبّطون في حيرة، ومضى حيث كان «مُولي» ينتظره مع السيّد «هشام»، أخبرهما بما دار بينه وبين عمّه «عدنان» وأبنائه، وكان أهل المدينة يقفون على مقربة منهم، وعندما ابتعد الثلاثة عن بوابة القصر وانتقلوا للساحة الواسعة أمامه أسرع الحشد تجاه «سَاهور» وبدأ النّاس يحيونه ويدعون لأبيه، أخبرهم باختصار أنّه أتى لأجل صديقه الذي ألقى الحرّاس القبض عليه اليوم في السّوق، وأنّه لن يُغادر المدينة إلّا معه، وجلس «سَاهور» أمام القصر، وتوافد النّاس إلى المكان وجلسوا حوله، وسط الحشد كان أحد شباب أوركا الملبوسين بالدّواسر يقف بين الناس، علم أنّ هناك مُحارب بالقصر واسمه «حمزة»، فانطلق عائدًا لـ «قلب العقرب» زعيم الدّواسر في وادي «الفراديس» ليخبره أنّ هناك مُحاربًا وقد وصل مدينة «وَرَاشين».

أطرق الملك «عدنان» برأسه وبدت عليه دلائل التفكير، رضخ لرأي ابنه «فِراس» الذي أشار عليه بقتل «حمزة»، فلو تحقق لـ«سَاهور» مطلبه سينقلب شعب «وَرَاشين» مرّة أخرى على الملك كما فعلوا قديمًا عندما اختلف مع أخيه «رَجْوان»، لا بدّ أن يُنهى الأمر في الحال، سيلقون بـ«حمزة» في بئر «درواس»، انطلق «فِراس» متهلل الوجه بعد موافقة أبيه على ما أشار به علَيه وأمر الحراس بتنفيذه، فُتحت بوابة القصر وخرج عدد كبير من الحرّاس وهم مدججون بالأسلحة، دفعوا النّاس دفعًا بدروعهم فتراجع الحشد للخلف، سار اثنان من الحرّاس وهما يمسكان بذراعي«حمزة»، توجها به نحو بئر «درواس» الواسع والعميق الذي ابتلع الكثير من أرواح المقهورين والمظلومين، دُقّت النواقيس ليشهد أهل المدينة ما سيحدث ويعتبروا ويرتدع كلّ من لديه نيّة للالتفاف حول «سَاهور» الذي أطلّ من بين طيّات الماضي بوجه أبيه «رَجْوان»، وقف «سَاهور» وقد منعه الحرّاس من التقدم وهو يصيح:

-لو أصاب «حمزة» سوء ستُهاجم طيور الوراشين المدينة، كما حدث يوم مقتل أبي.

تعالت الأصوات، طالبوا بالعفو عن «حمزة» حتى لا يتكرر ما حدث في الماضي، لكنّ «فراس» تقدّم وهو يرفل في ثيابه وحوله حرسه الخاصّ فسكنت الأصوات مَرّة أخرى، كان وحش «درواس» يزأر ويزمجر في ممرّ تحت الأرض تُفتح بوابته الحديدية من أعلَى لينقضّ على الفريسة التي تُقدّم إليه وسط البئر الكبير فيلتهمها أمام أعين من يُقدمون على رؤية هذا المشهد الدّامي، حاول السيّد «هشام» اختراق الصفوف لعلّه يستطيع فعل شيء ما، أو ربّما يستخدم الأَسَطرلاب ويرحل به إلى مكان آخر لو تمكّن من الاقتراب منه، لكنّ الحرّاس منعوه، حمل الحرّاس «حمزة» وألقوه في البئر، فسقط على ركبتيه وآلمته بشدّة، ثُمّ استقام واقفًا عندما التقت عيناه بعيني الوحش الذي يفصله عنه باب من الحديد، الفراغات بين أعمدته تُظهر ملامح الوحش بوضوح، أنساه مظهر أنيابه ولعابه الذي يجري وعيناه الحمراوان آلام ركبتيه اللتين سقط عليهما، فرفع عينيه إلى السماء فرأى بعض طيور الوراشين وقد بدأت تحلّق فوق المدينة، تناهى إلى سمعه صوت صراع وصياح وصرخات تُشبه تلك التي سمعها في قرية «أوركا»، كانت دقّات قلبه تتواثب وهو يرى وحش «دِرواس» وهو يزمجر ويروح ويجيء، في تلك اللحظة وبينما بدأ الحرّاس برفع البوابة التي تفصل بينه وبين الوحش أطلّ «مُولي» برأسه من أعلى البئر، ونادى عليه وهو يلقي بحبل غليظ تجاهه، تعلّق «حمزة» بالحبل وكان «مُولي» يسحبه، ثُمّ سمع «حمزة» صرخة ألم انخلع لها قلبه، ارتخى الحبل وسقط مرّة أخرى على الأرض، أدرك حينها أنّ الحرّاس أصابوا «مُولي»، كان الوحش يحاول دسّ رأسه من أسفل الحاجز الحديدي بينهما، كان لا يصبر على التهام فريسته، لكنّ الفتحة أسفل البوابة لم تكن بالقدر الكافي، تعالت الأصوات خارج البئر مرّة أخرى، تعرّف «حمزة» هذه المرّة على صوت «سِنمّار»! ثُمّ صوت «سَاهور»، ثُمّ صيحات جماعية وكأنّ هناك حدثًا

ما! رأى حبلًا آخر يتدلّى فالتقطه لكنّ طرف الحبل لم يتحرّك! ارتفعت البوابة وانطلق الوحش تجاهه وكاد يغرز مخالبه في صدره، لولا ارتفاع الحبل فجأة في الهواء، خرج جسد «حمزة» للنور، ورأى مشهدًا اقشعر له بدنه، كان «سَاهور» يمسك بالحبل ويسحبه وقد ارتقى في الهواء مرتفعًا بجسده، كان عاري الصدر، حافي القدمين، يرتدي سرواله الكتّاني فقط! فقد تخلّص من ثيابه الفضفاضة والثقيلة التي كان يضع في ثانياها وجيوبها أثقالًا حتى لا ينكشف أمره، فهو كأبيه، ما زال قلبه يحلّق به.

كان «حمزة» ومنذ أن رآه لأوّل مرّة يتساءل في نفسه عن سبب ارتدائه لتلك الملابس وقد لاحظ ثقله كما لاحظ ترنحه في مشيته! تذكّر «حمزة» حينها ما أخبره به السيد «هشام»عن أهل مدينة «وَرَاشِين» وطبيعة أجسادهم، وكيف يرتفع بعضهم لنقاء خبيئته من أدران النفوس وخبثها، وكيف يُخفون هذا خجلًا من افتضاح أمرهم بعدها عندما يخطئون، نظر «حمزة» أسفل قدميه، كانت ملابس «سَاهور» الثقيلة التي حيّرته دومًا ملقاة على الأرض، وفوقها حجران ثقيلان يبدو أنّه كان يربطهما على جذعه بحزام، وبجوارها حذاؤه الغريب بنعله الحديدي الثقيل، الآن أدرك لماذا كانت خطواته ثقيلة وكأنّه مريض! فقد كان يجرّها جرًّا! على مقربة منه كان «سِنمّار» يقف وفي يداه سيفان، ومعه الكثيرون من شباب «أُوركا» وكانوا يحملون أسلحتهم، على الأرض كان هناك العديد من حرّاس الملك «عدنان» الجرحى والمقتولين، مما جعل باقي الحرّاس يتراجعون ليقوموا بحماية «فِراس» الذي فرّ نحو قصر أبيه فور أن رأى «سنمّار» ومن معه، أسرع السَيّد «هشام» وأمسك بساق «حمزة»، وسحبه أوّلًا، ثُمّ سحبا الحبل معًا ليعود «سَاهور» للوقوف على الأرض، عاونه أخوه «سَنمّار» ليعيد ارتداء حذائه وملابسه، بينما هرول «حمزة» نحو «مُولي» الذي كانت الدماء تسيل من جرحه ومن فمه، حمل رأسه على صدره وراقبه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، قال «مُولي» بصوت واهن وهو يشير بإصبعه لصدر «حمزة» وقد جادت عيناه بالعبرات:

-أنت..أخي.

اعتصر فؤاد «حمزة» وانتفض حين أغلق «مُولي» عينيه ولسانه يعانق كلمة التوحيد، ظلّ يهزّه برفق ثّمّ بشدّة، كاد يفقد عقله! مات أول صديق التقى به هنا، مات الشّاب النوبي اللطيف الذي أحبّه، مات ذاك المهذّب الذي يتحدّث أحيانا مثل أخيه «خالد»، وهو الآن لا يدري هل مات أخوه «خالد» أم لا!!

كان حزينًا لأنّه لا يعرف الحقيقة، ولأنّه أحبّ شخصية «مُولي» ذاتها بسماتها وملامحها، احتضنه وفاضت عيناه بالدّموع، وتذكّر وصيّته له بأن يُساعد «هُرهُور» إن لم يتمكّن هو من إتمام تلك المهمّة..

كان لا بدّ من الإسراع بالخروج من مدينة «وَرَاشين» قبل أن يعود الحرّاس مرّة أخرى، فحملوا «مُولي» وساروا في موكب مهيب، أفسح لهم أهل القرية الطريق وقد خيّم عليهم الصمت، فقد بُهتوا لما رأوه من «سَاهور»، ظنّوا أنّ مدينتهم خلت من الخير، وما عاد بينهم من يُشبه الشيخ «رَجْوان»، وهاهو «سَاهور» يُشبه أباه فيما تميّز به عن أخيه «عدنان»..

كانوا أيضًا يعانون مما رأوه، فقد فزعوا من صيحات شباب «أُوركا» وشراستهم في القتال، لكنّهم لم يحزنوا على قتل «مُولي»، وحده «حمزة» كان يبكيه، ويبكي لأنّه كان يعلم أنّه عاش وحيدًا في قرية «كُروسكو» يحنو على المرضى ولا يجد من يحنو عليه، ليس له أمٌّ تبكيه، ولا زوجة تفتقده، ولا أهل ولا ولد، عادوا جميعًا إلى قرية «أوركا»، وكان السّادن قد أرسل «هُرهُور» قبل خروجهم لقرية «أوركا» ليكون في حماية الملكة «أهاليل» كما طلب منه ابنها «سَاهور». في تلك اللحظة كانت «مُونارش» تسير مع بنات الحدّاد بعد أن أعرنها ملابسَ تُشبه ملابس أهل مدينة «وَرَاشين»، وكانت تغطّي وجهها بطرف الخمار حتى لا تلفت الأنظار لملامحها غير المألوفة، كانت هناك عندما أخرج «سَاهور» «حمزة» من بئر «دِرواس»،

رأته وهو معلّق بجسده في الهواء، ورأت كلّ شيء، وأحزنها موت «مُولي»، فقد تذكّرت وجهه وهو يدافع عنها وعن «مُورفُو» في السوق، مرّ الموكب المهيب بجوارها وهم يحملونه، بعد انصراف الموكب توجهت مع بنات الحدّاد للمعبد الكبير وتحدّثت إلى السّادن الذي وقف حائرًا وهو ينصت لقصّتها، فبعد ما حدث أصبح تواجده في المدينة يعرّضه ويعرض من يلجأ إليه للخطر، فربما يحمل أحدهم خبر استضافته لـ«ساهور» لأهل القصر فيغضبون عليه، ولهذا لن يستطيع إيواءها أو مُساعدتها لتحرير صديقتها «مُورفُو»، كما أنّه لن يستطيع ترك المعبد مهما كانت الظروف، فقد وهب نفسه للخدمة فيه...

اقتربت أمّ «مَرمَر» وكانت تحمل ابنتها فقد اشتدّ عليها المرض ووقفت أمام السّادن دون أن تنبس ببنت شفة وعيناها محتقنتان من كثرة البُكاء، فاغرورقتٍ عيناه بالدّموع، التفتت مُونارش» ورأت وجه «مَرمَر» وهي تئن على كتف أمّها فشهقت قائلة:

-يا إلهي! إنّها من الحورائيات...مثلنا!

رفعت أمّ «مَرمَر» عينيها فكشفت «مُونارش» عن وجهها لتريها ملامحها فأجهشت الأمّ بالبكاء، قال سادن المعبد بتصميم:

-ارحلا بها إلى قرية «أُوركا»، واسألا عن «سَاهور»، وأخبراه أنني أرسلتكما إليه.

قالت «مُونارش»:

-لكنني لا أستطيع الرحيل بدون رفيقتي «مُورفو»! لا بدّ أن أساعدها.

قالت كبرى بنات الحدّاد لها:

-سنساعدها بطريقتنا، أمّا أنت فاخرجي من هنا، المدينة في حالة من الفوضى، وستلفتين إليك الأنَظار، ولن يتمكّن السّادن من حمايتك.

انطلقت «مُونارش» مع أمّ «مَرمَر» تجاه قرية «أُوركا»، بينما بدأت طيور

الوراشين تفد إلى مدينة وراشين في أفواج، غطّت أسقف البيوت، وحطّت على النوافذ والزروع والأشجار، وظللت السماء في شكل مهيب، إنّه يوم بائس، لقد قُتل اليوم رجل نبيل كما قُتل الشيخ «رَجْوان» من قبل...وطيور الوراشين لا تجتمع إلّا لخطب جليل، وربّما سيحدث قريبًا ما لم يكن في الحُسبان.

فرّ أهل المدينة إلى بيوتهم، واختبأ الجميع، غُلّقت النوافذ وخلت الطرقات، وعمّ السكون، وكأنّها صارت مدينة أشباح، اشتدّت الرّياح وكان لها دوي مخيف، طيور الوراشين تدور في السّماء، وهاهي السماء قد امتلأت بالغيوم...

أفزع صوت مزلاج باب الزّنزانة «مُورفُو»، انتفضت واقفة عندما رأت امرأة تدلف إلى زنزانتها وتمدّ يدها إليها بوشاح يُشبه الذي ترتديه تمامًا وتخبرها أن ترتديه فوق ثيابها وتتبعها، ارتدت «مُورفُو» الوشاح وأخفت وجهها بمنديل كما كانت تفعل تلك المرأة وسارت خلفها، توقفتا أمام الحارس الذي مدّ يده فوضعت المرأة فيه كيسًا من الجلد اصطكّت فيه النقود ببعضها فأصدرت صوتًا فأدركت «مُورفو» أنّها رِشوة، منعهما من الخروج وقال هامسًا وفي عينيه ترسو نظرة غاضبة:

-هذا لا يكفي...

قالت المرأة باستنكار:

-يالجشعك!

زَجرها الحارس قائلًا:

-أنسيتِ أنني سأدّعي أنّني ضُربت على رأسي وفقدتُ الوعي!

هزّت كتفيها وقالت:

-وكأنّهم سيسألونك عنها!

مدت يدها بكيس آخر وغرست عينيها في عينيه وقالت بحدّة:

-إيّاك أن تطلب المزيد.

رفعت المرأة قلنسوة الوشاح على رأسها ففعلت «مُورفُو» مثلها، ثُمّ سارت المرأة بخطى سريعة وخلفها هرولت«مُورفو» من ممر لآخر، همست وهي تمسك بذراعها:

-نحن جاريتان من جواري الأميرة «مَثابة» أفهمتِ؟

هزّت «مُورفُو» رأسها موافقة فتابعت المرأة التي بدا من كلامها أنّها جارية في القصر:

- سأساعدك لتهربي، فالأميرة سمعت بما حدث لك وأرسلتني لأحررك.

ثُمّ غيّرت الجارية نبرة صوتها وقالت بشجن:

-المسكينة تُحرر المأسورات قدر استطاعتها وتبقى هي أسيرة حبّها لزوجها «أَشْهَم».

ثُمّ عادت تهمس لـ«مُورفُو»:

-اسمعي، لا تعودي إلى «وَرَاشين» مرّة أخرى وارجعي لقومك.

لم تنبس «مُورفُو» ببنت شفة، تبعتها في صمت، صعدتا للطابق العلوي حيث دلفتا جناح الأميرة «مَثابة»، زوجة الأمير «أشهم» الذي زهد فيها ولم يأبه لشغفها به، ما زال فراق زوجته وفقدانه لابنه يؤلمه، كانت «مَثابة» تجلس في سكون، وقد حطت على وجهها الجميل سحابة حزن، دلفت «مُورفُو» مع الجارية، وألقتا التحيّة على الأميرة «مَثابة»، قالت الجارية:

-تلك هي الفتاة يا مولاتي.

التفتت «مَثابة» وقالت بصوت واهن:

-هل عثرتنّ على أُختها؟

قالت الجارية:

-بنات الحدّاد يقلن إنّها هربت لقرية «أُوركا» مع امرأة أخرى، أرسلهما سادِن المعبد إلى هُناك.

هزّت الأميرة «مَثابة» رأسها وقالت:

-بنات الحدّاد يقدّمن الكثير، ذكّريني أن أُكافئهنّ.

ثُمّ قالت الأميرة «مَثابة» لـ«مُورفُو»:

-أنتِ حرّة يا عزيزتي، سأُرسل معك من يدلّك على الطريق لقرية «أُوركا» لتلحقي بأختك.

ثُم التفتت تجاه جاريتها وقالت:

-زوّديها بالمال وبالثياب إن احتاجت.

استدارت الأميرة «مَثابة» وسارت نحو الباب المؤدي لغرفة نومها الخاصّة، كادت الجارية تنصرف وهي تسحب «مُورفُو» من ذراعها، لولا أنّ الأخيرة كشفت عن وجهها وقالت:

-لكنني أودّ استرداد أدواتي أوّلًا يا مولاتي و...

قاطعتها الجارية وهي تقرص يدها قائلة:

-اسكتي، ألا يكفيك أنّها أطلقت سراحك! هذا سيعرّضها للمساءلة.

عادت الأميرة «مَثابة»وجلست بوقار، رَسمت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة وأشارت إليها لتقترب وسألتها وهي تتمعّن في ملامحها:

-ما اسمك؟

-«مُورفُو»

-وما كانت أدواتك تلك يا «مُورفُو»؟

قالت «مُورفُو» وهي تخلّص ذراعها من قبضة الجارية:

-أسلحتي الخاصّة، وترياق خاصّ إن لم أتناوله ورفيقتي سنمرض وربّما سنموت.

رفعت الأميرة حاجبيها وقالت:

-تموتان! ألهذه الدّرجة!

صمتت الأميرة هنيهة وعادت تتمعّن في ملامح «مُورفُو» الغريبة، لم تحبّ أن تجرح شعورها بملاحظة تؤلمها فقالت بلطف:

-تبدين مُختلفة عنّا يا عزيزتي، من أيّ البلاد أنتِ؟

بدأت «مُورفُو» تحكي لها قصّتها، وكانت الأميرة تنصت إليها بفضول جميل، بعد أن أخبرتها أنّها من الحورائيات، وبعد شهقات الدّهشة من الجارية وهي تُنصت إليها مع الأميرة «مَثابة»، والأميرة تستوقفها من آن لآخر وتسألها عن المحاربين والكُتب وهمس الرّياح، وتلك القصص التي سمعت عنها من هنا وهُناك، شاعت الألفة بين الثلاثة، وأنسَتْ الأميرة «مَثابة» لـ«مُورفُو» وقررت أن تعاونها لاسترداد أسلحتها والترياق، وأرسلت حارسًا مخلصًا من حرسها الخاصّ تثق به ليقوم بالمهمة، جلست «مُورفو» في حيرة تنتظره، فبعد أن علمت أنّ الأمير «أشهم» زوج الأميرة «مَثابة» ربّما يكون هو أبو «هُرهُور» كانت تتساءل في نفسها هل تُخبر الأميرة «مَثابة» عن الغلام «هُرهُور» الذي أخبرها عنه «حمزة» أم لا، وخاصّة أن «حمزة» أخبرها في الزنزانة أنّهم يُخفون أمره حفاظًا على سلامته، قررت أن تخفي أمره، باغتتها الأميرة «مَثابة» قائلة:

-وأنتِ يا «مُورفُو»، هل خرجتِ بحثًا عن والديك مثل «مُونارش»؟

-لا.

-لماذا خرجتِ إذًا؟

-مجرّد فضول، أردت أن أرى العالم خارج الغابة فقط، وأعيش حرّة نفسي لفترة وجيزة، لكنني سأعود يومًا ما لغابة البَيْلَسَان، أمّا

«مُونارش» فهي حالة فريدة لا تتكرر كثيرًا، طفرةٌ نادرة، إنّها تُشبه الملكة «الحوراء».

عقدت الأميرة «مَثابة» حاجبيها وسألت:

-ومن هي الملكة «الحوراء»؟

-ملكة عظيمة، كانت من الحورائيات، وكان لديها تلك الحساسية المفرطة التي طغت على «مُونارش»، كانت تُشبهنا في ملامحنا، تلك العيون، وهذه الأسنان، وهذا الأنف، وهذان الحاجبان.

اقتربت «مُورفُو» من وجه الأميرة «مَثابة» وظلّت تُشير لوجهها وعينيها واغتصبت ابتسامة لتُظهر لها أسنانها المتباعدة وأضافت:

-كانت قبيحة مثلي...انظري.

ابتسمت الأميرة «مَثابة» ومسحت بلطف على وجنتها وقالت لها:

-لستِ قبيحة...أنت جميلة يا «مُورفُو» أحببتُ وجهك وملامحك.

لم تُظهر «مُورفُو» تأثّرًا بكلمات الأميرة وأكملت قائلة عن الملكة «الحوراء»:

-عندما التقت الملكة «الحوراء» بزوجها الذي أحبّها كما هي بملامحها تلك، طافت بنفسها السّعادة، وزادها هذا قوّة وثباتًا، مرّت بالطور المَلَكي، مرحلة تُشبه الشرنقة، تُغيّر فيها الحورائية تكوينها وجلدها وملامحها وتنضج، فتكون أكثر جمالاً من ذي قبل.

قالت الأميرة «مَثابة» بصوت متهدّج:

-ما أروع الحبّ...أثره على المحبين كالسحر! وكأنّكن فراشات يا «مُورفُو»!

قال «مُورفُو» بصوت خال من العاطفة:

-قد نُشبه الفراشات، لكنّنا أسرى لمهامنا التي نؤديها، أمّا الفراشات فحرّة، يكفيها الجناحان تطير بهما حيث تشاء!

-لا ريب أنّك تتمنين المرور بطور النُضج المَلَكي هذا.

هزّت «مُورفو» رأسها نافية وقالت بتصميم:

-لا.

-كيف؟

-لا أحتاج إلى ما احتاجت إليه الملكة «الحوراء» قبل أن تكون ملكةً، ولا أملك نفس مشاعر رفيقتي «مُونارش»، لا يؤلمني أنّ ملامحي هكذا! ولا أشعر بالاحتياج والنقص لكينونة أخرى، لستُ في حاجةٍ للحب!

أطلقت الأميرة «مَثابة» تنهيدة وقالت:

-كلّنا نحتاج للحبّ!..مسكينة أنتِ لقولك هذا! ومسكينة رفيقتك «مُونارش»، ستُصاب بالخيبة عندما تكتشف حقيقة العالم هنا...

طالعتها «مُورفُو» باستغراب وسألتها:

-لماذا؟

رنت إليها الأميرة «مَثابة» بعينيها الجميلتين، وطغت على نفسها عاطفة غلابة فقالت بتأثّر:

-صار الحبّ الذي جعل الحوراء ملكة وحوّلها لأنثى جميلة أمرًا نادر الوجود يا عزيزتي! قلبي يتفطّر وأذوب عشقًا في زوجي وهو لا يُبالي.

-أرأيت؟ لم يُحبّك وأنتِ جميلة! فكيف تطمح «مُونارش» للحب وهي كما هي!

قالت الأميرة «مَثابة» بتأثّر:

- قد أكون جميلة لكنني لم أنجح في هزّ أوتار قلبه ليشعر باللهفة للقاء، وليراني كلّ مرّة يراني فيها وكأنّها أوّل لقاء لنا، لتتسارع دقّات قلبه

عندما ينظر إلى عينيّ، وتُسحب روحه من بين جنبيه عندما أغيب عنه، وربّما تنجح هي مع أحدهم! قد يحالفها الحظّ يا «مُورفُو».

–وهل ما وصفتيه من اختلاج للقلب هو الحبّ؟

–نعم هو يا «مُورفُو».

–هل تشعرين بما وصفتِه عندما تنظرين لزوجك؟

–نعم، فأنا... أعشقه، قد يُعاملني بشهامة لكنّه... لم يحبّني حتى الآن!

دلفت الجارية فجأة فقطعت حوارهما، فقد عاد الحارس بأدوات «مُورفو»، كان يحمل سيفها وكنانة سهام وقوس غريب الشّكل، وقارورتين رفيعتين فقط، فقد تحطّمت باقي قوارير الترياق، بدا الانزعاج على وجه «مُورفُو»، لكنّها كانت سريعة الانضباط، فقد تناولت أسلحتها وحملت القارورتين وحيّت الأميرة التي شدّت على يدها وكانت تعلم مدى قلقها على «مُونارش» فسمحت لها بالانصراف، خرجت «مُورفو» برفقه الحارس الذي سار معها في طرقات المدينة الصامتة، رأت الطيور في كلّ مكان فسألته عنها، فأخبرها أنّها طيور الوراشين وقد أتت لخطب ما سيحدث قريبًا لكنّهم كالعادة لا يعرفونه إلّا بعد حدوثه، تركها حارس الأميرةِ «مَثابة» عند سور مدينة «وَرَاشين» الخارجي، وأشار لها تجاه قرية «أُوركا»، وعندما انصرف رفعت طرف ثوب الجواري الذي ترتديه وانطلقت تركض بأقصى سرعتها تجاه قرية «أُوركا».

17
قرية «أُوركا»

«بعضهم يبقى حيّا في حنايانا وأفئدتنا وعقولنا وإن غاب تحت التراب» هذا ما كان يُردده «حمزة» في نفسه بعد أن رَمَس قبر «مُولي» بيديه وغادر

المكان الذي دُفن فيه مع السيّد «هِشام»، عاد لبيت الضيافة وتقدّم لأقرب مقعد وجلس منهوك القوى، بعد دقائق كان السيّد «هشام» غارقًا في النوم فقد كان متعبًا للغاية، دلف«هُرهُور» وهو يبكي وفور أَن رأى «حمزة» أسرع ليختبئ في حضنه وقال بعفوية عن «مُولي» الذي أحبّه:

-كُنت أشعر أنّه أبي وأُمي وأهلي!

قال «حمزة» وهو يربّت على ظهره:

-وأنا!

-هل سترحل وتتركني هنا؟

-سأبحث عن أسرتك أوّلًا، ولكن كما اتفقنا، لا تُخبر أحدًا بسرّك.

ثُمّ تذكّر جراحه فسأله عنها قائلًا:

- أخبرني كيف هي جراح ظهرك؟

قال «هُرهُور» وقد بدا الارتياح على وجهه:

-لقد عالجتها مياه الينابيع، انظر...

خلع «هُرهُور» قميصه فرأى «حمزة» ظهره وكأنّه لم يُصب بأيّ جرح من قبل! رأى جلد الغلام وقد تغير بعد يوم احد فقط من غسله بماء ينابيع «وَرَاشين»! وظهرت عليه علامات غريبة، وضع أصابعه عليها بحذر فباغته «سِنمّار» عندما دلف البيت فجأة وهو يقول:

-تلك الزوائد تظهر على جلودنا في تلك المرحلة العمرية، ستختفي قريبًا ويزداد جلده سماكة، وستظهر تلك الزوائد فقط عندما يغوص في الماء.

ابتسم الغلام واقترب من «سنمّار» وعانقه، بدا لـ«حمزة» أنّ هناك نوعًا من الصداقة نشأ بينهما، ابتسم «حمزة» ابتسامة حزينة مغتصبة وقال لـ«سِنمّار»:

-لماذا لا تطير أنت أيضًا في الهواء كـ«سَاهور»؟

ضحك «سِنمّار» وقال وهو يداعب شعر الغلام الذي كان يحتضن جذعه بذراعه:

-هو يطير في الهواء، وأنا أغوص تحت الماء.

ثُمّ أردف وعيناه تجولان في الغرفة:

-لم يُخبرنا «سَاهور» أنّه يفعلها...كان يُخفي عنّا الأمر، لكنّ أمّي لاحظت ما يفعله بثيابه فأدركت أنّه كأبي، وأخبرتني مرارًا أنّها تظنّ أنّه نقيّ الخبيئة، لهذا يعتزلنا دومًا، يخجل من تلك الميزة، ولا يُحبّ أن يعامله النّاس بحبّ واحترام لأنّه هكذا، ولأنّه يعلم أنّه عندما يخطئ سيفقدها فيفتضح أمره، ويصبح عرضة لسخرية الآخرين.

-أن تكون مميزًا قد يكون سببًا في تعاستك.

سأله «سِنمّار» مُتعجبًا:

-كيف؟

أطرق «حمزة» قائلًا:

-سيظلمك الآخرون، تارة عندما يُعاملونك بطريقة مختلفة لأنّك مُميّز، وتارة عندما يُطالبونك بما هو فوق قُدراتك لأنّك مميّز، وعندما يطالبونك بالمثالية المُطلقة لأنّك مُميّز، وقد يكرهك البعض لنفس السبب!

هزّ «سِنمّار» كتفيه قائلًا:

-لا أرى هذا

-لكنّني أظنّ أنّ «سَاهور» يرى هذا!

-ربّما!

-أين ذهب «سَاهور»؟

-عاد للمعبد، ويرفض لقاء النّاس، حتّى أُمّي!

قال «حمزة» وهو يُمسك برأسه:

-فلنذهب إليه غدًا.

انصرف «سنمّار» بعد أن حيّاه وكان قد بدأ يعامله بلطف أكثر من ذي قبل، وأقبل «هُرَهُور» على «حمزة» يسأله:

-أين سأنام؟

استدار السيّد «هشام» الذي بدا أنّه كان يُنصت لحديث «حمزة» و«سِنمّار» ومدّ ذراعه للغلام فهرول تجاهه وتوسّد ذراعه ونام مطمئنًا، فابتَسم «حمزة» لصنيعه معه، وتمدد على فراشه هو الآخر ووضع يديه خلف رأسه، وأخذ يحدّق في سقف الغرفة وهو يسترجع حواراته مع «مُولي»، حتى غلبه النوم.

قرية «أُوركا»

طرقات واهنة على الباب أيقظت «سَاهور» في الحال، فقد كان السكون يعمّ كلّ شيء حوله، قال وهو يقف مستندًا على الحائط:

-من بالباب؟

قالت «مُونارش» وهي ترتجف:

-«مُونارش».

صاحت أمّ «مَرمَر» تتعجله ليفتح الباب:

-افتح لنا أرجوك، ابنتي ستموت.

فَتح «سَاهور» الباب فأسرعت أمّ «مَرمَر» بالدّخول هربًا من المطر، بينما تسمّرت أقدام «مُونارش» بالأرض وهي تحملق في عيني «سَاهور»

والمطر يغرقها، كان يُنصت لأنفاسها المتسارعة، وكان قد ميّز صوتين أنثويين مختلفين! فشعر أنّ هناك أخرى تقف أمامه غير التي دلفت للتوّ، فقال وهو يدير رأسه جهة اليمين:

-ادخلي من فضلك لكي أُغلق الباب.

دلفت «مُونارش» وتكوّرت على الأرض بجانب أمّ «مَرمَر»، سَطَم «سَاهور» الباب واستدار، كانت أمّ «مَرمَر» تكرر نفس الكلمات في اضطراب:

-ستموت ابنتي، ستموت «مَرمَر».

سألها «سَاهور» بعد أن تذكّر «مَرمَر» ولقاءه بها وبأمّها في معبد «وَرَاشين»:

-هل عثرتم على من يحملها لغابة البَيْلَسَان يا أمّ «مَرمَر»؟

قالت الأمّ بصوت تخنقه العبرات:

-لا...ليس بعد، لكنّ «مُونارش» أخبرتني أنها تعرف الطريق إلى هناك وربّما ستساعدني.

قال «سَاهور» وهو يسير نحو باب غرفته الملحقة بصالة المعبد البسيط:

-سأحضر لها عسلًا لعلّه يُفيدُها.

قالت «مُونارش» وأسنانها تصطكّ ببعضها البعض:

-ستكون بخير، لقد سقيتها ترياقًا خاصًّا سيفيدها، هي تحتاج فقط لبعض الوقت، لكنّ أمّها لا تصبر وتتعجّل لقلقها الشديد عليها.

ثُمّ أردفت وهي ترنو إليه:

-لم أتخيّل أنّنا سنجدك في أوّل دار نمرّ بها يا سيّد «سَاهور»، أخبرنا سادن المعبد أنّ نسأل عنك داخل قرية «أُوركا»، لقد أرسلنا إليك، ونحن نحتاج لعونك.

سار «سَاهور» في صمت ودلف غرفته وعاد وفي يديه ثوبان من الصوف، مدّ يده لـ«مُونارش» بثوب منهما وقال بأدبٍ جمّ:

-تفضّلي.

تناولت «مُونارش» الثوب من يده وتدثّرت به، أمّا أمّ «مَرمَر» فقد دثّرت ابنتها بالثوب الآخر، وحملتها في حضنها وجلست بجوار «مُونارش»، جلس «سَاهور» مستندًا بظهره على الحائط الآخر، سألته «مُونارش» بفضول شديد:

-أين الشّاب الآخر الذي أخرجتَه من البئر اليوم يا سيد «سَاهور»؟

التفت «سَاهور» بانزعاج عندما أدرك أنّها رأته وهو يُساعد «حمزة»، قال بعد صمت قصير:

-في بيت الضيافة داخل القرية، لماذا تسألين عنه؟

-وددت أن أشكره لأنّه قام بالدّفاع عنّي أنا ورفيقتي في السّوق، كان معه الشّاب الآخر الذي قتله حرّاس الملك اليوم، أحزنني موته للغاية، فقد حاول الدّفاع عنّا هو الآخر.

سألها «سَاهور»:

-وأين رفيقتك؟

-ما زالت بالسّجن، ألقى الحرّاس القبض عليها مع هذا الشّاب، وأودّ أن أساعدها، لا أدري كيف سأساعدها، لكنني لا بدّ أن أساعدها... أخبرتني بنات الحدّاد أنّهن سيحاولن مساعدتها أيضًا، وطلبن منّي الخروج من مدينة «وَرَاشين» مع أمّ «مَرمَر»، وليتني ما خرجت، فأنا أشعر بالذنب!

عاد «سَاهور» يسألها:

-ومن أين أتيتما أنتِ ورفيقتك؟

أجابت أمّ «مَرمَر» هذه المرّة قائلة:

-من غابة «البَيْلَسَان»، إنهما حورائيتان كابنتي «مَرمَر»، لقد كانت رؤيتي لـ«مُونارش» بشارة خير، أخيرًا رأيت فتاة تُشبه ابنتي وما زالت على قيد الحياة، أخبرتني أنّهن يكنّ أفضل في الغابة، والكثيرات يعشن هناك في سلام وأمان، ولا يخرجن من الغابة.

قال «سَاهور» متعجبًا:

-إن كان هذا حق فلماذا خرجت «مُونارش» ورفيقتها من الغابة وحدهما ودلفتا مدينة «وَرَاشين»؟ لا شكّ أن لرحيلهما من هناك سببًا وجيهًا!

التفتت أمّ «مَرمَر» تجاه «مُونارش» وطالعتها بنظرة يملؤها التساؤل، كانت تنتظر منها إجابة، قالت «مُونارش» على استحياء:

-لقد هربنا!

فزعت أمّ «مَرمَر» وسألتها:

-لماذا؟ هل وقع عليكما أذى من أحدٍ هناك؟

هزّت «مُونارش» رأسها نافية وقالت:

-لا، لكنني... اشتقت إلى أهلي، وخرجتُ للبحث عنهم.

وأضافت بصوت تشوبه رنّة حزن:

-ولكن يبدو أنني أخطأت، لقد كرهت مدينة «وَرَاشين» ومن فيها، وكرهت هذا الازدراء الذي رأيته في أعين الرّجال في السّوق وهم ينظرون إلى وجهي وملامحي، جلدوني بألسنتهم، ورموني بأقبح الصفات، ليس هذا وحسب، بل هم يرون النساء متاعًا يُباع ويُشترى ويُمتهن! لا بدّ أن أعود للغابة.

ثُمّ أضافت بصوت حزين:

- لقد وصفوني في «وَرَاشين» بالـ«مسخ»!

أطلق «سَاهور» تنهيدة وقال:

-لا تحزني يا «مُونارِش»، فقد قالوها على أمّي من قبل! وما زالوا يطلقونها على شعب أوركا بأكمله.

قالت أُمّ «مَرمَر» بصوت مطمئنّ:

-لقد تحسّنت «مَرمَر»، شكرًا لك يا «مُونارش»، يبدو أنّ هذا الترياق أفادها والحمد لله.

أشار «سَاهور» تجاه غرفته وقال لهما:

-ادخلا إلى غرفتي فهي أكثر دفئًا من ساحة المعبد هنا، وسأنام هنا الليلة..

قالت «مُونارش» بعفوية:

-وهل هذا معبد؟ إنّه صغير للغاية، معبد «وَرَاشين» بناؤه أعظم، وأعمدته الرخامية رائعة كما أنّها أكثر طولاً، و....

قاطعها «سَاهور» وهو يقول بثقة:

-يومًا ما سنبني مدينة عظيمة لشعب «أُوركا»، وسيكون لها معبد عظيم، ودواوين، ومدارس، وبيمارستان للعلاج.

غضنت «مُونارش» حاجبيها وسألته:

-لأيّ شعب منهما تشعر بالانتماء يا سيّد «سَاهور»؟ شعب «وَرَاشين» أم شعب «أوركا»؟

افترّ ثغر «سَاهور» عن ابتسامة أضاءت وجهه وهو يقول:

-لخالقهما!

استدار «سَاهور» تجاه الحائط وتوسّد ذراعه لينام، فقامت أمّ «مَرمَر» وحملت ابنتها ودلفت الغرفة، وتبعتها «مُونارش»، ثُمّ خرجت «مُونارش»

مرّة أُخرى بعد فترة وهي تسير على أطراف أصابعها وألقت الثوب الصوفي الذي كانت تتدثّر به على كتف «سَاهور» وهرولت نحو الغرفة مرّة أخرى وأغلقت الباب وقلبها يَخفق بشدّة.

استيقظ «سَاهور» مُبكرًا، وفتح الباب كاد يخرج لكنّه تعثّر بشيء أسقطه على وجهه، كانت «مُورفُو» تنام أمام الباب، فقد عثرت على قارورة من قوارير الترياق ملقاة على الأرض فأدركت أن «مُونارش» بالدّاخل، حاولت طرق الباب ليلًا لكنّه لم يسمعها، وثبت واقفة وأعانته على النهوض، اعتذرت إليه وقد أدركت أنّه ضرير، كانت تنظر إلى حذائه الحديدي وهو يسألها:

-من أنتِ؟

قالت وهي تحدّق في وجهه:

-اسمي «مُورفُو»، وأنت؟

-أنا «سَاهور»

-يبدو أنّ بنات الحدّاد صدقن، أخبرتني رفيقتك أنّهن سيقمن بمساعدتك على الفرار.

«مُونارش»! هل تعرفها؟

-نعم، وهي هنا بالدّاخل.

-ولكن كيف لم تسمعني؟ ألستِ من شعب أُوركا؟ لقد طرقت الباب بشدّة، يقولون إنّ أفراد شعب أُوركا ينامون نصف نومة كما الحيتان في الماء، ويظل نصف عقلهم يقظًا طوال الليل؟

كانت «مُورفُو» قد سألت الجارية التي أخرجتها من السّجن عن شعب «أُوركا»، وأخبرتها بالكثير، ابتسم «سَاهور» قائلًا:

-لأنني هجين، وقد لا يرث الهُجناء تلك الميزة، فأمّي من الأُوركا، لكنّ أبي من أهل «وَرَاشين».

أسرعت «مُورفُو» بالدخول باحثة عن «مُونارش»، وتوجّه «سَاهور» نحو البوق المعلّق على الجدار ليقوم بتنبيه غلامه الذي يرافقه ويُساعده لكي يُحضر الحليب والخبز وبعض الفاكهة لضيوفه. مرّ الوقت سريعًا، تحسّنت «مَرمَر»، وكانت أمّها ممتنة لـ«مُونارش» التي آثرت الصغيرة على نفسها وسقتها الترياق، كانت «مُورفو» قلقة للغاية، فالترياق يوشك على النفاد وكلتاهما ستحتاجه، وأرادت أن تتحدّث إلى «مُونارش» لتقنعها بالعودة إلى غابة البَيْلَسَان مع الصغيرة «مَرمَر»، فالحياة خارج الغابة لا تبدو كما كانت تظنّها الفتاتان، لكنّها لاحظت عليها شرودها، وصمتها الطويل، كما لاحظت أنّها لا ترفع عينيها عن «سَاهور»، اقتربت منها وقالت هامسة لها:

-ما بك يا فتاة؟

قالت «مُونارش» متعجبة من سؤالها:

-ما بي يا «مُورفُو»!

-لماذا تنظرين إلى «سَاهور» هكذا يا «مُونارش»؟

-لا أدري!

-توقفي فستلفتين النظر إليكِ كما أنّه فعل لا يليق بالفتيات المهذّبات.

شعرت «مُونارش» بالخجل من رفيقتها، ولاح على وجهها شبح ابتسامة حزينة، ناداهن «سَاهور» ليسرن خلفه إلى قرية أوركا، سبقهم الغلام التابع له، وسار «سَاهور» بعصاه وبخطوات الثابتة، كانت «مُونارش» تهرول خلفه، سألته في فضول وهي تحاول محازاة خطواته:

-كيف تسير هكذا وتحفظ الطريق وأنت لا تراه؟

قال «سَاهور» بثقة:

-أنا أحفظ كل شبر هنا يا «مُونارش»

-وكيف تعرف أنني «مُونارش»؟

-صوتك مختلف عن صوت رفيقتك «مُورفُو»، فهي أكثر جدية منك وصوتها خالٍ من العواطف والانفعالات، أمّا أنتِ فصوتك أكثر دفئًا وحماسًا، كما أنّك تتحدثين بسرعة.

ضحكت «مُونارش» ووضعت يدها على فمها، كانت تخجل من أسنانها، أرادت أن تُخفيها رغم أنّها تعلم أنّه لا يراها، سألته بعفوية:

-عيناك تبدوان صحيحتان! كيف فقدت بصرك؟

توقف لوهلة، ثُمّ عاد لسيره وكأنّه لم يسمعها، فقالت وهي تُلحّ عليه:

-لا تغضب من سؤالي وأجب عليه رجاء، أُريد حقًا أن أعرف!

لم يُجبها واستمر في سيره، بينما ظلّت «مُورفُو» تناديها لتسير بجوارها، فقد تطوعت لحمل «مَرمَر» بعد أن لاحظت أنّ أمّها تشكو من آلام ظهرها، لكنّ «مُونارش» لم تستجب لها وظلّت تلاحق «سَاهور» على الطريق، وقالت بمرح:

-أتدري، غابة البَيْلَسَان أكثر دفئًا من قريتكم، ومن مدينة «وَرَاشين» أيضًا، ورائحة الزهور عندنا جميلة، ننام مُبكرًا ونستيقظ مُبكرًا، وغالب طعامنا من السوائل، أحببت طعم الخبز الذي قدّمته لنا، شكرًا لك، لا أدري أين تقع قريتي التي وُلدت فيها، لكنني أظنّها بعيدة عن هنا، أتظن أن لي أشقاء يا سيّد «سَاهور»؟

لم يُجبها «سَاهور» ولم يلتفت، لكنّه بدأ يترقّب إكمالها لحديثها. لم تتوقف «مُونارش» عن الكلام، وأردفت:

-لا أدري لماذا لم يأتِ أبي لزيارتي هو وأُمّي، ألم يشتاقوا إلى رؤيتي؟ ولماذا لا يعود كل الآباء والأمهات الآخرين لرفيقاتي من الحورائيات، لماذا يتركوننا هناك ويختفون للأبد؟

ظل «سَاهور» صامتًا، وظلّت تتحدّث إليه فقالت:

-سأجدهم إن شاء الله، وسأعيش معهم، أُريد أن أتزوج وأنجب الكثير من الأبناء، وأحمل ابنتي وتحبّني وأحبّها وأرعاها كما تفعل أمّ «مَرمَر» معها، لكنني...

توقفت عن الكلام فجأة، فتوقف «سَاهور» لوهلة وسألها قبل أن يعاود السير:

-لكنّك ماذا؟

-لا شيء...لا شيء يا سيّدي.

اقتربا من القرية، بدأت البيوت تظهر لهم، سألها «سَاهور» ليحثّها على الحديث مرّة أخرى قائلًا:

-هل تبحث «مُورفُو» أيضًا عن عائلتها؟

-لا، فهي لم تخرج لهذا، هي فضولية فقط، خروجها يُشبه دراسة ميدانية للعوالم الأخرى، ستعود بعد أن تطمئن على وصولي لأهلي.

في تلك اللحظة تقدّمت «مُورفُو» في سيرها وتخطتهما وهي تقول:

-يبدو أننا سنعود لغابة البَيْلَسَان يا «مُونارش»، حياة «مَرمَر» في خطر، ويجب أن نأخذها إلى هناك.

صاحت «مُونارش» غاضبة:

-لا..لن أعود للغابة، اذهبي أنتِ واتركيني هنا.

عقدت «مُورفُو» حاجبيها، وتركتهما وتقدّمت في السير نحو البيوت، وكانت أمّ «مَرمَر» تسير ببطء خلفهم جميعًا، أمّا «مُونارش» فعادت تسأل «سَاهور»:

-والآن، أخبرني يا سيّد «سَاهور»، كيف فقدت بصرك؟

ابتسم من إصرارها على معرفة قصّته، وكان يشعر أنّها تعرف الكثير عنه من حديثها مع بنات الحدّاد، لكنّها تُصر على سماع التفاصيل منه، فانطلق يروي لها بعفوية قصّته مع أبيه، وكيف فقد بصره، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يتحدث فيها عن نفسه بتلك الطريقة مع شخص آخر، بل وربّما من المرّات النّادرة التي يتحدّث فيها إلى فتاة!

وصلوا أخيرًا إلى قرية «أُوركا»، واستقبلتهم الملكة «أهاليل» في قصرها بينما انصرف «سَاهور» باحثًا عن «حمزة»، فقد أخبروه أنّه توجّه نحو شاطئ البحر وحده، فسار «سَاهور» مع الغلام «هُرهُور» يبحثان عنه، كان الطريق المنحدر من مساكن «أوركا» تجاه شاطئ البحر ساكنًا وخاليًا من المارّة في هذا الوقت، أصوات طيور النورس تنساب شجيّة يتردد صداها في الأكواخ الخالية القريبة من الماء كما تفعل الأصداف الخالية عندما تهبّ رياح البحر وتتخللها، كان «حمزة» يقف وسط الماء الذي غطّى نصف ساقه، وكان يُمسك بقطعة من الخشب جرفتها الأمواج، التفت عندما سمع صوت ضحكات «هُرهُور»، لاحظ تلك الابتسامة الواسعة على وجه «سَاهور» والتي لم يرها من قبل منذ أن التقى به! أقبل عليهما وكان «سَاهور» بالفعل أكثر مرحًا من ذي قبل وخاصّة بعد حديثه مع «مُونارش»، يبدو أنّه كان في حاجة لإخراج تلك الذكريات المؤلمة من صدره، مجرّد البوح بها خفف عنه كثيرًا، عندما شعر بدنوّه من مكان «حمزة» قال مازحًا:

–هل قررت أن تتحوّل إلى حوتٍ من حيتان «أُوركا» أيّها المُحارب؟

اغتصب «حمزة» ابتسامة سريعة وقال:

–ليس قبل أن تفعلها أنت أولًا يا «سَاهور»!

تغيّرت ملامح «سَاهور» فجأة! وكأنّه اكتشف للتوّ أنّه اقترب من ماء البحر، تراجع بحذرٍ إلى الخلف، كاد يسقط فأمسك «حمزة» بذراعه وقال بقلق:

-ما بك يا «سَاهور»؟

-لا شيء، لنبتعد عن البحر...أرجوك!

ابتعدا عن الماء، وجلسا في بُستان صغير من بساتين قرية «أُوركا»، وانطلق الغلام يُطارد الفراشات بجوارهما، سأل «حمزة» «سَاهور» بفضول:

-لماذا ابتعدت عن ماء البحر بتلك الطريقة يا «سَاهور»؟

وضع «سَاهور» يده على صدره وقال:

-أشعر بالاختناق كلّما اقتربت من البحر، أخشى أن أتحوّل إلى حوت من حيتان أوركا، لا أريد هذا! لا أريد التحوّل لحوت أبدًا، أخشى ألا أعود لهيئتي البشرية كما حدث لبعضهم، فليس كل من يحاول ينجح! وإن لم أعد سأفقد الشيء الوحيد الذي أحبّه.

-وما هو؟

أطلق «سَاهور» تنهيدة وقال:

-صلاتي!

صمت هنيهة ثُمّ أضاف قائلًا:

- أعلم أنّ الصلة بالله لا تنقطع حتى لو تحوّلنا إلى ذرّة من تراب، لكنّها راحة نفسي ولذّتها!

حملق «حمزة» في وجه «سَاهور»، كانت عيناه البلّوريتان تحيّرانه، ران عليهما صمت لطيف، ما زال الحزن يبدو على وجه «حمزة»، دلف «سنمّار» إلى البستان، كان يبحث عنهما، دعاهما إلى الطعام، واجتمعوا في قصر الملكة «أهاليل»، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي ترى فيها «مُورفُو» السيّد «هشام»، تذكّرت ما رواه لها «حمزة» عنه في الزّنزانة، فقررت أن تسأله عن شيء هامّ جدًا بالنسبة لها، فقد يستطيع نقل «مَرمَر» في دقيقة

لغابة البَيْلَسَان، كما أنّها تستطيع الذهاب معه إلى هناك لجلب المزيد من الترياق، كانت تترقب انتهاء الجميع من تناول الطعام لتتحدّث إليه، بينما كانت «مُونارش» تراقب «سَاهور» بطرف خفيّ، نظراتها الفضولية فضحتها، لاحظت الملكة «أهاليل» اهتمامها به، كما لاحظت «مُورفُو» الملكة وهي تنظر لـ«مُونارش» بطريقة لم تُعجبها، تلاقت عيناهما لوهلة، هزّت «مُورفُو» رأسها لتحيي الملكة «أهاليل»، فبادلتها الأخيرة التحية بنظرة تعني الكثير. كان كتاب «أوري» يهتزّ، يودّ أن يبوح بسرّ إحداهن، أخرجه «حمزة» من حقيبته وقرأ جملة قصيرة:

«قد تكون أجنحة الفراشات رقيقة، لكنّها تخفق بقوّة».

رفع عينيه تجاه «مُونارش»، التي كانت تراقب «ساهور» وتقتنص من آن لآخر نظرة خاطفة يُهدهدها الحياء... فابتسم!

18

«رَيْهُقانة»

«حمزة»....

«لا تُغادر بيت الضيافة حتى أعود إليك»...قالها لي السيّد «هِشام» قبل أن يستخدم الأسْطرلاب لنقل «مَرمَر» وأمّها و«مُورفُو» إلى غابة البَيْلَسَان، فقد ساءت حالة «مَرمَر» فور أن انتهى مفعول الترياق، بينما بقيت «مُونارش» في حديقة قصر الملكة «أهاليل»، فهي ترفض العودة للغابة..

«لا تُغادر بيت الضيافة اليوم..أرجوك انتظرني حتّى أعود إليك فلديّ ما سأخبرك به»

قالها لي «سَاهور» واختفي مع غلامه الذي جاء يتعجّله ولا أعلم أين هو الآن..

«لا تُغادر بيت الضيافة إلّا معي، أفهمت! سأعود بعد ساعة فلديّ ما أُريك إيّاه»

قالها لي «سِنمّار» بتصميم وكأنّه يعطيني أمرًا عسكريًا، ولم يعد حتى اللحظة!

كنت أجلس متخبّطًا في حيرة، لماذا أنا هنا؟ وما هو دوري بالضبط؟ وأين شقيقي «خالد»، وهل قلقُ التوأمين عليّ هذا تلميح من أحدهما؟

أيّهما «خالد»؟

«سَاهور» الحليم الطباع؟ أم «سِنمّار» المتنمّر؟

أم هو شاب ثالث يختلف عنهما! ربّما هو من أبناء الملك «عدنان»...

«أشهم»، أم «فِراس»، أم «خَلدون»! أو ربّما كان هو «مُولي» الذي مات بالأمس!

استبدّ بي القلق، فبعد معرفة الجميع بأنّني مُحارب، لا شكّ أنّ «الدّواسر» الآن يعرفون بوجودي، وسيظهرون في أي لحظة، أمسكتُ بالخنجر الحلزوني ولوّحت به في الهواء كما وصف لي أبي من قبل، عندما حكى لي كيف فعل هذا بخنجر «أبادول»، ولكن..لم يحدث شيء، أعدتُ الكتاب والخنجر للحقيبة وأخرجت الجمجمة التي عثرت عليها في طريقي إلى البيمارِسْتَان، تحسست كلّ نتوء فيها بأطراف أصابعي فظهرت الفتاة التي رأيتها مرّة أخرى، أجفلت عندما تحققت من عينيها هذه المرّة، كانت تبدو أكثر وضوحًا، عقدتْ ذراعيها وقالت تلومني:

-وأخيرًا! لقد أتعبتني يا «حمزة»!

-من أنتِ؟

قالت وهي تُشير لنفسها:

-اسمي «رَيْهقانة».

-أنتِ من الجنّ؟

-نعم وأنا من ساحرات «ماذريون».

انتفضتُّ وأخرجتُ خنجر جدّي «كمال» الحلزونيّ من حقيبتي ووجهته نحوها فصرخت «رَيْهُقانة» قائلة:

-انتظر! أنا لستُ من الجيل الأوّل، أنا من الجيل الثالث من ساحرات «ماذريون».

-وما الفرق؟

- هذا الخنجر لجدّك «كمال»، سمعتك وأنت تروي للرّحالة على أبواب مدينة «وَرَاشين» ما أخبرك به كبير الأطباء في «البِيمارِسْتَان» عن جدّاتنا من ساحرات «ماذريون».

-كُنت تسمعين كلّ شيء!

هزّت «رَيْهُقانة» رأسها قائلة:

-نعم، قتل جدّك به جدّاتنا، أمّا أُمهاتنا فلم يسلكوا سلوك الجدّات المشين! وكذا نحن لم نفعل مثلهنّ، توقفنا عن هذا.

أبقيت الخنجر موجهًا تجاه طيفها الأثيري وهو يتلاعب أمامي سابحًا في الهواء وسألتها:

-وماذا كانت تفعل الجدّات؟

عقدت «رَيْهُقانة» أصابع يديها وكأنّها تخنق أحدهم وقالت:

-كنّ يقتلن الرّضع من أبناء سُكّان المملكة، ويلتهمن أعينهم، ويخنقن الفتيات الجميلات اللاتي يُطِلن النظر في المرآة ويقمن بالغناء وهن وحيدات في الليل.

اقشعرّ بدني فقُلت:

-ما أبشع صنعهن! وأين الآباء والأزواج والأجداد، هل هناك سحرة ماذريون أيضًا؟

هزّت كتفيها قائلة:

-أما تدري!

-ماذا؟

-نحن بنات «المجاهيم»!

ارتج عقلي عندما قالتها فقلت متعجبًا:

-لم يُخبرني أبي ولا جدّي ولا حتّى «أبادول» عنكن! أنت تخدعينني!!

قالت بثقة:

-جدّك «كمال» لم يُخبرك عن الخنجر الحلزوني، ولا عن البِيمارِسْتَان أيضًا!

كانت مُحقّة، فبدأت أنصت لها، فأردفت قائلة:

-بعد انتصار «المجاهيم» على «الدّواسر» واستقرارهم وتزاوجهم كثرت ذريتهم من الإناث، وبدأت الزوجات في التنافس، واشتعلت الغيرة، حربٌ طاحنة كانت تُدار في بطن الأرض! وصارت كلّ منهن تظهر قدراتها وتستعرضها لإثبات قوّتها، وكانت أعظمهن تُدعى «ماذريون»، وقد شكّلت تلك الحركة العظيمة التي أحدثت ضجّة في المملكة هنا، فظهرت ساحرات «ماذريون» ومارسن نشاطهن تجاه البشر.

دارت رأسي، كان جدّي الأكبر «أبادول» يساعد «المجاهيم» وعاونهم في حربهم على «الدّواسر»، ثُمّ جاء جدّي «كمال» ليفاجأ ببنات «المجاهيم» السفاحات من ساحرات «ماذريون» وقاتلهن ليمنع شرهن، وبقي الجيل

الثاني منهنّ، وأنجبن جيلا من الحفيدات، وتوقفن عن قتل الرّضع، وهأنذا أقف أمام واحدة من هذا الجيل الثالث، لكنّهم لم يُخبروني عنهن! لماذا؟ سألتها وما زال الخنجر موجهًا نحوها:

-وما قصّة الجماجم؟

- اثنتان فقط من ساحرات «ماذريون» القديمات والسفّاحات لم يتمكّن جدّك «كمال» من قتلهما، تقومان بحبسنا في جماجم الموتى، ويعلقن الجماجم في أعناق الغربان، أرجوك ساعدني.

-وكيف سأُساعدك!

-أعد الجمجمة لصاحبها في قبره لكي أتحرر وأعود لأمّي وأبي.. أرجوك.

-وكيف سأعرفه!

-أنا أعرف مكانه، أرجوك ساعدني.

-ذاك ضرب من الجنون، أنا هنا في مهمّة، ولديّ ما أقوم به.

-أعرف، تُريد استرداد كتابك، ومساعدة أخيك «خالد» الذي لا تعرف من هو حتى الآن، وإعادة «هُرهُور» لأبيه، والعودة لوطنك وأهلك، لازمتُك طويلًا والآن أعرف عنك الكثير، وعن من التقيت بهم أيضًا!

-يبدو أنّك تعرفين الكثير عنّي...

-وهناك ما أُحبّ أن أُخبرك به.

-وما هو؟

-أنت هنا لأنّ ما تشعر به تجاه أخيك صحيح، وسيحتاج بعضهم سماع صوتك من الدّاخل، ليرى الآخرين بعينيك أنت لا بأعينهم هم.

-ماذا تعنين يا «رَيْهُقانة»؟

-ساعدني...وسأُساعدك! فأنت الوحيد الذي رأيتني وسمعت هسيسي وهمسي، ولن يرانا إلّا المحاربون، ستبقى رفيقاتي أسيرات الجماجم حتى تُحررنا.

-وكيف سأحرركن؟

-حررني أوّلًا...وأنا سأتولّى باقي المهمة، أستطيع تحرير رفيقاتي.

-ولماذا لم يُحرركم آباؤكم من «المجاهيم»؟

-لن يرونا، ولن يسمعوا أصواتنا، هكذا هي لعنة الجدتين البائستين.

ثمّ رددت وهي تقلب سحنتها بضيق وازدراء وكأنّها تقلّد الساحرتين:

«محبوسات في الجماجم، مدفونات في القبور، طائفات بالحناجر على أعناق الطيور»

تذكّرتُ تحذير السيّد «هشام» لي، فقُلت وقد مللت من ثرثرتها:

-عودي لجمجمتك وإلّا طعنتك بخنجر جدّي وبددت كيانك الأثيري هذا إلى الأبد!

تلاشت صورتها في الحال، فقررت إلقاء جمجمتها في ماء البحر، خرجتُ غاضبًا، وسرت نحو الشّاطئ، وأخرجت الجمجمة من حقيبتي ورفعت ذراعي لكي ألقي بها فظهرت صورتها مرّة أخرى، وكانت تنوح، تلفّت يمينًا ويسارًا ووقفت حائرًا، فتحدّثتُ إليها مرّة أخرى:

-ماذا تُريدين منّي؟

-لماذا تُريد إلقائي في البحر يا «حمزة»، هل آذيتك حتى الآن؟

-لا، لكنّك تتجسسين عليّ!

-وحتى إن ألقيتني في البحر سأعرف أخبارك! اسمع؛ أُعاهدك أن أكون خادمة لك إن حررتني من تلك الجمجمة.

ثُمّ رفعت كفّها وكأنّها تؤدي قسمًا وقالت:

-هذا عهد...وأنا لا أُخلف العهد.

-لا أُريد خدماتك، ولن أذهب إلى مقبرة لأنبشها بيدي!

قالت بيأس:

-حسنًا، لا تُلقني أرجوك في بحر «حَندس»، وعدني بشيء واحد، إن وصلت إلى وادي «الفراديس» في سَلام، أعد الجمجمة لصاحبها، مقبرته عليها لوح مكسور من الرّخام الأسود، نُقش عليه حرفان من الحروف النوبية القديمة، ستجدها على أطراف مدافن وادي الفراديس، ستجدها أكثر المقابر تميّزًا يا «حمزة».

-ماذا؟ وادي «الفراديس»! هذا محال! أنتِ تعلِمين أنّ «الدّواسر» هناك، ويسكنون أجساد الهاربين من شعَب أُوركا والذين سكنوا هذا الوادي بعد احتلاله، لن أذهب إليهم بقدمي!

قالت «رَيْهُقانة» بنزق:

-حسنًا..كما تُريد.

اختفت «رَيْهُقانة»، ولم أستطع إلقاء جمجمتها في البحر، شعرت أنّ هذا لا يليق بي وأنا حفيد «أبادول» الذي يجلّه «المجاهيم» ويحترمونه! وهاهي ابنتهم تطلب منّي العون! أعدتُ الجمجمة إلى حقيبتي، وعدت لبيت الضيافة، لم يعد السيّد «هشام» و«مُورفُّو» من غابة «البَيْلَسَان»!، أقلقني هذا؛ فالأمر باستخدام «الأسْطُرلاب» لا يستغرق كلّ هذا الوقت، خرجتِ أبحث عن «ساهور»، و«سنمّار» في طرقات القرية، وكانت نظرات شعب «أُوركا» تُلاحقنَي وكأنني ارَتكبت جُرمًا ما.

عُدت لشاطئ البحر، وجلست أسترجع ما مررت به منذ وصولي، بدا لي جليًا أنّ دخولي قرية «كُروسكُو» كان لكي أعلم أنّهم شعب مظلوم طُرد قهرًا من أرضه، ولكي أُخرج «هُرهُور» منها، فما كانت طيور «وَرَاشين» لتسمح بخروجه إلّا مع مُحارب! وهأنذا معه هنا، كما أنّ لقائي بالسيد

«هشام» كان لكي أنتقل معه إلى قصر «الحوراء» في دقائق، ولتهديني «الدّيسق» لكي أرى بعينيه، أمّا مرض السيّد «هشام» فكان لكي ننتقل إلى «البِيمارِسْتَان»، وتوقفنا رغم تكرار المحاولات للانتقال عند نفس البقعة كان لكي نسير معًا إلى البيمارِسْتَان، ونمرّ بتلك الأرض الغريبة التي عثرتُ فيها على جمجمة «رَيْهُقانة»، ثُمّ لأدخل «البيمارِسْتَان» وألتقي بكبير الأطباء ليعطيني الخنجر الحلزوني، وبعضٍ الرّماد الذي لا أعرف كنهه حتّى الآن، ثُم لقائي بـ«سَاهور» في قرية «أوركا» لكي يحمل معي مهمّة رد الغلام لأبيه، وحتى دخولي سجن مدينة «وَرَاشين» كان لسبب وهو أن يدخل «سَاهور» بنفسه ليُنقذني ويراه أهل المدينة ويعرفوا سرّه الذي يُخفيه، وشبهه بأبيه، وأهليته بمكانة عظيمة بين أهل المدينة. هناك خيط مُتّصل بين تلك البُقع التي أمرّ بها، أشعر أنّ أخي هنا، إمّا في قصر «عدنان» بين أبنائه الثلاثة، أو هنا بين «سَاهور» و«سِنمّار»، أو ربّما...«هُرهُور»!

قد أكون سببًا في تغيير حاكم «وَرَاشين»، ولكن من سيكون؟ ومن يحتاج إلى دعمي لكي يصل؟

كتابي عن جناحين، لأيّ طائر هنا سيكونان؟ أو لأيّ كيان؟ وما معناهما؟

تلك العلامة التي رأتها «مسكة» هي نفس الرّسم المنقوش على نصف القلادة التي كانت حول عنق «هُرهُور»، فأين الجناح الآخر؟ ولمن السيف؟

أُصبت بصداع شديد، كان ينقر رأسي نقرًا، بدت لي «رَيْهُقانة» مرّة أخرى فزفرت بحنق عندما رأيتها معلقة في الهواء، كانت تقف باستحياء وترفع يدها لتتكلّم، قُلت بضيق وكُنت قد مللت منها:

-ماذا تُريدين؟

-كفّ عن التفكير حتى لا تفقد عقلك.

-هل تقرئين أفكاري؟

هزّت كتفيها قائلة:

-بعضها!

ثُمّ قالت قبل أن أفتح فمي لأنهرها:

-أنت لا تتواصل مع «الدّيسق» بالطريقة الصحيحة، جرّب أن تستدعيه وتطلب منه أن يُريك ما تُحبّ أن تراه!

-وكيف سأستدعيه؟

-هذا يخصّكما...أمر تُحسّانه معًا! رابط بين مُحارب وطائر من طيور مملكة البلاغة، لن أعرفه أنا بضآلتي!

انقشعت في لمحة عين، ووقفتُ أتخبط في ارتباك، حدّثت نفسي قائلًا:

- أصابت تلك العفريتة .

أطلّت مرّة أخرى وأفزعتني وهي تقول وقد عقدت حاجبيها في ضيق:

-لا تصفني بالعفريتة! أعلم أنّكم تصفون القبيحات بتلك الكلمة! ناديني باسمي الحقيقي «رَيّهُقانة»! صحيحٌ أنني عفريته، لكنّ أبي أطلق عليّ هذا الاسم لأنادى به!

تلاشت صورتها من أمامي مرّة أخرى، لم أستطع منع نفسي من الضحك، كانت تلك أوّل مرّة أضحك فيها منذ فترة طويلة بعد وصولي هنا، رفعتُ رأسي أبحث عن «الدّيسق»، لم أجده حولي، كُنت أنساه ولا أتذكّره إلّا عندما يقترب ويلوح في الأجواء، أغمضت عيني ووقفت أمام البحر، قررت أن أحدثه في عقلي، أناديه، أتنفّس بعمق حتى أستعيد صفاء ذهني الذي تبدده «رَيّهُقانة» في كلّ مرّة تظهر لي فيها، طال الأمر لكنني لم أيأس، سرت نحو الماء، توالى الموج على قدميّ فشعرت بالاسترخاء مع انسحاب كلّ موجة من تحت أقدامي، وتوغّلت حتى وصل الماء إلى منتصف ساقي، وبدأت أفكّر في السيّد «هشام»، أردت أن أرى أين هو

الآن، شعرت بطرقة على رأسي من الخلف فجأة، ففتحت عينيّ، ورأيت غابة «البَيْلَسَان» من أعلى، كان «الدّيسق» يحلّق فوقها من بعيد، بدأ يخفض من ارتفاعه، واقترب أكثر فأكثر، استقرّ فوق غصن من أغصان أشجار البَيْلَسَان، فرأيت «مُورفُو» وهي تنحني بجوار «مَرمَر» وهي ممددة على الأرض وتسقيها شيئًا وبجوارها أمّها تبكي، وأمامهم صفوف من الفتيات يرتدين ثيابًا زرقاء كتلك التي كانت ترتديها «مُورفُو» عندما التقينا في الزنزانة، كانت هناك امرأة ترتدي ثيابًا ملوّنة وعلى رأسها تاج وكانت تتحدّث إلى السيّد «هِشام»، وكان يبدو مهمومًا! تذكّرت «سَاهور» فانطلق «الدّيسق» كالقذيفة وطار بسرعة فشعرت بدوار، وقفت أترنح في مكاني، ما زلت أرى بعينيه، رأيت «سَاهور» وهو يقف أمام عجوز نحيفة ويتحدّث إليها وبجواره كانت تقف «مُونارش» ومعهم فتاة أخرى قامتها طويلة كُنت قد رأيتها في السّوق وهي تتجادل مع الرّجال عندما كانوا يتحرّشون بـ«مُورفُو» و«مُونارش»، ورأيت غلام «سَاهور» الذي يخدمه يقف بالقرب منهم، فتذكّرت «هُرهُور»، فعاد «الدّيسق» مقتربًا من قصر الملكة «أهاليل» ورأيت «هُرهُور» يركض في حديقة قصرها وهناك أربعة من الحرّاس يتبعونه لحمايته، شعرت برجفة في قلبي عندما مرّ بخاطري أنّ «الدّيسق» يستطيع التحليق فوق وادي «الفراديس»، فانطلق تجاهه بالفعل ومرّ فوق مدينة «وَرَاشين» أولًا فرأيتها من أعلى بحدودها الدائرية وسورها الخارجي، والآخر الداخلي، فتذكّرت ما قاله لي السيد «هشام» عن بناء المدينة وكيف بُنيت كما بُنيت العراق قديمًا، مرّ «الديسق» فوق ينابيع «وَرَاشين»، ثُمّ مرّ بمساحة واسعة من الأرض العفراء تفصل بين مدينة «وَرَاشين» ووادي «الفراديس»، أطلّ من بعيد جبل عظيم أيهم فعرفت أنّه جبل «أمَانوس»، وصل «الدّيسق» إلى وادي «الفراديس» ووقف فوق شجرة بلوط عتيقة، وثبّت عينيه فوق مقبرة عليها شاهد من الرّخام المكسور، محفور عليها حرفان غريبان لم أتمكّن من قراءتهما، أدركت أنّها المقبرة التي أخبرتني عنها «ريهقانة» فانقبض صدري، ورحت أتساءل

أين «الدّواسر» الآن؟ فالتفت «الدّيسق» حيث بيوت الوادي المتقاربة، وظلّ يتأمّلها ردحًا من الزّمن، أطل من بينها كيان مخيف ومهيب لمِ أرَ في حياتي مثل بشاعته، كان أكثر وضوحًا من ذلك الذي رأيته وأنا أصارع الثّعبان، لعينيه نظرة تخلع القلب، حدّق تجاه «الدّيسق» فشعرت أنّه يطالعني ويعرفني، ففزعت وشعرت وكأنني انتقلت إلى هناك، انقطع اتصالي بالدّيسق، وعاد إليّ بصري، فسقطت على ركبتيّ وكُنت أقف وماء البحر يغطي نصف ساقي فغرقت ملابسي، فزحفت نحو الشاطئ وجلستُ أحملق في الموج وهو يتوالي أمام عيني، كان قلبي يخفق بشدّة، ولم أطمئن إلاّ عندما حطّ «الدّيسق» على كتفي، وكأنّه أراد أن يطمئنني، فجلست أراقب الأفق البعيد وهو يحتضن سطح بحر «حِندس»، وقد ألقت الشمس عليهما وشاح الشفق الأحمر.

كانت تهرولِ خلفه هو والغلام وهو في طريقه لمعبده المتواضع على أطراف قرية «اُوركا»، قالت بصوت متقطّع حيث كانت أنفاسها متسارعة للغاية:

–أين تذهب يا سيّد «سَاهور».

توقّف «سَاهور» واستدار ليواجهها وقال بضيق:

–لماذا تتبعينا يا «مُونارش»؟ هذا خطر!

قالت «مُونارش» بلطف:

–رحلت «مُورفُو» مع السيّد «هِشام» و«مَرمَر» وأُمّها إلى غابة «البَيْلَسَان»، وكنت أجلس وحدي فشعرتَ بوحشة شديدة، وأنا لا أعرف أحدًا هنا غيرك!

ران عليهما صمتٌ خفيف، كان الغلام يقف خلفه في هدوء، نظرت «مُونارش» مليًا إلى «سَاهور»، كانت عيناه كبركتين هادئتين ساكنتين، ودّت لو تستطيع الغوص في أعماقهما، كان قلبها يخفق ويرجف، قال ببطء وهو يستدير مرّة أخرى:

-حسنًا، تعالي معنا، فقد أرسل السّادن إليّ رسالة مع واحدة من صديقاتك.

سألته بفضول:

-من...من؟ بنات الحدّاد؟

-نعم، لعلّك تُحبّين رؤيتها مرّة أخرى.

أطلقت «مُونارش» ضحكة طفولية وهرولت بجانبه، كانت خطواته واسعة وكانت لقصر قامتها ضيّقة الخطوات تبذل جهدًا لموازاته، انطلقت تثرثر بعفوية كما فعلتْ من قبل، تحدّثت عن نفسها بإسهاب شديد، أمّا هو فكان يُدقق كلماته التي تخرج من بين شفتيه، لكنّه كان مستمعًا جيدًا لها، وكان الغلام الذي يرافق «سَاهور» سعيدًا بحديثها، بدا فضوليًا للغاية وسألها عن سبب خروجها من الغابة، فأخبرته أنّها تبحث عن أهلها وأنّها تشتاق للحب وتتمنى الزواج، وأن تكون أمًا، فقال الغلام بعفوية:

-هذا صعب.

-لماذا؟

حدّق في وجهها وقال:

-ملامحك غريبة!

توقف «سَاهور» وبدا عليه الاضطراب، ثُمّ عبس وكاد يقول شيئًا للغلام، لكنّ «مُونارش» استوقفته بصوت واهن:

-لا عليك يا سيّد «سَاهور»، نحن نتحدّث كصديقين، لم تُحزنني كلماته، لقد أصاب الحقيقة، وأنا أعرف هذا.

عاد «سَاهور» للسير، واعتذر الغلام من «مُونارش» وكان في حرج شديد، توقفت عن الكلام، وسارت بجوارهما في سكون، فقال «سَاهور» بصوت دافئ:

-عندما يتعلّق الأمر بالحب تتلاشى الفروق، وتذوب الحواجز، وتختفي الملامح، تكفي نظرة في العين، الحبّ لا يهتم بالشّكل، ولا من أين أتينا، أو بما يرانا عليه الآخرون، تكفي رؤية شخص واحد لنا بعينيه هو، وحده فقط يمنحنا الشعور بوجودنا لأنّه لاحظنا وشعر بنا، لن يحكم عليكِ حسب مهاراتكِ، ولن يتخلّ عنك لانعدام قدراتكِ، هذا الحبّ لن يشيخ، ولن يختفي، ولن يتكئ على عصا لأنّه لا يعرج، ولن يسقط لأنّه محمول على بحر من الاشتياق المتبادل، إنّه هذه اللذة التي تعترينا عندما ننصت للصمت المريح مع من نحبّه، هكذا كان حبُ أبي لأمّي.

قالت «مُونارش» بعفوية:

-تقول هذا لأنّك لا تراني يا سيّد «سَاهور»، لو رأيتني حقًا لتجنّبت النظر إلى وجهي.

ثُمّ همست على استحياء بصوت خافت ومكتوم:

-أنا قبيحة!

قال «سَاهور» بثقة:

-الجمال شيء يُحس ويُستلذ به، فهو يقع في النفس كالغيث، هناك أشياء لا ترى ولكنّها تُحسّ بالقلب يا «مُونارش»!

كانت كلماته الدافئة بمَثابة جناحين طارت بهما «مُونارش» على الطريق، وصل الثلاثة أخيرًا إلى البناء البسيط الذي اتخذه «سَاهور»

معبدًا وبيتًا وملاذًا آمنًا له ﬞ عُزلته، كانت تنتظرهم من بنات الحدّاد الفتاة الطويلة المصارعة بوجهها البرونزي الذي لوّحته الشّمس، وكان معها عجوز نحيفة لكنّها تبدو صلبة وقويّة، كانت عيناها نابهتين، لهما نظرات تشي بأنّ لها ذهنًا حاضرًا، جلستا أمام البناء تنتظران «سَاهور»، وفور أن رأته المصارعة وقفت متأهّبة للقائه، بينما ركضت «مُونارش» نحوها وتعانقتا وقد ارتسمت على وجهيهما ابتسامتان واسعتان، رغم خشونة تلك الفتاة المصارعة كانت تحتفظ ببقايا أنثى لطيفة ﬞ قلبها، لكنّها ظروف مدينة «وَرَاشين» القاسية هي التي دفعتها لتسلك سلوك المصارعين، لتدافع عن نفسها وشقيقتيها، وتسترد حقوقها المسلوبة أحيانًا. تقدّمت وحدّثت «سَاهور» عن العجوز، كان الأمر يخصّ أمّ «هُرهُور»، نادت المصارعة على العجوز فاقتربت منهم وبدأت تحكي ما شهدته بعينيها منذ سنوات:

-كانت الطرقات خالية، وطيور الوراشين ﬞ كلّ مكان، وكانت «رَسيل» تهرول هاربة من القصر، وكُنّا نعرفها فقد اشتهرت ﬞ المدينة بجمالها وروحها المرحة، وازدادت شهرتها بعد زواج الأمير «أشهم» منها رغم رفض أبيه، كانت «رَسيل» تُغالب آلام الولادة تارة، وتعود للهرولة تارة أخرى عندما يخفّ الألم، وكُنت أراقبها من بعيد من فوق سقف داري، وكانت هناك امرأة تلاحقها، وتناديها باسمها، وكانت «رَسيل» تزيد من سرعتها وتصرخ كلّما التفتت ورأتها خلفها، لاحقتها تلك المرأة وكانت تضع قلنسوة على رأسها، أدركتها وأمسكت بيدها وأجلستها وتحدّثت إليها فهدأت «رسيل»، وصدرت منها صرخة طويلة، وانخرطت ﬞ البكاء بنشيج مسموع، وبدأت تلد صغيرها وعاونتها تلك المرأة، وحملت صغيرها ولفّته ﬞ خمار أمّه، ﬞ تلك اللحظة مرّت عجوز نوبيّة من أهل وادي الفراديس المهاجرين، كانت تحمل متاعها وتسير وهي مهمومة وقد جمعت بعض هراهير العنب المتساقطة وكادت تنصرف، نادتها تلك المرأة

وتحدّثت إليها، وأعطتها الصغير، ثُمّ خلعت قلادة من حول عنقها ووضعتها حول عنق الصغير وعقدتها حتى لا تسقط منه، وقالت شيئًا للعجوز وكانت تشير بسبابتها وكأنّها تحذّرها من شيء ما، وضعت في جرابها كيسًا كبيرًا بدا لي أنّه مال وفير، فأخفت العجوز الصبي تحت خمارها، وانحنت أمام تلك المرأة بإجلال ثُمّ انطلقت عائدة من حيث أتت، بينما استدارت المرأة لتعاون «رَسيل» على الوقوف، وسارت معها نحو البحر، تركتها قُرب الشاطئ وعادت تهرول من حيث أتت.

سألها «سَاهور» باهتمام شديد:

-هل عرفت من هي تلك المرأة؟

-لا فقد كانت تنتقب بمنديل حريري أخضر، لكنني أسرعت وخرجت من بيتي خلسة وتبعتها وهي عائدة من جهة الشاطىء، ورأيتها تدلف قصر الملك «عدنان»، إنّها من نساء القصر!

-لماذا لم تُخبريهم في القصر؟ لماذا لم تُخبري زوجها الأمير «أَشهم» بما رأيتِه؟

قالت العجوز بقلق وتوتّر:

-طاردتني طيور الوراشين فعُدت لبيتي وأنا أضع يديّ على رأسي وأركض، وكلّما خرجت من داري كانت طيور الوراشين تنقر رأسي فأعود، لم أخرج منذ سنوات، كُنت سجينة، أعاقب لأنني رأيت ما لا ينبغي عليّ رؤيته، كان لي ولدان تزوجا وخرجا من داري، ومن آن لآخر يحملان إلي الطعام وينصرفان، ظنني النّاس مجنونة لأنني أخشى الخروج من داري، وكنت أخشى إخبارهم بأمر الطيور.

ثُمّ وضعت أصابعها على عينها اليُمنى وقالت:

-في أحد الأيّام، وبعد حادث المذبحة، أتى إلينا حارس من حُرّاس الملك «عدنان» ليسأل عن أحد أبنائي فهما صديقان منذ الصغر، كدت

أُخبره عمّا رأيته فنقرني طائر من طيور الوراشين في عيني،كان قد ظهر فجأة ودلف من النّافذة كقذيفة المدفع، وقضيت شهورًا أتلقى العلاج، ترك هذا انتفاخ في جفن عيني.

أمسكت العجوز بيد «سَاهور» ووضعتها على عينها ليتحسس جفنها، فرقّ لحالها ومسح على رأسها وقال:

-لا بأس يا أُمّاه، كانت الطيور تحمي سرّ الصغير.

قالت بصوت مرتعش:

-أدركت أنّ الصمت منجاة لي، وأنّ هناك خطبًا جليلًا يتعلّق بهذا الصبي. أمّا بالأمس عندما أتاني سادن المعبد وسألني إن كُنت قد رأيت شيئًا يوم مذبحة نساء الأُوركا أو لا، وكانت تلك هي المرّة الأولى والوحيدة التي يسألني فيها أحدهم عن هذا الأمر، فهززت رأسي موافقة وأصابني الهلع، وأغمضت عيني وأخفيت وجهي بيديّ، لم يحدث شيء ولم تؤذني الطيور، فانطلقت أكمل له الحكاية، وأنصت السّادن إليّ، وصحبني معه للمعبد، وكانت طيور الوراشين تفترش الأرض أمامي وكأنّها تشجّعني على السير، وهأنذا أتيت بنفسي ولم تتبعني الطيور إلى هنا!

طأطأ «سَاهور» رأسه وقال بصوت خفيض:

-وكيف سنصل إلى تلك المرأة؟

قالت العجوز بحماس:

-لا بدّ أن يعلم أهل القصر أنّ القلادة ظهرت، أحدِثوا جلبة حتى تتحدث تلك المرأة، وتخرج من خدرها.

هزّ «سَاهور» رأسه، وساد عليهم صمت حتى بدده قائلًا:

-إن أحببتما البقاء الليلة في المعبد هنا فلكما هذا، فالرّياح تشتد، وأشمّ فيها رائحة المطر!

أضاءت السماء ببروق متوالية مزّقت صفحة السماء، ودوى صوت الرّعد بضربة من ضرباته فارتجت قلوبهم لها، فقالت المصارعة بتصميم وهي تستعدّ للرحيل:

-بل سنعود الآن، حتى لا يشعر أحد بغيابنا.

انصرفتا عائدتين إلى مدينة «وَرَاشين»، وعاد «سَاهور» و«مُونارش» إلى قرية «أوركا»، وكان الغلام يهرول أمامهما على الطريق، وكانت «مُونارش» تستعذب البرد، وتستعذب المطر، وتستعذب السير بجوار «سَاهور»، حتى وهو صامت، حتى وهو شارد الذّهن كما تراه، حتى وإن نسي أنّها تسير بجواره!

19

قصر «عدنان»

شاع في قصر الملك «عدنان» خبر مرض «مَيلاء»[1] زوجة «خلدون»، لقد أتعبها الحمل في شهرها الأخير، يبدو أنّها ستلد قريبًا...قريبًا جدًا، وقد تلد قبل الأميرة «سُندس»[2] بأيام قليلة، كانت الأميرة «سُندس» واثقة أنّ ثمة شيئًا يجب عليها القيام به، لا بدّ أن تتحرّك فقد تسبقها تلك اللعينة وتلد الذّكر قبلها!

يجب أن تكون على أهبة الاستعداد لحماية حلمها وحلم زوجها «فِراس»، الحكم، التاج، السلطة، ولاية العهد بعد الملك «عدنان» الذي

(١) ميلاء هي الشجرة الكثيرة الفروع.

(٢) سُندس هو ضرب من نسيج الحرير أو الدّيباج.

سيموت قريبًا كما تتمنى دومًا كلّ مرّة تنظر فيها إلى وجهه السمين، لا بدّ أن تفكّر في طريقة ما، ولأنّ وصيفتها التي تثق بها أشارت عليها بالذّهاب إلى عرّافة فقد استحسنت فكرتها وخاصّة أنّها كانت ترزح تحت موجة من الضغوط جعلتها غارقة في حالة من السوداوية، والآن ستذهب معها إلى هناك..

كانت السّاحرة التي ذهبت إليها الأميرة «سُندس» تجلس وسط دارها على أطراف مدينة «وَرَاشين» وبين يديها وعاء نحاسي تتصاعد منه أدخنة ملوّنة، كان حاجباها الغليظان كشاربين فوق عينيها السوداوين المحلّقتين بنتوءين من الجلد السميك المنتفخ مما جعل وجهها يبدو كوجه ضفدع يحدّق في بركة مظلمة، تريثت الأميرة قليلًا قبل أن تدلف لدار تلك السّاحرة، فرائحة المكان كانت نتنة وتُشبه رائحة الجيفة، اقتربت الأميرة بخطوات مترنّحة وأمامها كانت وصيفتها تجرّ قدميها جرًّا، جلست «سُندس» أمام السّاحرة بعينيها المتحرّكتين بسرعة وقالت:

-أخبريني، من منّا ستنجب الذّكر لزوجها؟ أنا أم «مَيلاء»؟

نطقت السّاحرة بصوت مزدوج، وكأنّ هناك كيانان يتحدّثان في آن واحد وقالت:

-كلتاكما ستلد ذكرًا لزوجها.

أجفلت «سُندس» عندما سمعت الصوتين، لكنّها عادت تسألها وعلى وجهها تقطيبة تقطر حقدًا وغلًا:

-من منّا ستلد أولًا؟

انحنت السّاحرة للأمام فبدا وجهها وكأنّه يطير فوق سحب الدّخان المتصاعدة من الوعاء وقالت:

-«مَيلاء».

صرخت «سُندس» بحنق وهي تعصر رداءها بقبضة يدها وقالت:

-لا ينبغي لهذا أن يحدث أبدًا...أبدًا!

ثُمّ حدّقت «سُندس» في عيني السّاحرة وقالت بصوت غليظ:

-ساعديني! ولك ما تطلبينه!

قالت السّاحرة وهي تحرّك رأسها بشكل مريب:

-إمّا أن تموت «مَيلاء» قبل أن تلد ابنها، أو يموت هو بعد أن تلده، أو...

-أو ماذا؟

حدّقت السّاحرة في وجهها هنيهة وغمغمت:

-أو يموت أبوه!

أمسكت «سُندس» ببطنها المتكوّر وكأنّها تحمل الكرة الأرضية بين يديها وقالت:

-وسأكون أنا ملكة «وَرَاشين» وما حولها..

شهقت السّاحرة وهي تنثر المزيد من المسحوق الذي تضعه على النار، فازدادت كثافة الأدخنة الملوّنة، وأغمضت عينيها فأشارت الوصيفة للأميرة لكي تضع كيسًا من الذهب بين يدي السّاحرة، فوضعته وهي تقول:

-افعلي ما ترينه مناسبًا...ولك المزيد.

هزّت السّاحرة رأسها، وانصرفت الأميرة «سندس» مع وصيفتها وهي تتلفّت، سألت وصيفتها هامسة عندما خرجتا إلى الطريق:

-وكأننا نتحدّث إلى امرأتين!

-نعم يا مولاتي، فهما اثنتان.

شعرت «سُندس» بالذعر وسألتها:

-تقصدين أنّها ملبوسة بكيانٍ آخر؟

-بل ملبوسة بكيانين! ساحرتين من ساحرات ماذريون يسكنان تلك المرأة، ستهتمّان بمولود «مَيلاء» فلا تقلقي يا مولاتي..

قالت القابلة بهدوء للأميرة «مَيلاء» وهي تزمّ شفتيها:

-كلّ المطلوب منك هو التنفّس بانتظام، شهيق عميق وزفير أطول في كلّ مرّة يداهمك فيها الألم يا مولاتي.

شهقت «ميلاء» بعصبية وصرخت قائلة:

-أشعر أنّ أضلاعي تُطحن طحنًا مع النفس الخارج منّي، هذا ألم لا يُحتمل، اسقيني شيئًا يبطله.

قالت وصيفتها وهي تمسح على رأسها:

-بعد قليل ستنجبين الذكر الذي سيتوّج أباه ملكا لـ«وَرَاشين»، تحمّلي يا مولاتي.

قالت «مَيلاء» بمرارة:

-وماذا سأفعل لو كانت أنثى! وقد تُنجب «سُندس» الذّكر لزوجها «فِراس» ويفوز بولاية العهد قبل «خلدون».

همست وصيفتها في أُذنها قائلة:

-وقتها...سنمحوه من الوجود!

تعالى صراخ «مَيلاء»، ومضت ساعة عسيرة عليها، وأخيرًا انطلق بكاء طفلها ليرتجّ القصر كلّه، رُزق «خلدون» بالذّكر، ولدت زوجته «مَيلاء» الذّكر قبل أن تلد «سُندس»، وكانت الأخيرة تقف وقد تجهّم وجهها

واختلجت شفتاها في غيظ، امتلأ صدرها بفيض من الكراهية المتّقدة تجاه «مَيلاء»، كانت تختلج وتكاد تثب في مكانها وهي تشعر بخيبة أمل فظيعة، ظنّت أن السّاحرة ستقتل «مَيلاء» وولدها وهي تلده، أو ستقتل الصبي على الأقلّ! لكنّها لم تفعل! لا بدّ أن تتحرّك قبل مراسم التتويج.

كانت الغرفة تسبح في ضوء أزرق شاحب، ابتسامات الصغير كانت تضيء وجهه الملائكي وهو نائم بينما تحتفل أمّه مع زوجها في جناح الملك «عدنان»، خلت الغرفة من الوصيفات فجأة فبقي وحيدًا ونسمات الهواء الرقيقة تُداعب النوافذ، فقد أمرت الأميرة «مَيلاء» بتوزيع الهدايا على الوصيفات فهرولن لتنال كلّ واحدة منهنّ نصيبها وتَركنَ الصغير وحده، تسلل خيط رفيع من الدخّان من تحت زجاج النّافذة غير محكمة الإغلاق، تكوّر الخيط في الهواء وبدت عجوز مهيبة لها عينان تبدوان كبئرين عميقين أسودين، وصعدت فوق صدر الصغير كالذّئبة تجثم على صدر فريستها، ازرقّ وجهه وبدأ يسعل، خرج من فمه الكثير من اللعاب، وتشنّجت أطرافه، لم يتمكّن المسكين من الصراخ، كادت تقتله، انفتح باب الغرفة وانصفق بعنف، دخلت الأميرة «مَثابة» للغرفة فجأة وراعها انصفاق الباب! أرادت أن تُبارك لـ«مَيلاء» على ولادتها وتُشاركها فرحتها، صرخت في فزع عندما رأت الصغير ينازع وحملته بين يديها وهي تبسمل وتحوقل، رأت الطيف المخيف وهو يتسرّب ويبتعد، في تلك اللحظة دلفت الوصيفات مرّة أخرى، صرخن في وجهها لكنّها ظلّت تربّت على ظهر الصغير ونفخت في فمه الصغير فشهق وانطلق يصرخ ويبكي، دمعت عيناها عندما رأته يتنفّس، لم تسلم المسكينة من سوء الظنّ الذي وقع بها، وقد كانت زوجات الأمراء الثلاثة يتربصن ببعضهن البعض منذ

شهور، فشاع في القصر أنّ الأميرة «مَثابة» حاولت قتل المولود الجديد، صفعتها «مَيلاء» بقوّة على وجهها وقالت لها أمام الجميع:

-لقد أقدمتِ على فعل جريمة حقيرة! وستُعاقبين!

كرر «فِراس» سؤاله لـ«مَثابة» للمرّة الخامسة، وكانت تُكرر نفس الإجابة:

-أخبرتكم أنني رأيت طيفًا لعفريتة من الجنّ تجثم على صدر الصغير، كان مزرقًا واللعاب يخرج من فمه، لولا البسملة والحوقلة لمات، لا ريب أنّها من ساحرات «ماذريون» اللاتي يقتلن الصغار.

زفر «فِراس» بحنق، كانت عيناه تطالعها بنظرات تتسم بالخطورة وهو يقول لها:

-قولي الحقيقة لعلّ اعترافك يشفع لك عند جلالة الملك «عدنان» يا «مَثابة».

أمسكت «مَثابة» برأسها بين يديها وقالت:

-لم أفعلها...صدّقوني!

هزّت «سُندس» كتفيها قائلة:

-لا وجود لساحرات «ماذريون»! كيف تجرؤين!

هرولت «مَثابة» نحو زوجها وقالت له برجاء:

-»أشهم» أنت تُصدّقني..أليس كذلك؟

التمعت عيناه ببريق بارد، كان كئيبًا في صمته، همهم أخيرًا بصوت واهن قائلًا:

-نعم أصدقك.

اندفع «فِراس» نحوها وأبعدها عنه وقال بعصبية شديدة:

-قولي الحقيقة يا «مَثابة»، امنحيني شيئًا أشفع لك به عند أبي، هل أصابتك الغيرة من «مَيلاء» و«سُندس».

التفتت نحو زوجها «اَشهم» وطالعته بنظرة توسّل ورجاء، أرادت منه أن يُدافع عنها أو يقول شيئًا لكنّه عاد لصمته، تراجعت خطوة للخلف وماتت عيناها، ما عاد لنظراتها روح ترى بها من حولها، لقد طعنها حبيبها بسكوته الخنيق، وهو يعلم أنّها لم تُنجب لأنّه لم يلمسها وليس لسوءٍ بها، أدركت الآن أنّ زهده فيها لأنّه لا يملك في فؤادِه ذرّة حب لها، سالت الدموع من عينيها وجلست في سكون، انصرف «أَشهم» مكروبًا، الآن يريد أن يكون وحيدًا أكثر من ذي قبل، انطلق «فِراس» نحو ديوان الملك «عدنان» ليُلحّ على أبيه ليأمر حرّاسه بإلقاء القَبض عليها، لكنّ الملك «عدنان» كان يشعر أنّ هناك خطبًا ما! وخاصّة أنّه يعرف «مَثابة» وقد اختارها كزوجة لولده بنفسه، فأمر بحبسها في غُرفتها حتى ينظر في أمرها، مما أثار غضب «سُندس»، و«مَيلاء».

كان الملك «عدنان» في أبهى زينته، أُعدّت الولائم احتفالًا بحفيده الذي أطلق «خلدون» عليه اسم جدّه «عدنان» تبرّكًا به، وكانت «مَيلاء» حاذقة عندما أشارت عليه بهذا، فقد كان هذا سببًا في سعادة الملك، تناول الملك الطعام بشراهة كعادته، أمضى وقتًا لطيفًا قبل أن يشعر بكسلٍ شديد وصداع يحرق رأسه فتوجه نحو جناحه للنوم، في تلك اللحظة كانت «سُندس» في غرفتها مع زوجها «فِراس» تداعب خصلات شعرها بعصبية وهي تقول له:

-يجب أن تقتل أخاك «خلدون».

رفع «فِراس» بصره إليها وزجرها قائلًا:

-ماذا دهاكِ يا امرأة؟ ما هذه الدعابة السخيفة!

هزّت «سُندس» كتفيها باستهزاء وقالت:

-ليست دُعابة، أنا أعني ما أقوله، سألد ذكرًا، ولكي تكون أنت وليًا للعهد لا بدّ أن يموت «خلدون»، فهو الآن المرشح الأوّل لولاية العهد حسب أحكام والدك التي وضعها بنفسه!!

اقترب «فِراس» حثيثًا منها وقال:

-فليكُن هو الملك طالما تلك هي القوانين التي شرعها أبي.

صرخت بحنق شديد:

-هُراء من تأليف بطانة أبيك البلهاء، لا بدّ أن يتغيّر كلّ هذا.

تململ في عصبية وقال:

-تعلِمين أنّ تلك القوانين شُرعت بأمرٍ من أبي عندما علم بزواج «أشهم» من مسخ من مسوخ «أوركا»، وتنصّ على أن تكون الزوجة من شعب مَدينة «وَرَاشين»، و...

قاطعته بحدّة قائلة:

-دعك من هذا الهُراء وأجبني...أنت! هل سترضى بالفُتات؟ وأن تكون في الظل؟ وأن تكون كلمة أخيك «خلدون» على رقبتك!

-لن يجرؤ! ولن يقوم بخيانتي أبدًا.

ضحكت «سُندس» وتمددت على أريكتها وقالت بصوت تشوبه رنّه استهزاء:

-الخيانة في دمكم ورثتموها من أبيكم!

تلوّن وجه «فِراس» وأقبل على «سُندس» غاضبًا فرشقته بنظرة متوعّدة وقالت بصوت غليظ:

-فعلها أبوك من قبل وقتل أخاه «رَجْوان»...أنسيت؟

تخشّبت ساقا «فِراس» وقال حانقًا:

-لن أقتل أخي بيدي، ولن يفعل هو أبدًا!

اقتربت منه بعينيها نصف المغمضتين وضحكاتها النّاعمة وتعلّقت بعنقه في دلال وقالت:

-لن تعي ما أقوله إلّا عندما تستعيد رباطة جأشك، اهدأ وفكّر جيدًا يا حبيبي لم يتمكّن جمالها من تشتيت ذهنه من حالة الاستغراق التي كان فيها، كانت تلك أسخف دعابة سمعها في حياته، أن يقتل أخاه من أجل التاج! هل حقًا هي تعنيها؟

انصرف وحدقتا عينيه مفتوحتان على وسعهما، أراد أن يبتعد عنها الآن...وبسرعة.

أمضى «فِراس» ليلته في غرفة أخرى، انضم إليه «أشهم» وباتا ليلتهما وكلّ منهما عالق في فقاعة وحده، كان «أَشهم» حزينًا لما ألمّ بزوجته، قد يكون قد زهد فيها بعد زواجهما لكنّه يُحبّها بطريقة ما! هناك حاجز بينهما يصعب عليه وصفه، شيء ما يمنعه عنها، وربّما هذا الحاجز بينه وبين قلبه هو في تلك المساحات اللامرئية بين الضلوع...هو لا يدري...

في نفس الغرفة كان «فِراس» غاضبًا، فقد كانت كلمات زوجته التي يعشقها شديدة الجرأة حتى أنّها كشفت تلك الزوايا المظلمة من نفسه، والتي لا يستطيع دخولها إلّا بمساعدة أحدهم، وخاصّة لو كان بعقلية «سُندس» الشيطانية، نام بصعوبة ليستيقظ في الصباح على صراخ وعويل، مات!! مات!!

نساء القصر ينتحبون، لقد مات! ازدحمت غرفة الملك «عدنان» بالحرّاس والأطباء، فحصوه مرارًا واجتمعوا على رأي واحد، لقد تم تسميمه! تم إلقاء القبض على العديد من الجواري والخدم المقرّبين من

الملك، كانوا جميعًا يتخبّطون في حيرة، ستمر لحظات عصيبة على مدينة «وَرَاشين»، اقتربت «سُندس» من «مَيلاء وهمست بصوت خفيض وهي تضغط على كتفها:

-ألهذه الدّرجة تتعجلين ارتداء التّاج!

اضطربت «مَيلاء» ودفعت يدها بعنف وانخرطت في بكاء هستيري، قامت تهرول نحو جناحها وهي ترتجف، بينما وقفت «سُندس» وهي تضع يدها على بطنها المتكوّر أمامها، كانت كالقدر يغلي بما فيه، وكان زوجها «فراس» يقف مكروبًا وقد تدلّى فكّه إلى أسفل في اكتئاب شديد، مرّت الساعات تجرّ بعضها، وبدأ كبار القوم يلتفّون حول ملكهم الجديد «خلدون»، تلك هي الدنيا، اليوم سيُدفن ملك، وسيتوّج آخر، وسيبدأ عهد جديد.

-أرأيت كيف قتل أخوك «خلدون» الغبي والدك؟

صاح «فِراس» غاضبًا:

-كفّي عن هذا يا «سُندس»...توقفي!

رفعت «سُندس» حاجبيها وقالت بازدراء:

-هل أنت غبيٍ؟ لقد وضعت له «ميلاء» السمّ في الماء، كانت تعلم أنّه يستيقظ ليلا ليشرب الماء عدّة مرّات كعادته، أنسيت أن وصيفتها المقرّبة تكون شقيقة الجارية المحببة لأبيك؟

قال «فِراس» وهو ينفض الفكرة عن رأسه:

-هذا لا يعني أنّ أخي «خلدون» هو من فعلها، وربّما شخصٌ آخر..ليس لديكِ الدليل، تلك مجرّد شكوك.

هزّت كتفيها قائلة:

-ولم لا يفعلها، كان أبوك هو العقبة الوحيدة بينه وبين التاج، موت الملك «عدنان» يعني تنصيب «خلدون» ملكًا بدلًا منه في الحال، وهاهو يقتله يوم احتفاله بحفيده، أحمق وسيظل أحمق للأبد، وقد...يقتلك أنت أيضًا!

-لا...لا..توقفي عن هذا..اسكتي!

قالها «فِراس» وهو يقبض على فمها بقوّة، تركت أصابعه علامات حمراء على وجنتيها، أغضبها هذا وكانت تتأجج غيظًا، تركها وانصرف وهو يطرق الأرض بخطوات جندي محارب، كان وقع صوت خطواته وهو يبتعد يدقّ على قلبها دقًا وكأنه يطحنه..

في تلك اللحظة كان «الدّيسق» يُحلّق فوق مدينة «وَرَاشين» وينقل لـ«حمزة» مراسم تتويج «خلدون» ملكًا على مدينة «وَرَاشين»، ما زالت طيور الوَرَاشين على أسقف البُيوت، والأشجار، والنّخيل، وفي الطرقات، رأى «حمزة» التاج، ورأى وجه «خلدون»، وزوجته وهي تقف بخيلاء وهي تحمل ابنها وقد أطلّ الفخر من عينيها، ورأى الشعب وهو يلتفّ حوله ويردد اسمه، لم يظهر «فِراس»، ولا «أَشهم»، فقد أمر الملك «خلدون» بحبس أخويه في غرفتيهما، وكان هذا أوّل قرار له، أمّا الثاني فكان إلقاء «مَثابة» زوجة أخيه في بئر «دِرواس» عقابًا لها على محاولة قتلها لولده، كان التاج بين يديّ كبير مستشاري الملك «عدنان»، أوشك أن يضعه على رأس «خلدون»، وفجأة! انقضّت طيور الوراشين عليهم وصارت تخشخش وتقلقل وتزوم وتقرقع، وتنقر رؤوسهم وأياديهم، فرّوا جميعًا إلى داخل القصر، وهربت «مَيلاء» بولدها إلى غرفتها، وركض «خلدون» في هلع، رفضت طيور الوَرَاشين أن يُنصّب «خلدون» ملكًا عليها، خلت الطرقات من النّاس، وغُلّقت الأبواب، وسكنت المدينة.

انتهى «الدّيسق» من نقل المشهد لـ«حمزة»، فهمس بصوت واثق وهو يمسح وجهه:

-لا بدّ أن نذهب إلى «وَرَاشين» الآن، لا بدّ من ردّ «هُرهُور» لأبيه.

«لا بدّ من دخول المدينة بطريقة لافتة للنظر، لكي يتجمّع أهل «وَرَاشين» ويستمعون لما سيُقال، وحتى يحميكم حضورهم من طُغيان الحرّاس»

كانت هذه كلمات «حمزة»، وقد وافقه الجميع في الرّأي، حمل شباب «أُوركا» النواقيس وساروا في صفوف ودلفوا المدينة وهم يدقّونها، أطلقوا صيحات «أوركا» بلغتهم الخاصّة، وكانت لغتهم غير مفهومة للكثيرين من أهل مدينة «وَرَاشين» لكنّها أصدرت ضجّة كافية، كان «سَاهور» يرتدي القلادة ويظهرها على صدره، تجمّع النّاس خلفهم وهم يتساءلون عمّا حدث، وصلوا بعد أن أحدثوا جلبة كافية وتجمهر أهل المدينة حولهم، وكانت طيور الوراشين تُحلّق في السماء فوقهم في جماعات، وتتنقّل من غصن لآخر، ومن سقف بيت لآخر في حركة منتظمة ولافتة للنظر، وقف «سَاهور» وسط الميدان المقابل لقصر عمّه، وورفع يده فسكن النّاس، وكان مشهده وهو يرتقي في الهواء لا يزال يهدهد عقولهم، تذكّروا أباه الشيخ «رَجّوان»، فوقفوا في سكون لينصتوا إليه كما كانوا ينصتون لأبيه، نادى «سَاهور» على أبناء عمّه الثلاثة، لم يستجب «خلدون»، كان مُرتابًا كعادته، لكنّه أجبر «فراس» و«أشهم» على الخروج وسط فيلق من الحرّاس ليسمعا منه، بدأَ «سَاهور» يروي قصّة «هُرهُور» وهو يستند على عصاه بيديه، وكان جسد «أَشْهَم» يختلج وعيناه تذرفان الدّموع، وكانت العجوز التي شهدت ما حدث من نافذة بيتها تقف بجواره، انضمّت إليه لتُثبت شهادتها أمام أهل المدينة، ما عادت تخاف طيور الوراشين، وكانت بنات الحداد على مقربة منها..

خلع «سَاهور» القلادة ورفعها بيده اليُمنى، شقّ الأمير «أَشهم» صفوف الحرّاس وجذبها من يده وتفحّصها وهمس وقد دمعت عيناه:

-هذا نصف قلادة أُمّي كانت قد أهدتها لـ«رَسيل»، عندما رأيتك ترتديها وأنت تقف أمام أبي بالقصر وقع شيء في نفسي، لكنني لم أكن على يقين أنّها هي نفس القلادة، أين نصفها الآخر، وأين ولدي...أين؟..أين؟

قال «سَاهور» بأناة واهتمام وهو يهزّ رأسه:

-«هُرهُور» في قرية «أُوركا» مع «حمزة».

حدّجه «فِراس» بنظرة حديدية باردة وقال:

- كذب وهراء واحتيال! لماذا لم يظهر هذا المسخ الهُرهُور إلّا الآن، تُريدون أن يتولّى «أَشهم» الحكم لأنّه الأقرب لقلوبكم!

حدّق «أَشهم» في وجه «فِراس» بضجر وقال:

-لا أُريد الملك ولا أطمح للتاج! أُريد استرداد ابني فقط! ولتذهب القوانين للجحيم.

قال «فِراس» بحنق شديد:

-لن نسمح بدخول المسوخ إلى قصر أبي!

-سأستردّ ولدي «هُرهُور» وأرحل معه ومع «مَثابة» من مدينة «وَرَاشين» كلّها إن أحببتما أنت و«خلدون».

ابتسم «سَاهور» ورفع صوته قائلًا:

-لن تسمح لك طيور الوَرَاشين بمغادرة المدينة يا «أَشهَم»!

نظر إليه «فِراس» نظرة نصف هالعة وقال:

-أيّ هراء تتحدّث عنه!

قال «سَاهور» بصوت واثق:

-لاحقت تلك الطيور أبي عندما كنّا هنا في زيارة عمّي «عَدنان»، وكدنا نغادر المدينة ونتخطى حدودها عندما حطّت على رأسه وكتفيه وتجمّعت حوله، بدأوا يصدرون هدهدات غريبة، وكأنّهم يتوسلّون إليه حتى لا يُغادر المدينة، كانت الطيور تنوح كلّما تقدّمنا خطوة للأمام، وقف أبي للحظات وأغمض عينيه، وعندما فتحهما كانتا هادئتين كما لم أرهما من قبل، تنهّد وقال بصوت خفيض وكان يحدّث تلك الطيور:

«لا أُريد المُلك...لا أُريده!»

رفض لكي لا يخسر أخاه، ورحل باختياره، وكان على خطأ، وما كان يظنّ أنَّ أخاه سيأمر بقتله! ولو أنّه بقي هنا ولم يخرج واستجاب لمطلب شعب «وَرَاشين» لأعانه الله، ولرأينا خيرًا، ولرُدم بئر «دِرواس»، ولقتل الوحش، ولعمّ الخير على الجميع، الرّجال والنّاس، ولكان لـ«وَرَاشين» شأن أعظم، ولكان لشعب «أُوركا» وشعب «وَرَاشين» خير وفير، فلا تفعل كما فعل أبي، فقد رعت الطيور ولدك في قرية «كُروسكُو» ومنعت خروجه منها إلّا مع مُحارب، فتولَّ أمر تلك المدينة وأعد لها أمجادها القديمة، ولتُغيّر تلك القوانين..

لا بد أن ينال الجميع نفس الحقوق، ونفس الفرص، ونفس الالتزامات، يجب أن يُولّى الأصلح، ويوسّد الأمر لأهله، هناك قواعد غير مرئية تسري بيننا، يجب معاملة النّاس بشكل متساوٍ، وعدم الانحياز لفئة معينة، أو تعريضهم للظلم والعنصرية لأنّهم مختلفون، فكلنا سواسية، لا يُرفع أحد لأنّه أجمل، أو لأنّه أقوى، أو لأنّه أغنى، بل لأنّه الأفضل بما لديه من ميزات، فهذا هو العدل.

كان «خلدون» يُنصت إلى حوارهم وهو يحتمي بحرسه، استشاط غضبًا عندما سمع كلمات «سَاهور» فصاح صيحة مجلجلة وأمر جنوده قائلًا:

-اقبضوا عليه.

اندفع الحرّاس نحو «سَاهور»، فقفز أخوه «سنمّار» أمامه واستلّ سيفه، وانطلق يجندل بسيفه يمينًا ويسارًا وعاونه شباب «أُوركا» والتفّ الحشد من شعب «وَرَاشين» حول «سَاهور» ليحموه من حرّاس «خلدون»، تراجع فيلق الحرّاس الذي كان يحمي «فراس» و«أَشْهَم»، وكان الأخير يقاومهم، يُريد المضي مع أبناء عمّه بحثًا عن ابنه، لكنّه لم يتمكّن، اشتدّت الرّياح فجأة، وأحسّ الجميع بلسعات الرّمال الصغيرة كالإبر على وجوههم، وأظلمت السّماء فجأة، ودوّى صوت الرّعد تنخلع له القلوب فارتجّت الأجواء، وكأنّه ينذرهم بقرب هبوب عاصفة شديدة، فتشتت الجمع، وهرولوا في كلّ اتجاه مسرعين إلى ديارهم، وعاد «سَاهور» مع أهل أوركا لقريتهم ورأسه يضجّ بالأفكار، وترك خلفه الأمراء الثلاثة في حالة تخبّط شديد.

كانت «مَيلاء» مُضجرة بشكل غير عادي، لم تنجح مراسم تتويج زوجها، وهاهو «سَاهور» يطلّ فجأة بخبر يهزّ أركان القصر، قالت لزوجها وهي تُحدّق في وجهه باكتئاب:

-ماذا لو كان كلام «سَاهور» حقيقة؟

-لن أسمح بدخول ابنه المسخ إلى القصر.

-كون أمّه من شعب «أُوركا» لا يمنع أنّ أباه منّا، وبهذا سيكون «أَشهم» أولى بحكم «وَرَاشين» منك.

-قال «أَشهَم» أنّه زاهد في الملك، ويريد الرّحيل من هنا مع ابنه ومع «مَثابة».

التفتت تجاهه بعصبية وقالت:

-تلك البائسة لن تخرج من المدينة، ستُلقى غدًا في بئر «دِرْواس»، لقد حاولت قتل ولدي المسكين، كادت تخنقه!

-لا أُريد استفزاز «أَشْهَم» بإلقائها في البئر، فلنساومه على روحها، وليكن له ما يُريده، فليخرج بها من المدينة، ويترك الحكم لي، وليرحل من هنا.

-قال «سَاهور» إنّ طيور الوراشين ستمنعه من الخروج!

نظر كلاهما إلى طيور الوراشين التي كانت تزدحم على النافذة، أصابهما الروع من صوت نقرها على النوافذ، كانت «مَيلاء» تشعر باليأس، وكان «خلدون» يتميّز غيظًا، جلسا بجوار بعضهما كتمثالين قديمين بائسين فقدا بريقهما، بكي الصغير فلم تقم إليه أُمّه، تركته يصرخ حتى احمر وجهه، طرقت جارية من جواريها الباب وهرولت وحملته وخرجت به، كانت «مَيلاء» في حالة من الضجر جعلتها صمّاء، قالت لزوجها بصوت مكتوم:

-ماذا سنفعل لو فعلت تلك الطيور فعلتها أمام النّاس؟ سيلتفّون حوله كما التفوا حول عمّك، أنسيت ما حدث لعقولهم بعد أن رأوا «سَاهور» وهو يسحب هذا المحارب من بئر «دِرْواس»؟

-سُحقًا لتلك الطيور، سأقتلها جميعًا...بل سأقتل «أَشْهَم».

التفتت نحوه وحدّقت في وجهه فزعًا مما سمعته، فكررها وهو يثقب عينيها بعينيه:

-سأقتله من أجل «وَرَاشين»، ومن أجلك، ومن أجل ابننا!

بدأ يصرّ على أسنانه، فقد بات تحت وطأة ضغوط كثيرة، ظلّت كلماته معلّقة في الهواء، أضاف وهو يعصر كفيه:

-سأصدر الأمرِ لمن أثق بهم من حرّاسي المقرّبين، وليفعلوها خلسة قبل أن يرى «أَشْهَم» ابنه.

قالت «مَيلاء»» بصوت مُرتعش:

-ولكن هذا أخوك!

أسرع قائلًا:

-قتل أبي أخاه من أجل «وَرَاشين»، مصلحة الجميع قبل مصلحتنا الشخصية، سأقتل واحدًا من أجل آلاف، فهو لا يصلح للحكم، وسيُدخل بحماقته عِرقا غريبًا للحكم، أنسيتِ أنّ ابنه هجين؟ أنا أكثر كفاءة منه، فهو ضعيف الشخصية...أنا أكثر أشقائي دهاء وخبرة وقوّة وبأسًا والجميع يثق بي.

-وماذا ستقول للناس؟

-لن يكون هذا بيدي...

شعر «خلدون» باختناق فاقترب من النّافذة فرأي طيور الوراشين تقف بالخارج فضرب على النافذة بعصبية شديدة وصرخ بحنق ليخيفها، ثُمّ خرج وهو يطرق الأرض بعصبية كالمجنون.

أطلقت «سُندس» ضحكة ممزّقة وقالت باستهزاء:

-«أَشْهَم»! أيكون هو الملك..وأنت لا يا «فِراس»!

رأى «فِراس» أنّ زوجته على وشك أن تجأر بكلام جارح فأسرع يقول:

-لن يكون ملكًا، هو لا يصلح لهذا ولا يُريده، سأساعده ليرحل من هنا مع «مَثابة» مقابل أن يتنازل عن الحُكم، وليعش في سلام مع ابنه ومعها في مكان بعيد..بعيد جدًا.

قامت «سُندس» في نشاط واقتربت منه ورددت وهي تزمّ شفتيها:

-قد تكون حياتهما ثمنًا لمستقبل أبنائك

-من هما؟

-«أَشهم» و«خلدون».

لم يُجبها «فِراس»، وخرج من الغرفة والموت يقبع بين عينيه، جلست تمشّط شعرها وتتحسس بطنها المتكوّر وابنها يركلها فيه من آن لآخر، تذكّرت السّاحرة، سبّتها بأبشع الألفاظ وبصوت مسموع وهي تطالع المرآة، فهي لم تفعل شيئًا، لم تقتل «مَيلاء»، ولم تقتل ابنها كما وعدتها...

سكن القصر، كانت «سُندسُ» تتقلّب في فراشها كمدًا وغلًا، كانت تسمع أصوات الحرّاس وهم يتحدّثون بالخارج، سكنت الأصوات فجأة، فأصابها الرّهاب فسارت على أطراف أصابعها نحو الباب، فتحته فلم تجدهم! نادت على وصيفتها فلم يُجبها أحد، أغلقت الباب ثُمّ فتحته برفق ونظرت من خلال فُرجة صغيرة على الدرج فرأت رجلًا ملثّمًا يركض تجاهها، صرخت صرخة ارتجت لها أركان القصر وأغلقت الباب، لكنّه دفعه بسهولة ودلف فسقطت على الأرض، جرّها بقسوة نحو الشّرفة، كان يضع يده على فمها، فقدت وعيها فأسقطها على الأرض، وأخرج خنجرًا خطّافيًا وكاد يشقّ بطنها، سمع صوت خشخشة وطقطقة خلف ظهره، ثُمّ ضُرب على رأسه بقوّة ففقد وعيه، في الصباح التالي استيقظ جميع من بالقصر على خبرين غريبين، اختفت الأميرة «سُندس»، واختفى ابن «مَيلاء» الرّضيع! كان «خلدون» و«فِراس» يتخبّطان في حيرة، الحرّاس يفتشون كل شبر بالقصر، لا أثر لهما!

في خضمّ تلك الموجة من الأحداث التي أصابت أهل القصر بزلزال جعل كلًّا منهم يوجّه أصابع الاتهام للآخر، انقسم الحرّاس فصار لكلّ أمير مريديه، خرج الأمير «أشْهَم» مستترًا وذهب سيرًا على الأقدام لقرية «أوركا»، انهالت عليه طيور الوراشين من كلّ حدب وصوب، وقفوا على رأسه، وكتفيه، وغطوا ثيابه، كان يبدو ككومة من الرّيش وهم يغطّونه بأجنحتهم، منعوه من السيرِ وتخطّي الحدود وبدأت الطيور تنوح كلّما خطا خطوة للأمام، تذكّر «أشْهَم» كلمات «سَاهور»، تراجع نحو القصر فصاروا يرتفعون بانتظام واحدًا تلو الآخر وتركوه يعود، قرر أن يُرسل لـ«سَاهور» و«سنمّار»، هناك ما يودّ إخبارهما به، لا بدّ أن يرى ابنه في الحال.

20

مصارعة الأوركا

«حمزة».....

كُنت أسير على شاطئ البحر وحيدًا، اختبأ الجميع من المطر بينما كُنت أستعذب قطراته وهي تربّت على كتفي، توارت الشّمس خلف غيمات قاتمة فاختنق لون السّماء، فوجئت بضربة على ظهري فاستدرت في فَزع، وجدت أمامي شابًا من شباب «أوركا»، كانت عيناه كجمرتين مشتعلتين وهو يكزّ على أسنانه ويتأهّب لتوجيه ضربة أخرى لوجهي، تفاديتها وتراجعت خطوات للخلف، كان السّير على الرّمال صعبًا، وكان المطر يزيد، صحت فيه:

-من أنت؟ وماذا تُريد؟

لم يجبني، وبدأ يضربني بيديه ضربات متتالية، ثُمّ اقترب وبدأ يلف ذراعيه حول جذعي بعنف، اشتبكنا في مُصارعة عنيفة، كان يستخدم أظافره الطويلة، وأسنانه أحيانًا، فأصابني بالعديد من الخربشات والعضّات، شعرت أنني أصارع وحشًا ضاريًا، فبدأت أستخدم العنف معه، أصدرَ صيحات «أوركا» التي لم أفهم كنهها، أسقطني أرضًا وجثم فوق صدري وبدأ يخنقني، شعرت وكأنّ روحي تُغادر جسدي، رأيت لوهلة ظلًا مهيبًا ومخيفًا خلف جسد هذا الشّاب، رفع الشّاب يديه فجأة، وانتظر قليلًا، ثُمّ أعاد محاولة خنقي! وعاد الظلّ للظهور وهو يتلاعب في الهواء، رفع يديه عن عنقي للمرّة الثالثة وانتظر للحظات قصيرة وأعاد الكرّة، كدت أفقد وعيي لولا «سنمّار» الذي ظهر فجأة وضربه ضربة قويّة على رأسه فشجّها فأرداه قتيلًا، سالت دماؤه على صدري، فدفعت جسده الثقيل بعيدًا عنّي وجلست أستردّ أنفاسي، بينما وقف «سِنمّار» يلومني قائلًا:

-لماذا خرجت وحيدًا؟

-وددت أن...

قاطعني قائلًا وهو ينحني على جسد الشّاب الذي قتله للتوّ:

-هذا «حُنيشل».

قُلت وأنا أتحسس عنقي:

-ومن هو؟

قال «سِنمّار» وهو ينظر إليه بإزدراء:

-فرد من أفراد عصابة فاسدة من شعب «أُوركا»، كانوا يقتلون النساء، ويسرقون الأموال، ويغتصبون الفتيات، لهذا لم يجرؤ أحد منهم على العودة لبحر «حِندس» لأننا جميعًا توعدناهم بالقتل إن ظهروا في الماء، لكنّهم للأسف كانوا عصابة كبيرة العدد ولا

يُستهان بها، أرهقونا وتسببوا في الكثير من الفوضى بقريتنا حتّى استطاع «الدّواسر» أسر أجسادهم ونزحوا إلى وادي «الفراديس»

قُلت مُتعجبًا من كلماته الأخيرة:

-ولكن كيف يسكنون جسدًا لمجرمٍ وسفّاح لا يعرف الخوف طريقًا لقلبه المُظلم؟

لاحت على شفتي «سِنمّار» ابتسامة ساخرة وهو يقول:

-أتظنّ أنّ الثغرة التي يدخل منها «الدّواسر» للأجساد هي الخوف فقط؟ بل هناك الخوف الشديد، والفزع الشديد، والانكباب على الشّهوات، وارتكاب الجرائم العظمى كالقتل والاغتصاب، وقتها يكون العقل محجوبًا وكأنّه في أوهن حالاته والنّفس في أضعف حالاتها، لأنّها أسيرة شهوة!

أدار «سِنمّار» رأس الشّاب المقتول وكشف جانب عنقه الأيمن وأشار إلى وشم غَريب منقوش على جلد الشّاب وقال:

-هذا الوشم الغريب يظهر على العنق فور أن يسكن الدّواسر الجسد.

بحركة رشيقة قام «سِنمّار» بحمل الشّاب وتوجه به نحو البحر ليلقيه فيه، ألقاه بالفعل فأخذَه الموج بعيدًا، صاح «سِنمّار» وهو يهرول عائدًا حيث كنت أجلس:

-أفراد العصابة يتسللون للقرية من آن لآخر، هؤلاء فقط من نقتلهم في الحال عندما نكتشف وجودهم بيننا، لأننا نعرف أفراد العصابة جميعًا، أمّا البقية فنتجنّب قتلهم لعلّهم يعودون لرشدهم يومًا ما.

ثُمّ أضاف وهو يرميني بنظرة يملؤها الارتياب:

-يبدو أنّ حياتك تعني الكثير لـ«الدّواسر»، لم يقتلك «حُنيشل» في الحال، بل صارعك، وكان يقدر على قتلك بسهولة، فهو يفوقك في قوّة البدن، كما أنّه يستطيع قطع عروق رقبتك بأسنانه كما اعتاد أن

يفعل، رأيته يحاول إضعافك ثلاث مرّات بخنقك، وأظنّها محاولة من الدّواسري الّذي يسكن جسده، أراد أن يُخيفك ليحتلّ جسدك لكنّه لم يتمكّن! يبدو أنّك لا تخاف من الموت يا «حمزة»!

أجفلت عندما ذكّرني بالموت فقُلت بخفوت:

-الموت!

رفع «سِنمّار» حاجبيه قائلًا:

-نعم...الموت!

-أخي «خالد» هنا، ويحتاج لمُساعدتي، فإن كتب اللّه عليّ الموت هنا، فأسأله أن يكتب لأخي النّجاة مما هو فيه قبل تلك اللحظة.

قال «سِنمّار» بفضول شديد:

-وددت أن..أعرف عن أخيك «خالد» أكثر، فـ«سَاهور» شحيح الكلام، ولم يُخبرني بكلّ شيء عنك، وتلك هي المرّة الأولى التي ألتقي فيها بمُحارب!

توقّف المطر، جُلنا في السّماء بأعيننا، كُنّا نرتجف من شدّة البرد، ابتسم «سِنمّار» ومدّ يده ليُساعدني على الوقوف وهو يقول:

-قبل أن نعود إلى بيت الضيافة، لا بدّ أن تتدرّب على مصارعة الأُوركا، فسوف يعيدون الكرّة ويُلاحقونك من آن لآخر.

-فليكن هذا غدًا يا «سِنمّار».

دفعني «سِنمّار» في صدري بعنفٍ وقال:

-بل الآن!

-ولكنني....

لم يترك لي فرصة لأُتمّ كلماتي، انقضّ عليّ وأحاط جذعي وذراعي بذراعيه وصاح قائلًا:

-هيّا، خلّص نفسك من بين يديّ.

كان يعصرني عصرًا، حاولت تحرير ذراعيّ لكنّني لم أتمكن، كنا نسير بخطوات عشوائية ونحن ملتصقان معًا، تذكّرت كيف ضربني بجبهته على جبهتي عندما تشاجرنا في القرية، ففعلت كما فعل معي وضربت جبهته بجبهتي، فحررني في الحال وتراجع وهو يبتسم قائلًا:

-أحسنت يا بطل.

أصابني ارتباك شديد! تلك كلمة أخي «خالد»...«يا بطل»، نظرت في عينيه لعلّني أجد إشارة تطمئنني أنّه هو، قال وهو يدور حولي:

-لو استخدم خصمك أسنانه ليقوم بعضّك اضغط على عينيه أو حاول خنقه، وعندما يبتعد سدد إليه ضربة تكسّر أسنانه الأمامية في الحال.

ثُمّ صار يقترب ويتراجع وكُنت متأهّبًا لضربة فجائية منه، قال وهو يبتسم:

-الأظافر لن تضرّك اتركهم يخمِشُوك، تلك الجراح والخربشات أوسمة، يومًا ما ستبرأ وتندمل، وسيختفي الألم وتبقى ندبة، لن توجعك، لكنّك في كلّ مرّة تمرّ عليها بأناملك ستتذكّر هذا الدّرس الذي تعلّمته وأنت تخوض معاركك فقد كانت سببًا في فوزك لأنّك تحمّلتها، ركّز فقط في تسديد ضربة مميتة لهم تقضي عليهم وعلى الكيان الأثيري الدّواسريّ الذي يتلجلج بين أضلعهم.

صحت بحماس وكانت ثيابي المبتلّة من المطر تعوقني عن الحركة السريعة مثله، كما أنّني لم أعتد السير بخفّة والرّكض على الرّمال، أمّا هو فاعتاد هذا، أضاف وهو يثب بخفّة ورَشاقة:

-أنت قويّ، تحتاج فقط للتركيز، توقّع الضربة قبل وقوعها، أنصت لجوارحك، لا تعتمد على عينيك فقط، راقب أنفاس خصمك، واقرأ حالته النّفسية.

في حركة سريعة وخاطفة وثب «سِنمّار» فوق صدري كالنّمر المتوحّش وأسقطني أرضًا ليجثم على صدري، أصدر صيحة من صيحات الأوركا وصاح بحماس:

-استجمع قوّتك وادفعني بقبضتيك وأبعدني عن صدرك قبل أن يزداد ضعفك.

فعلتُ كما قال لي، ودفعته بعيدًا، فابتعد ثُمّ دار برشاقة وانتقل خلف ظهري وخنقني بذراعه، قال وهو يشدد الضغط على عُنقي:

-أسرع بتخليص نفسك قبل أن تختنق، استخدم قدميك وكوعيك.

استخدمت قدمي بالفعل وضربته في ساقه، واستدرت بقوّة وضربته بأقصى قوّتي في جانب صدره فأصبت ضلعًا، تركني فورًا وانحنى متألّمًا فسألته متعجّبًا:

-ما بك يا «سِنمّار»؟

قال وهو يُحاول إخفاء ألمه:

-لقد كسرت ضلعي!

-أنا....

قاطعني قائلًا:

-لا بدّ أن أتحوّل الآن.

ركض «سنمّار» نحو البحر، مرّت دقائق ثقيلة وأنا أنتظره، من بعيد رأيت حوتًا ضخمًا يقفز في الهواء، ثُمّ يَغوص، انتظرته طويلًا ليقوم بإلقاء نفسه على الشاطئ ويعود لهيئته البشرية، ولمّا طال غيابه عُدت

إلى بيت الضيافة، وأنا أتفكّر في سبب إسراعه للتحوّل، فأدركت أنّ هذا سيُجدد ضلوعه، وسيتخلّص حتمًا من ضلعه المكسور، وعندما يستردّ هيئته البشرية، سيكون سليمًا.

صوت هدير العاصفة بالخارج يزداد، الأمطار تدقّ الأرض بقوّة حاملةً ندفًا من الثلج، فزع «هُرهُور» من صوت الرّعد وكان نائمًا فقد أرهقه اللعب طوال النّهار فاقترب «حمزة» منه وربّت على ظهره وطمأنه فعاد الغلام للنوم، كان «حمزة» قلقًا على السيّد «هشام»، فهو لم يعد حتّى الآن، مرّت ساعة كان يتفكّر فيها وهو يتأمّل المطر من النّافذة، وفور أن توقف المطر، طرق السيّد «هشام» الباب وكانت معه «مُورفو»، عادا متعبين وكأنّهما كانا في رحلة طويلة، سألهما «حمزة» عن هالة الحزن التي تحيطهما فأجاباه أنّهما بخير، وأنّ الصغيرة «مَرمَر» كانت متعبة عند وصولهم، لكنّها الآن أفضل، دلفت «مُونارش» وكانت قد سمعت عن وصولهما فعانقت «مُورفُو» وهي ترتجف، بدت «مُونارش» شاحبة وشكت من علّة في بدنها وصداع شديد، تناولت على عجلٍ ما أمدّتها به رفيقتها من ترياق وكانت قلقة من لقاء «مُورفُو» بـ«السيّدة الملوّنة» و«الآنسة الزرقاء» فسألتها:

-هل التقيت بـ«السيّدة الملوّنة»؟ وهل سألتك «الآنسة الزّرقاء» عنّي؟

-لم ألتقِ بهما، تسللت خلسة وأحضرت الترياق، وأوصيت أم «مَرمَر» ألّا تخبَر أحدًا عنّا وعن لقائها بنا، تركناها على حدود الغابة وهي أكملت وحدها، فالطريق أمان ولا يوجد أمطار هناك!

تنهّدت «مُونارش» وقالت وهي تبتسم:

-الحمد للّه، ولكن لماذا تأخّرتما كلّ هذا الوقت؟

-السيّد «هشامٍ» هو السبب، صحبنا في جولة قبل أن ينقلنا إلى غابة البَيْلَسَان، سأخبرك عنها لاحقًا.

هزّت «مُونارش» رأسها وقالت:

-حدث الكثير أثناء غيابكما، لقد ظهرت امرأة عجوز وأخبرتنا عن ولادة «هُرهُور»، و..

أمسكتها «مُورفُو» من ذراعها وقالت لها:

-اهدئي وتعالي معي.

كان «حمزة» يُنصت لحوارهما، وكان قد رأى السيّد «هشام» و«مُورفُو» بعيني «الدّيسق» وهما يتحدّثان إلى السيّدة الملونة داخل غابة البَيْلَسَان، آثر الصمت، كان يعرف أنّها تكذب، ولكن لماذا؟ انصرفت الفتاتان بعد أن هدأ المطر، سارتا نحو قصر الملكة «أهاليل» لتبيتا هناك. بدأت الشكوك تهدهد عقل «حمزة» المزدحم بالأفكار، حاول أن يتحدّث إلى السيّد «هِشام» عن رحلته مع «مُورفو»، وفاجأه أنه يوافقها فيما روته عن أنّهما لم يلتقيا بالسيّدة الملوّنة، وأوصلا «مَرمَر» وأمّها وانصرفا في الحال، زاد الأمر سوءًا عندما سأله السيّد «هِشام» بارتياب:

-هل زارك «الدّيسق» اليوم؟

شعر «حمزة» أنّه قلق ويخفي عنه شيئًا ما، فأجابه باقتضاب:

-نعم.

-وهل رأيت شيئًا مريبًا؟

هزّ «حمزة» رأسه وقال:

-رأيت مراسم تتويج «خلدون» بعد وفاة أبيه، لم ينجحوا في تنصيبه رسميًا حتّى الآن، رأيت طيور الوراشين وهي تُهاجمهم بشراسة،

فأبلغت «سَاهور» و«سنمّار» وجدّهما الملك «قاموس» بما حدث، ونصحتهم أنّ الوقت مناسب لكي نُعلن عن وجود «هُرهُور»، وحدث هذا بالفعل.

-مهلًا مهلًا، أُريد أن أعرف كلّ شيء .

قال «حمزة» وهو يطالعه بنظرة تشي بالكثير:

-وأنا أيضًا، أُريد أن أعرف كلّ شيء.

ثُمّ أمسك بذراع السيّد «هشام» أعاد كلماته:

-كلّ شيء يا سيّد «هشام»...كلّ شيء.

التفت السيّد «هشام» نحو «هُرهُور»، تأكدّ أنّه غارق في النوم، وجلس مع «حمزة»، ودار بينهما حديث طويل، وكان لا بدّ من قراراتٍ سريعة، الآن «حمزة» يُقرر ويُخطط، وهو من سيتحمّل توابع قراراته.

-أين «هُرهُور»؟

قالها «سِنمّار» غاضبًا وهو يسأل «حمزة»، فأجابه قائلًا:

-في مكان آمن.

كان «سِنمّار» يتميّز غيظًا وهو يقول:

-ليس من حقك أن تخفيه يا «حمزة»!

رفع «حمزة» بصره نحوه وقال:

-بعد ما سمعناه عن اختفاء الأميرة «سُندس» من القصر، وكذلك ابن الأمير «خلدون» صارت حياته في خطر، وأنا مسئول عنه.

قال «سِنمّار» غاضبًا:

-وكيف عرفت باختفائهما؟

-لديّ طُرقي الخاصّة!

زفر «سِنمّار» بحنق قائلًا:

-لست مسئولًا عنه، ولست من أقربائه! هو منّا ونحن منه، فأمّه من شعب «أُوركا».

قال «حمزة» مستنكرًا:

-وأبوه؟ أليس ابن عمّك يا «سِنمّار»؟

-بلى، ولهذا هو يعنينا ولا يعنيك!

قال «حمزة» بثقة:

-بل يعنيني، فقد عاهدت «مُولي» أن أحفظ الأمانة.

-أيّ أمانة! حتى «مُولي» لا يملك أن يُحمّلك أمانته، أفصح عن مكانه، سنُعيده لوالده، وانصرف أنت لتتم مهمّتك وتسترد كتابك، ألست محاربًا؟

-بلى أنا مُحارب، ولهذا لن أرحل قبل أن أطمئن على «هُرهُور».

دفع «سِنمّار» «حمزة» في صدره وقال بتنمّر:

-يبدو أنّك تحتاج للتأديب.

جذبه من ثيابه وخرجا من بيت الضيافة، وبدأ بينهما شجار عنيف، كان كلاهما يكيل الضربات للآخر دون توقف، حاول السيّد «هشام» التدخّل لكن «سِنمّار» أزاحه بضربة واحدة على صدره كادت تقضي عليه، في غمضة عينَ كانت «مُورفُو» فوق ظهر «سِنمّار» بوثبة واحدة، غرزت في رقبته شوكة رِفيعة فسقط على الأرض ثابتَ الحركة ومتشنّج العضلات، كاد شباب «أُوركا» يفتكون بها ألا أنّها سحبت سيفها ووضعته على عُنق «سِنمّار» وكان «حمزة» خلفهما فصاحت قائلة:

-لا تمسّوا شعرة من رأس «حمزة» وإلّا!

تراجعوا في حذر، أقبلت «مُونارش» في هلع فأمسك السيّد «هشام» بيدها وأقبل وهو يسحبها معه ووقفوا جميعا بجوار «سِنمّار» وهو ممدد على الأرض، قال «حمزة» وهو ينثني على بطنه أثر ضَربة من ضربات «سِنمّار» كانت قد أصابت ضلعًا من ضلوعه:

-ماذا فعلتِ به يا «مُورفُو»؟

مالت عليه هامسة وقالت:

-لا شيء، تلك الشوكة ستشلّ حركته لبضع دقائق فقط.

رفع «حمزة» بصره تجاه السيّد «هشام» وهزّ رأسه ففطن لمراده، أخرج الخريطة والأَسْطُرلاب ووضعه على بقعة ما، قامت «مُورفُو» بسحب الشوكة من عنق «سِنمّار»، بدأت الوشاج تظهر متعلّقة في الهواء فوق رؤوسهم، تعلّقوا بها واختفوا تباعًا، السيّد «هشام» ثُمّ «حمزة»، رفضت «مُونارش» أن تُمسك بالوشائج، لا ترغب في الرّحيل فقلبها عالق هنا، صاحت في هلع ونادت على «سَاهور» الذي كان يسير تجاههم بعد أن علم بما حدث، كان شباب «أوركا» يطالعون «مُورفُو» بتنمّر ويحاولون الوصول إليها، فتعلّقت بالوشيجة الأخيرة واختفت، وسقطت «مُونارش» على الأرض فقاموا بالقبض عليها في نفس اللحظة التي وصل فيها«سَاهور» ليسأل عن أخيه «سِنمّار» فوصفوا له ما حدث، أقبل يتحسس رأس أخيه وهو ممدد على الأَرض، وسأل من حوله:

-هل هذا سمّ؟

أجابته «مُونارش»:

-لا يا «سَاهور»، تلك مادة تصيبه بالشلل الوقتي لدقائق فقط تستخدمها حارسات الحدود لتشل جسد من يهاجمها، سيعود «سِنمّار» لطبيعته بعد قليل.

تنهّد «سَاهور» في ارتياح وقال:

-الحمد للّه.

بدأوا يضربونها فصرخت تستغيث بـ «سَاهور»، فوقف غاضبًا وضرب الأرض بعصاه وصاح بصوت مجلجلٍ كما لم يفعل من قبل قائلًا:

-ارفعوا أياديكم عنها!

رفع القوم أياديهم عنها فور أن سمعوا كلمته، فهو وشقيقه أحفاد الملك الذي لا تُرد كلمته، وكان لكليهما مهابة ومكانة عظيمة بين أفراد شعب أوركا، فهرعت «مُونارش» إليه وأمسكت يده، وكانت تلك المرّة الأولى التي يلمس فيها «سَاهور» يد فتاة، أصابه الحرج، وشعر بقلبه يرتجف، تركت «مُونارش» يده وتوارت خلف ظهره لتحتمي به، شعر باضطراب يشوبه شبح فرحة خفيفة، فقد أسعده أن تحتمي به، بدأ «سِنمّار» يستعيد قدرته على الحركة، واعتدل جالسًا، كان يرشق «مُونارش» بنظرة عدائية ناقمة، ثبت عينيه على يدها وهي تتشبث بذراع أخيه، فمرر يده على عنقه في إشارة تعني... سأقتلك!

وقفت «مُونارش» فريسة للخوف والحزن، في تلك اللحظة شعرت بالندم، كيف لم ترحل مع «مُورفُو» و«حمزة» والسيّد «هشام»، الآن هي غريبة وسط قرية من الوحوش كلّهم ناقمون عليها، حتى الشاب الوحيد الذي تُحبّه لن يستطيع الدّفاع عنها فهو لن يقف أمام أخيه من أجلها، لم تجد من يحنو عليها أو يُربّت على كتفها، رحل «سَاهور» إلى معبده النائي بعد أن أوصلها لقصر أمّه التي كانت ساخطة وغاضبة عليها بعد أن علمت بما حدث لـ«سنمّار» من رفيقتها «مُورفُو»، لم تستقبل الجواري «مُونارش» بالقصر، غُلّقَت الأبواب في وجهها، فجلست تبكي في الحديقة، واختلطت دموعها بماء المطر الهتون..

استغرق البحث عنها بالأسْطُرلاب محاولات عديدة، فقد تنقّل السيّد «هشام» مع «مُورفو» أكثر من خمس مرّات في جنبات قرية «أوركا» حتى عثروا عليها في الحديقة، وأخيرًا قبلت أن تنتقل معهم إلى حيث كان «حمزة» ينتظرهم، وتعلّقت بوشيجة من الوشائج وهي تبكي، ورحلت عن قرية «أوركا» وتركت قلبها معلّقًا هناك..

على أطراف قرية «أُوركا» كان «سَاهور» يقف أمام المعبد البسيط الذي يلزمه، خلع حذاءه الحديدي، وملابسه الثقيلة، وألقى الحجرين الثقيلين المربوطين على خصره، ووقف حافي القدمين على الأرض ورفع وجهه للسماء يستقبل ماء المطر، لم يرتقِ في الهواء، وكيف له أن يفعل وهو الآن يشعر أنّه مثقل بالذّنوب، كيف له أن يستعذب لمسة يدها بتلك الطريقة وهي لا تحلّ له، وهو العابد المتبتل، طأطأ رأسه في خجل، كان يتمتم محاورًا ربّه بأنّات خافتة، أراد الله لقلبه أن ينكسر بهذا الذّنب حتى لا يكون هناك مكان لعجبه بنفسه بعد أن علم الجميع بما حدث عند بئر «دِرْواس»، وبأنّه يشبه والده، ظلّ على حاله كتمثال من الزّجاج، وكان ماء المطر يزداد كثافة ويغرقه، كان يختلج ويثب في مكانه من شدّة البرد، أراد أن يغسل باطنه أيضًا ويتخلّص من تأنيب ضميره، لكنّ هذا أمر أعمق من الوقوف تحت الماء، لا يُرى بالعين، بل يحتاج لغسيل من نوع آخر...

في اللحظات الأكثر قتامة التي نمرّ بها، ينكسر فينا شيء، يَجبره حنوّ الآخرين علينا وإن لم يفعلوا غير التربيت على ظهورنا، وتقبيل جباهنا، والتقاط عبراتنا بأطراف أكمامهم، وهذا ما يدفعنا للوقوف مرّة أخرى، وتكرار المُحاولة، مهما بلغت قوّتنا فنحن نحتاج للآخرين، نحتاج لمن نستند عليه ليثبّتنا، و«سَاهُور» يُبعد الآخرين عنه منذ وفاة أبيه، لا بدّ أن يعود لأهله، فهو يحتاجهم ليخفضوا له جناح الذّل من الرّحمة، ويحتاج إلى الحبّ...

وثب السؤال من عتمة أفكاره، لماذا لا يعود صباحًا ليطلب «مُونارش» للزواج؟ فهو في حاجة لهذا السكن، ولكن هل سترضى به وهو هجين؟ بل وهو ضرير!

وهل ستقبل أمّه بزيجته تلك من فتاة من «الحورائيات»؟

وهل سيسمح جدّه الملك «قاموس» بحدوث هذا؟

حمل ثيابه وحذاءه وعاد يتحسس الطريق إلى الدّاخل ورأسه يضجّ بالأفكار، وبات ليلته وقد أعياه المرض.

فزعت «مُونارش» عندما وجدت أنّهم أعادوها إلى غابة «البَيْلَسَان»، وقفت تلوم رفيقتها «مُورفُو» قائلة:

-لماذا عدنا إلى هنا؟ أنتِ تعلمين أنّني لا أرغب في العودة إلى الغابة.

قال السيّد «هشام» ليُهدئها:

-«مُونارش»، لا تخافي يا ابنتي، لن يمنعك أحد من العودة لقرية «أوركا»، فالجميع هنا يعلم بما حدث لك، لقد التقينا بالسيّدة الملوّنة عندما أتينا مع «مَرمَر»، وهناك ما يجب أن تعرفيه!

تسارعت دقّات قلبها وسألته:

-ماذا؟ أخبرني أرجوك؟

أقبلت «السيّدة الملوّنة» وحيّتها بحبور، كانت تنتظر وصولهم مع «حمزة»، وفوجئت «مُونارش» بوجود «هُرهُور» بغابة «البَيْلَسَان»! كما فوجئت بنشاط «مَرمَر» التي صارت أكثر قوّة وحيويّة من ذي قبل، وكانت أمّها تلاحقها في سعادة وهي تركض مع «هُرهُور»، هشّت أمّ «مَرمَر» لـ«مُونارش» فور أن رأتها واحتضنتها، وانصرفت خلف ابنتها وهي تركض

مع الغلام لتراقبهما، وكانت «مُونارش» عالقة في فقاعة من الحيرة، تودّ أن تفهم! ما الشيء الذي لا بدّ أن تعرفه؟

لاحظت «السيّدة الملوّنة» حيرتها، فأمسكت بذراعها وساروا جميعًا بخطوات هادئة نحو قصرها وهي تقول لـ«مُونارش» بصوت منضبط:

-أتذكرين تلك الهمسات التي كنت تسمعينها يا «مُونارش»؟

-نعم يا مولاتي..عن قصة حب بين شاب وفتاة و...

قاطعتها «السيّدة الملوّنة» سائلة لها:

-ألم تلاحظي شيئًا ما؟

-أيّ شيء؟

-أنّك مثلًا تمرّين ببداية تُشبه تلك التي كنت تخبريننا بها، فتاة تبحث عن الحب، وشاب زاهد فيه، والتقيا على حين غفلة في ليلة ممطرة و...

قاطعتها «مُونارش» بشهقة استوقفتهم جميعًا، انتبهت الفتاة لما يحاولون لفت نظرها إليه، كانت تسمع همس الريّاح عن قصّتها هي، همسات عنها وحدها، وعن «سَاهور» وحده، أردفت «السيّدة الملوّنة» وهي تسحبها من ذراعها:

-هل ما زلت تسمعين همس الرياح لك؟

أجابتها «مُونارش» نافية بتعجّب:

-لا..توقف منذ خروجنا من غابة «البَيْلَسَان».

قالت «السيّدة الملوّنة» بثقة:

-لا بدّ أن يحدث هذا، لقد تعرّضت «مَرمَر» لحالة من الارتجاج والاهتزاز فور وصولها للغابة، لقد نُقلت إليها مهمّتك، وهي الآن تسمع بقيّة القصّة، لقد ظلّت تُرددها بعد أن دلفت مع السيّد «هشام» و «مُورفُو»، أخبرتنا بما تمرّين به، وستهمس بها لكاتب ما.

قالت «مُونارش» بحيرة:

-هذا يعني أنني...

-أنّك ما عُدت من بنات الأفكار يا «مُونارش»، لقد زهدتِ في مهام الحورائيات بنفسك وتخلّيت عنها بإرادتك.

قالت «مُونارش» بتوتّر:

-فليكن، من حقّي أن أختار طريقي في الحياة! لستُ مسئولة عن مؤلفي الكتب والروايات!

همست «السيّدة الملوّنة» لها:

-لا نلومك، لكنّك فقدت ميزة عظيمة.

-وما هي؟

أطلقت «السيّدة الملوّنة» تنهيدة وقالت:

-حتّى وإن وقعتِ في الحبّ وتزوّجت لن تخوضي الطور الملكي، لأنّك لم تؤدِي مهمّتكِ وواجباتك التي تنالين الامتيازات بناء على أدائها.

قالت «مُونارش» بحزن شديد:

-هل هذا يعني أنني لن أمرّ بطور النضوج؟

-ستنضجين لا ريب بطريقة ما، ولكنّك لن تتغيري مثل الملكة «الحوراء»!

سألتها بقلق:

-سأظلّ قبيحة هكذا؟

غضنت «السيّدة الملوّنة» حاجبيها بضيق وقالت:

-أنت ترين نفسك قبيحة، وقد يراك البعض هكذا، لكنّها ليست الحقيقة! ألم يُخبرك «سَاهور» أن الجمال شيء يُحسّ و...

قاطعتها «مُونارش» قائلة:

-وكيف عرفتِ بحديثي مع «سَاهور»؟

قالت «السيّدة الملوّنة» بتأثّر:

-أنسيتِ أنّ «مَرمَر» تروي قصّتكما الآن، وتُخبرنا بما يحدث بينكما!

تجمّدت شفتا «مُونارش» ولم تنطق بكلمة واحدة، رفعت بصرها بوهن تجاه «السيّدة الملوّنة» وسألتها:

-هل أخبرتكم «مَرمَر» أنني سألتقي بـ«سَاهور» مرّة أخرى؟

قطّبت «السيّدة الملوّنة» جبينها وقالت:

-نعم، وما زلنا ننتظر الجديد، فكما تعلمين هي تحكي لنا ما يحدث فور حدوثه، و...

قاطعتها «مُونارش» قائلة بيأس:

-الأمر ليس بيدها، وليس من الصواب الضغط عليها، فما هي إلّا مجرّد ناقلة للأحداث لخيال الكاتب في عالم آخر، أعرف ما تشعر به تلك الصغيرة.

ثُمّ شردت «مُونارش» قائلة:

-ترى لماذا تأخّرتُ عن همسي لكاتب حتّى وصلت لعمري هذا؟ ليتني سمعت همس الريّاح وأنا طفلة صغيرة مثلها!

قالت «السيّدة الملوّنة» بحنكة:

-نحن نخرج للحياة ومعنا كلّ الميزات، وكلّ العيوب، وكل المخاوف، وكلّ الفرص، ولكلّ منا دور هام ليؤديه، ودورك ليس هنا، فكوني قويّة يا «مُونارش»، فالحياة كالبحر، لا تنتظري الموج ليحملك، كوني أنت موجة شاهقة كالجبال، اصطدمي، وتبعثري حيثما شئت، فأنتِ حرّة!

وصلا لبوابة القصر، ودلفوا تباعًا، كان «حمزة» شاردًا، يُفكّر في مدينة «وَرَاشين»، أراد «حمزة» أن يصلح ما يدور هناك، قال «حمزة» في يأس موجهًا كلامه للسيّد «هِشام»:

-ظننت نفسي ارتحت من اللهث عندما حصرت احتمال كون أخي بين «سَاهور» و«سنمّار»، فوجدت نفسي أركض على مضمار آخر لا أدري إلى أين سيأخذاني، ربّما يكون أخي بين أمراء «وَرَاشين» الثلاثة، ومحاولات كلّ منكم الإطاحة بأخيه ستؤذيني في أخي.

قال السيّد «هشام» وعينان تجوسان في قلق:

-وماذا لو ماتت الشخصية التي حلّ فيها أخوك «خالد»؟

-لا أدري يا سيّد «هِشام»...لا أدري!

قال السيّد «هشام» وهو يفرك ذقنه:

-لنسأل حرّاس المكتبة العُظمى لنطمئنّ، ما رأيك أن نذهب إليهم؟

قال «حمزة» بحماس:

-فليكن هذا، ولنذهب الآن.

قال السيّد «هشام»:

-اترك الجمجمة هنا، فأنا لا أثق بتلك العفريتة التي تسكنها، ونحن سندخل المكتبة العظمى، ولا بدّ أن ننتبه.

أخرج «حمزة» الجمجمة، ودفنها تحت شجرة عتيقة من أشجار غابة «البَيْلَسَان»، ووضع عليها علامة ليتمكّن من العودة إليها مرّة أخرى في وقت لاحق، كانت «رَيْهُقانة» تقبع بداخلها في ضجر شديد، يومًا ما ستُلقّن هذا الرّحالة درسًا قاسيًا..

هزّ السيّد «هشام» رأسه، ثُمّ أَخْرج الأَسْطُرلاب ووضعه فوق الخريطة حيث تقع المكتبة العظمى، وانتقلا إلى هناك، وكان حرّاس المكتبة في اجتماع يتدارسون أمرًا هامًا، أحدث ظهور «حمزة» جلبة عظيمة، وقاموا

إليه وكأنّ زائرًا عظيما دلف للتوّ، كان «حمزة» يقلّب بصره بين وجوههم المضيئة وهم يصافحونه، شعر بإجلال وهم يعرّفونه بأنفسهم، وشعر بالفخر عندما سمع منهم كلمات التقدير لأبيه وجدّه و«أبادول»، كان السيّد «وضّاح» بينهم، قال كبير حرّاس المكتبة وهو يدعوه للجلوس:

-لا ريب أنّك في غاية القلق على أخيك «خالد».

-هل استطعتم تحديد الشخصية التي زار المملكة في هيئتها؟ وهل إن ماتت تلك الشخصية ستتعرّض حياة أخي للخطر؟

-تعلم أننا لن نعرف الشخصية إلّا بعد رحيله يا «حمزة»، أمّا تعرّضه للخطر فـ...

صاح «حمزة»:

-ماذا؟

-جائز جدًا، وقد يموت بالفعل...فقد حدث هذا لأحد الزائرين قديمًا للأسف.

اقترب «وضّاح» وقد تغيّرت ملامح وجهه وقال معتذرًا:

-أشعر بالذّنب، فتح ممر «أَمَانوس» خطأ عظيم، وتلك المهمّة أنا الوحيد المنوط بها هنا.

قال حارس آخر بدا أنّه أكبر مقامًا من «وضّاح»:

-تعلم أنّ هذا الكتاب اللعين هو السبب وليس أنت يا «وضّاح»، ما زال «ساجور» السّاحر يعبث بالكتب في الخفاء، وقد عاون «الدّواسر» لكي يسترد تلك الكتب البائسة.

قال «حمزة» وهو يتعجّب:

-أين «المجاهيم»؟ وأين «المغاتير»؟ ظننتهم سيظهرون ويقضون عليهم في وادي «الفراديس»!

تبادل الحرّاس النظرات، قال كبيرهم وهو يحرّك يديه في الهواء:

-الآن بيننا وبين «المجاهيم» حاجز عظيم، انقطع اتصالنا بـ«الزّاجل الأزرق» وجيشه و«المغاتير»، فتح ممر «أَمَانوس» أحدث خللًا في توازن مملكة البلاغة، الأمر يُشبه تمزّق القارات وانفصالها وتغير طوبوغرافية المكان وخريطته، ولا ندري هل ما زالت «الحوراء» تنصت لهمسات الرّياح أم لا!

هدر «حمزة» قائلًا:

-أغلقوه إذًا!

مر شبح ابتسامة مخنوقة على وجه كبير حرّاس المكتبة وهو يقول:

-ليس قبل أن يعود أخوك إلى وطنه! وهذا الأمر سيحتاج منك أن تُنهي مهمّتك، وتتصدّى للدّواسر، فزوال سيطرتهم على ممر «أَمَانوس» سيحرر «خالدًا» من أسْرِه في جسد الشخصية التي حُبس فيها، فقم بمهمّتك وحدك!

-وحدي!

-نعم، ستذهب إلى وادي «الفراديس» وتلتقي بزعيمهم، ثُمّ ستصعد إلى زنازنهم التي كان جدّك قد سلسلهم فيها بوديان جبل «أَمَانوس»، لا بدّ أن تلتقي بـ«مَردان»، سأرسل له «بُرهان» برسالة ليستعد.

-ومن هو «مَردان»؟

-عملاق من عمالقة قبيلة «هيمبا»، وهو حاجب سجون جبل «أِمانوس»، يعيش هناك وحده ليقوم بحراستِهم، سيدرّبك لتعيد أسر زعيم «الدّواسر» وتُسلسله هناك، وفور أسره أو...قتله، سيُزال الحاجز بيننا وبين «المجاهيم»، وسيعود تواصلنا سهلًا وسريعًا كما كان، وعندها أعدك أن يصل «المجاهيم» إليك في غمضة عين ليساعدوك لأسر بقيّه «الدّواسر».

-ولم لا أقتلهم جميعًا.

ران عليهم الصمت للحظات، تبادل حرّاس المكتبة النظرات، قال كبير الحرّاس بصوت تشوبه رنّة قلق:

-ليس من الصواب قتلهم، أصحاب الكيانات الأثيرية كـ«المجاهيم»، و«الدّواسر»، قواهم لا تفنى بل تورّث، وتنتقل ممن مات لفرد آخر من عشيرته، فتتعملق وتزيد، وقد يخلق هذا قوّة يصعب قهرها والتغلّب عليها، وهذا يعني أنّ قوّة «غيهبان» الذي قتله «أبادول» انتقلت لغيره!

قال «حمزة» متعجبًا:

-وكيف سأقومِ بهذا وحدي!

-كما فعلها «أبادول» وحده يا «حمزة»!

-ولكن...

قاطعة كبير حرّاس المكتبة قائلًا:

-أنت تستطيع، فقط اختر أن تُصدّق أنّك تستطيع بحول الله وقوّته، أعلم أنّ الشّك دومًا يلوح في الأفق، فلا تقبله... أرجوك!

ثُمّ تغيّرت نبرة صوته وهو يقول بوقار شديد:

-علّمني «أبادول» مقولة لرجل عظيم كان دومًا يُردّدها: «الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء بالخلق»، فاقطع رجاءك منّا وممن حولك جميعًا يا ولدي تُصب ما أصابه جدّك.

ثُمّ التفت كبير حرّاس المكتبة إلى السيّد «هشام»، ومدّ يده إليه وعيناه تحمل الكثير من التأثّر، وقال بصوت تشوبه رنّة إشفاق:

-أعلم أنّ تخلّيك عن «الأَسْطُرلاب» صعب يا «هشام»، لكنّه الآن يِحتاجه، فلتعطه لـ«حمزة»، ولتبقَ في ضيافتنا حتى ينتقل لجبل أمانوس» ويلتقي بـ«مَردان» ويدبّر أموره.

نطق «هشام» بصوت مرتعش وقال:

-ولماذا لا أذهب معه؟ تلك وسيلتي الوحيدة للانتقال، لو فقدتها سأفقد الشغف الوحيد الذي يهوّن عليّ ما سقطت فيه هنا!

أغمض كبير الحرّاس عينيه وقال وهو يدقق كلماته التي تخرج من بين شفتيه:

-لن تتحمّل ما سيراه هناك.

أجفل «حمزة» عندما سمع تلك الجملة الأخيرة، وقبل أن يفتح فمه نقل كبير الحرّاس عينيه وغرسها في عيني «حمزة» وهو يقول:

-أخوك يحتاجك! وهذا الدّافع يكفي لتتحمل!

ران عليهم صمت مهيب، كانت المكتبة في حالة صمت وسكون، حتى هسهسات الكتب على الرّفوف سكنت، أخرج السيّد «هشام» الأَسْطُرلاب والخريطة وأعطاهما لـ«حمزة»، كان يبدو محزونًا، فاندفع «حمزة» يعانقه، فقال وهو يربّت على ظهره:

-لن أرحل من هنا يا «حمزة»، فليس معي وشائجي العجيبة التي أتعلّق بها لتُسلّيني، كن بخير وعد سريعًا يا فتى.

وقف «حمزة» حائرًا، بدأ حرّاس المكتبة يحفّزونه، فتح الخريطة وبدأ يتمعّن فيها، أشار السيّد «هشام» إلى جبل «أَمانوس» ثُمّ وادي «الفراديس»، وأوضح له مكان المكتبة العظمى، وغابة «البَيْلَسَان» وقرية «أُوركا»، ومدينة «وَرَاشين»، لكي يتمكّن من الانتقال بينها كيفما يشاء، أمسك «حمزة» الأَسْطُرلاب» وسحب نفسًا عميقًا، ووضعه على موقع جبل «أَمَانوس»، وانتقل إلى هناك.



21

جبل «أَمَانوس»

«حمزة».....

صفير الرّياح كان يدوي فوق سفح جبل «أَمَانوس» وقد لفّه الضباب من كلّ صوب، أحسستُ بلسعات الرّمال التي تحملها الرّياح كوخزات إبر على بشرتي، كنت أتلمّس الطريق مترنّحًا، أسير وأنا مبطّن بالقلق، مجرّد أن داهمتني الفكرة المروّعة أنّني الآن وحيد هنا أصابتني بهزّة داخلية، فوقفت أتأمّل السماء، وحاولت استعادة يقيني وانطلقت أدعو الله أن يثبّت فؤادي.كان المكان يطفو حولي في تموّجات هستيرية، ثمّة أصوات لا أدري كنهها ولا مصدرها، زئير مخيف، صراخ مكتوم، عواء، همهمات مروعة، أخذتُ أقدح زناد فكري، إلى أين سأسير؟ وماذا سأفعل؟

حلّق «الدّيسق» فوق رأسي فشعرت بالطمأنينة عندما تلاقت عيناي بعينيه، كان دومًا يظهر في كلّ مكان أنتقل إليه، فهو لا يحتاج للأَسْطُرلاب كما ظننت في بداية الأمر، هي سماء واحدة لمملكة البلاغة كلّها وهو يلاحقني حيثما كُنت.

منحني نظرة شاملة للجبل «أَمَانوس» وما حوله بعينيه، ورأيت نفسي وأنا كنملة صغيرة تتسلّق، أجفلت من هول ارتفاع الجبل وشدّة انحداره، عندما استرددت بصري قررتُ أن أهبط إلى أسفل بقعة في الجبل وأبحث عن ممراته ومغاراته السفلية، كان الجوّ باردًا فبدأت أسناني تصطك ببعضها البعض، جمعت كفيّ ونفخت فيهما لأدفئهما بأنفاسي، لمحت أطيافًا تجول حولي فأجفلت وأخرجت الخنجر الحلزوني، ووقفت متأهّبًا وألقيت السلام بصوت جهوري واثق، فردّ أحدهم السّلام بصوت مزلزل مهيب، واقترب منّي في خطوات ثقيلة ورصينة، كنت أحدّق أمامي وأنتظر أن يظهر لي صاحب تلك الخطوات والصوت المميّز!

أطلّ من وسط الضباب فإذا هو رجل عملاق عظيم الكراديس، له رأس ضخم، ووجه مربّع تثقبه عينان مخيفتان كعيني ذئب، وعنق عريض وذراعان غليظان، كان يحمل على كتفه مطرقة عظيمة لها رأس مكوّر وممتلئ بشذرات حديدية حادّة وبارزة، ضرب بها على الأرض فأحدث هزّات عنيفة فشعرت أنّها تتخللني، واهتزّ كياني كلّه، وقف أمامي واخترقني بنظراته، رفعت رأسي لأحدّثه وأنا من يطلقون عليه طويل القامة! فقلت باقتضاب:

-أنت «مَردان»؟

قال وهو يرشقني بنظرة مرتابة:

-من أنت؟ وماذا تُريد؟

-أنا مُحارب واسمي «حمزة»، أتيت بأمر من كبير حرّاس المكتبة العظمى و...

هزّ رأسه وقاطعني سائلًا:

-أيّ صقر حملك إلى المملكة؟

-«الرّمادي».

أنزل العملاق مطرقته وقال بصوت تشوبه رنّه حنين لا تتناسب مع ملامحه القاسية:

-«أبادول»!

-نعم هو جدّي الأكبر!

عاد «مَردان» يثقبني بنظراته وقال:

-ولم أنت هنا؟

وقفتُ متخبّطًا، من أين أبدأ الشرح؟ درت بعينيّ في المكان حائرًا، وإذا بصوت غريب يتردد صداه في الأجواء، اقترب هُدهُد كبير له جناحان

بديعان وأطلق صيحة عذبة ورفرف بجناحيه وهو معلّق في الهواء، كان له عُرف بنيّ اللون يُشبه التّاج، كان جناحاه محفوفين من أطرافهما بريش أسود، بينما نصف جسده أسود مرقّط بريش أبيض في نظام جميل، سقطت ريشة ذهبيةً من جناحه، التفت العملاق تجاهه وقال وعيناه تتبعان الهدهد وهو يرحل عن المكان:

-«بُرهان»!

بدا لي وكأنّه يعرفه، وأنّ تلك علامة بينهما، أو رمز لشيء ما! انصرف الهدهد فالتقط العملاق الرّيشة الذّهبية اللون، وبوجه لا يعرف الابتسامة اقترب منّي، وانحنى ليقول وعيناه المروّعتان ثابتتان على مقلتيّ:

-خُذ ريشتك، واتبعني أيّها المُحارب.

تناولتُ الرّيشة منه، وتمعنت فيها وأخذت ألمسها بأطراف أصابعي وأنا أسير خلفه، بدت لي عاديّة جدًا، فهي ليست من الذّهب كما ظننتها! لكنّها تبرق! وضعتها في حقيبتي ورفعت رأسي فوجدت المسافة التي تفصل بيني وبين العملاق كبيرة جدًا، كانت خطواته واسعة، ولم أنتبه، فانطلقت أركض لألاحقه، كانت هناك رائحة عفنة ونتنة تفوح في الأجواء كلّما تقدّمنا في السير، سألته وأنا أجتهد لأوازي خطواته:

-أين سنذهب؟

-لأُريك الأسرى الذين سلسلهم جدّك.

سألته متعجبًا:

-ألم يتحرروا؟ لقد أُخبرت أنّهم تحرروا من أسرهم ويسكنون الآن أجساد شعب «أوركا» ويسكنون وادي «الفراديس».

التفتَ العملاق نحوي ونظر إليّ نظرة غريبة، بدا لي أنّه لم يبتسم أبدًا من قبل! قال بصوته الأجشّ:

-الدّواسر هم من تحرروا، أمّا الوحوش فلا!

كنّا قد وصلنا إلى مغارات مظلمة، صعدنا إليها ودلفت خلفه لمغارة منها، وفور دلوفنا اندفع وحشٌ كاسر تجاهنا، كاد يلتهم وجهي لولا السلاسل التي تقيّده، شعرت بالقشعريرة تسري في جسدي كلّه، هربت الدماء من أطرافي، استغرقت وقتا حتى استعدت أنفاسي التي انقطعت وكدت أفقد وعيي، تماسكت ووقفت أتأمله، كانت أنيابه الحادة تبرز من بين شفتيه محمّلة بلعابه الوفير وهو يرفل ويزوم ويزأر، أدركت حينها أنّ تلك الأصوات التي تناهت إلى سمعي عندما وصلت كانت أصوات تلك الوحوش، انطلق الوحش يزأر، وارتفعت أصوات عديدة من المغارات الأخرى تناجيه وتردّ عليه، كان العملاق يقف ثابتًا ويراقبنا، قال بعد أن منحني فترة لكي أستعيد ثباتي:

-كانت «الدّواسر» تسكن في أجساد تلك الوحوش، حبسهم جدّك «أبادول» في هياكلها لسنوات، لم يُخرجهم إلّا تلك الطلاسم التي قُرئت وكانت مدونة في كتاب لعين للسحر خطّها «ساجور»، وقامت زائرة بترديدها ففُتح ممر «أمَانوس»، وتحرروا جميعًا من الأسر هنا.

-وكيف فعلها جدّي؟

-روّضها، وتخلّص من رائحة الخوف، تلك الوحوش تشمّ رائحة الخوف وهي تتسلل في عروقنا، أما جدّك فقد مرّ بلحظات عصيبة هنا، حتى تخلّص من خوفه، خلوته هنا وعزيمته الحديدية جعلته وحشًا كاسرًا هو الآخر، كان ينظر إليهم مباشرة في أعينهم فيتراجعون خوفًا منه، يأمرهم فيسيرون خلفه كقطيع من الغنم.

-وكيف أدخل كيانات «الدّواسر» الأثيرية فيهم؟

-هذا أصعب ما حدث يا «حمزة»!

سألته متعجبًا:

-لماذا؟

هزّ «مَردان» كتفيه وقال:

-كان يسمح لهم بتخلله والانبساط في جسده في استسلام، ثُمّ كان يخلعهم كما ينفض القميص عن جسده ويدفعهم في أفواه الوحوش التي كانت تطيعه كالأغنام، أمّا زعيمهم «غيهبان» فقد حبسه في وحش من تلك الوحوش ثُمّ ذبحه بخنجره، فمات كلاهما في الحال، زعيم «الدّواسر» والوحش الذي كان يسكنه، ثُمّ سلسل البقيّة بيديه هنا، وبعدها ألقى «المجاهيم» الطلاسم على رؤوس تلك الوحوش.

قلتُ بفخر واعتزاز:

-كان جدّي «أبادول» محاربًا رائعًا!

-بالتّأكيد، كان جدّك حكيمًا أيضًا وهو يتعامل معهم بقوّته وبأسه وبخنجره الذي اختفى فجأة، ولم نعثر عليه، يقولون إنّ هناك من أعاده إليه! ويقولون إن ابنه عاد إلى المملكة بعدها بسنوات ومعه هذا الخنجر وآخر غيره، وسمعت أنّ حفيدًا من أحفاده استخدمه أيضًا.

هززت رأسي آسفًا وقُلت له:

-إلّا أنا! لم أُحضر هذا الخنجر للأسف!

-لعلّ خنجرك هذا أنسب لمهمّتك يا «حمزة»، والآن، أنت هنا لكي تتدرب على ترويض الوحوش لكي تعيد حبس «الدّواسر» فيها.

-كيف؟

بدأ العملاق يحدّثني عن تلك الوحوش، طفنا بالزنازن معًا ورأيتهم واحدًا تلو الآخر، كان قلبي يرجف أحيانًا، وينتفض أحيانًا أخرى، وفي كلّ مرة كنت أتراجع فيها كُنت أتذكّر وجه أخي «خالد»، وأحاول تذكّر كلّ نصائح أبي وجدّي، أتثبت بما ألتمسه من كلمات كنت لا أعرف معناها ومُرادها والآن فهمتها، حتى آيات القرآن التي كنت أصلّي بها تذكّرت معانيها فوقعت من قلبي موقعًا لم تقعه من قبل! وكأنّ تلك الرّحلة إلى هنا

كان لا بدّ من حدوثها حتى أفهم، وأتذكّر وأعي كل معنى من تلك المعاني، في ذلك اليوم لم أبت ليلتي هناك، بل عُدت إلى المكتبة وصحبت السيّد «هشام» وعُدنا إلى غابة «إِلبَيْلَسَان»، التقطت جمجمة «رَيْهُقانة» من تحت الشجرة وعدنا إلى قرية «أوركا» وبتنا ليلتنا مع «سَاهور» فقد كان مريضًا للغاية، عُدت في اليوم التالي لجبل «أمَانوس»، وتركت السيّد «هِشام» مع «سَاهور» يومًا كاملًا، بدأت أتعامل مع الوحوش وألمسها، وأُطعمها، فاعتادت على رؤيتي، كان «مَردان» يصف لي ما كان جدّي يفعله معها بالتفصيل، سألته كيف يعرف كل هذا وهل كان يلازم «أبادول» طوال الوقت؟ وكم كان عمره وقتها؟ فعاد إلى صمته الغامض كما أنّه تحدث بما يكفي وقد انتهى الأمر، وصار يتعامل معي بالإشارات والإيماءات! فلم أعد لسؤالي حتى يتوقف عن الإشارة ويعود لحديثه معي بصوته الغلِيظ الذي كنت قد اعتِدت على سماعه، مرّ هذا اليوم ثقيلًا، وعُدت بالأَسْطُرلاب إلى قرية «أُوركا»، كان السيّد «هشام» كثير النوم وخاصّة أنّه لا يستطيع الترحال كسابق عهده ولديه وقت فراغ طويل، بدا خاملًا ويائسًا كما لم يكن من قبل! وكان «سَاهور» قد شُفي من الحمّى وتحسّنت أحواله، لاحظت أنّه يسير بلا حذاء حديدي، وأنّه تخفف من ثيابه الثقيلة! فتعجّبت من حاله! كيف لا يطير في الهواء كما حدث عند البئر؟

وازداد تعجّبي عندما أخبرني فجأة أنّه يريد الزواج من «مُونارش» وطلب منّا أن نعيدها للقرية، لم أسأله عن سبب تغيّره، ولا عن سبب قراره المفاجئ، فهو شخص مُرهف الحسّ وشديد الحساسية، ولم أرغب في إحراجه، ورحلتُ مع السيّد «هشام» لنزفّ إلى «مُونارش» هذا الخبر السعيد وكنّا نعرف أنّها تُحبّه، وتركنا «سَاهور» وهو يُعيد ارتداء ملابسه الثقيلة وحذائه ليعود إلى قصر أمّه ويخبِرها برغبته في الزواج من «مُونارش»، كان أمر عودتنا لداخل قرية «أُوركا» يحتاج إلى تمهيد من «سَاهور»، فقد كان الملك «قاموس» غاضبًا منّي لأنني أخفيت «هُرهُور» عن

أعينهم، أراد أن يُساوم على حياته، ويكتب معاهدة مع حاكم «وَرَاشين» الجديد، ليضمن لشعب «أوركا» مكانة تليق بهم، وبأبنائهم الهُجناء.

تركت السيّد «هشام» في غابة «البَيْلَسَان» وعدت للجبل، وبدأ العملاق يحرر وحشًا في كلّ مرّة وهو يُمسك رأسه بخطّاف مُعلّق في عصا حديدية غليظة طويلة، كان يطلقه للحظات فأتأهّب لهجومه ثُمّ يوقفه فجأة، بدأت أقترب من تلك الوحوش أكثر فأكثر، حفظت رائحتهم، ولمست أنوفهم، وشعرت بحرارة أنفاسهم، وحفظوا رائحتي، وضعت يدي في أفواههم من الجانب بسرعة خاطفة كما علّمني «مَردان»، وأصابوني بالكثير من الجروح في ذراعي وصدري ووجهي بمخالبهم، لعقوا دمائي، وسال لعابهم على يدي.. كُنت أعود مغبّرَ الوجه ملطّخًا بالدماء وقد تحوّلت ثيابي إلى لون الطين حيث كنت أتصارع معهم وأسقطهم ويسقطونني، بدأت أستخدم خنجري وكنت أحاول التعوّد على المشاوسة والمهاجمة به، فهو سيكون أداتي لسحب الكيانات الأثيرية من سكان وادي «الفراديس» لأحبسها في أجساد تلك الوحوش، فلن أستطيع السماح لهم بتخلل جسدي كما فعل «أبادول»، لكنني سأحاول استخدامه كما استخدمه جدّي «كمال» مع ساحرات «ماذريون»، تكررت زياراتي لجبل «أَمَانوس»، ولـ«مَردان» الذي كان عالقًا في هدوءٍ بداخله رغم ما يدور حوله، لا يتحدّث إلّا بكلمات شحيحة، يحصيها من يحاوره على أصابعه، وعلى وجهه تقطيبة دائمة لا تتغيّر أبدًا، تخيّلت تلك الوحوش وهي تتصارع مع بعضها البعض، فسألت «مَردان» عن هذا بتلقائية، وددت أن يصف لي كيف يتقاتلون مع بعضهم، التفت «مَردان» تجاهي وطالعني بنظرة ثاقبة، ظننته يدعوني لكي أقترب من الوحش الذي حرره للتوّ وهو يتحكّم فيه بخطّافه، لكنني فوجئت به يُحرر وحشًا آخر منها، تأمّلت براثنه، وأصغيت للهاثه وقلبي يخفق بقوّة، بدأ «مَردان» يُحرّش الوحشين على بعضهما، وبدأ أحدهما يزمجر ويحوم، أمّا الآخر فكشّر عن أنيابه وبدأ يخرج صوتًا غليظًا من

أنفه اقشعر جسدي لسماعه، تراجعت ببطء وكانت دقّات قلبي تتواثب بين أضلعي... هل سيهاجمني الوحشان معًا؟ أم سيهاجم أحدهما الآخر أوّلًا فيقضي عليه قبل أن يلتفت تجاهي؟ ولماذا فعل «مَردان» هذا بي؟ لم أجرؤ على فتح فمي وسؤاله، فقد اعتراني الغضب لأنّه لم يخبرني أنّه سيفعل هذا الآن، وكان يقف ببرود عاقدًا ذراعيه أمام صدره وهو يراقبنا في صمت، بدأ الوحشان يتقافزان في ضجّة، كانا في حالة اهتياج ودار بينهما نِزال قاس، تدخّل «مَردان» ولطم أحدهما لطمة رهيبة على أنفه، فسالت الدّماء منها، ورماني بنظرة وكأنّه يُخبرني ألّا أخاف منها، عادا يتصارعان، وفاجأ «مَردان» الوحش الآخر بضربة قاسمة بمطرقته على ظهره فتحمّلها الوحش بدون زمجرة مما لفت نظري له، الآن أدركت أنّ أحدهما أكثر تحمّلًا من الآخر، وكان ذا رأس فراؤه أكثر حُمرة من ندّه، صرت أتابع حُمرته بعيني، كان يتحمّل الضربات في صمت، وكان الآخر كثير المناوشة، يخمشه من آن لآخر ببراثنه حتّى صارت ملطّخة بالدّماء، لن يكون النصر في تلك المعركة بكثرة الضربات، بل بأشدها قوّة، وأبلغها مقصدًا، وكان هذا ما يفعله الوحش ذو الحُمرة، يضرب ضربة ويقفز متراجعًا، وفي لمحة عين، كانت أسنانه الحادّة قد قطعت حنجرة الوحش الآخر، فانبثقت الدّماء من الجرح في دفعات نابضة وأغرقت الأرض تحت أقدامنا، وتسارعت دقّات قلبي، ورحت أنقل نظري بين الوحش ذي الحمرة وبين وجه «مَردان» الذي لمحت على فمه ابتسامة ساخرة، كادت الأرض تميد بي، وكأنّ هوّة انفتحت تحت أقدامي، وشعرت وكأنني ريشة تتأرجح في الهواء، حاولت جمع أطراف شجاعتي، واستعدت رباطة جأشي، لا مجال للخوف الآن، أنا وحدي أمام هذا الوحش الكاسر، و«مَردان» يتصرّف بطريقة غريبة، وقفت متأهّبًا لهجوم الوحش الذي كانت الدماء تقطر من فمه بعد أن التهم حنجرة ندّه الذي فارق الحياة منذ لحظات، وكان فراؤه ملطّخًا بالدّماء، حدّقت في عينيه اللامعتين، نسيت «مَردان»، ونسيت كلّ شيء أتيت من أجله، ونسيت مملكة البلاغة

ومن فيها، حتى أنني لم أفهم الكلمات التي كان يوجهها «مَردان» لي وكأنني أصبت بحالة من الجمود الفكريّ، سمعت فقط أنفاسه، ورأيت عينيه، وشممت رائحة الدماء المتساقطة من بين أنيابه، وقد خُيِّل إليَّ أنني أرى قلبه وهو ينبض تحت جلده، اقترب منّي فاقتربت منه، بدأ يحوم ويزمجر، فوجدتني أحوم وأزمجر مثله، كانت كلّ حركة له أثناء نزاله مع نده الفاني محفورة في ذاكرتي، قررت أن أهاجمه بطريقته، ليس المهم كثرة الضربات، إنّما الأهم أن تكون ضربات قاصمة، ثبّت قوائمه الخلفيّة فأدركت أنّه يستعدّ لوثبة فشدّدت قبضتي وفور أن وثب تجاهي لطمته بقبضة يدي على فكّه لطمة استجمعت فيها قواي قدر استطاعتي فأطحت به، لكنّه لم يمهلني وعاد وغرز مخالبه في كتفيّ فصرخت صرخة اهتزّ لها كلّ جزء في جسدي، وسقطنا على الأرض معًا، نتدحرج في عشوائية فوق الدّماء، وخلع مخالبه عن كتفيّ اللتين كانتا تؤلماني بشدّة، كاد يصل بأنيابه لحنجرتي لولا أنني ثبّت نفسي فوقه وغرزت أصابعي في عينيه ثُمّ وجهت لفكّه ضربة أخرى سمعت على أثرها صوت عظمة الفكّ وهي تقرقر، ثُمّ قبضت على عنقه بقوّة شديدة وأنا أصرخ، تصاعدت وتيرة زمجرتي وصراخي، وكنت أعصر عنقه بقوّة وأنا قابع فوق صدره، فغدا تنفّسه أبطأ من ذي قبل، وبدأت قواه تخور، ثُمّ غربت عيناه، وتوقفت أنفاسه، وأدركت أنني قد قضيت عليه، فقمت والدّماء تسيل من كتفيّ، والتفتّ تجاه «مَردان» الذي قال كلمة واحدة وباقتضاب شديد: «أحسنت»، وكُنت في غاية الغضب منه، جرّ «مَردان» جثّتي الوحشين واحدة تلو الآخرى تجاه حافّة الجبل وأطاح بهما، وعاد حيث كُنت أقف وربّت على رأسي، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أشعر فيها أنّه يشجّعني بحقّ، عدت بالأسطرلاب لأداوي جراحي، ومرّت الليلة ثقيلة عليّ.



وقف «سَاهور» أمام أُمّه ويداه ترتجفان، لا يدري لماذا ترتجفان، لم يكن خائفًا، لكنّه ولأوّل مرّة يشعر أنّه يحتاج إلى شخصٍ آخر ليحتويه، قال وهو يقتبس ابتسامة:

-سأتزوج.

رفعت الملكة «أهاليل» عينيها تجاه وجهه وبدا وكأنّها تتوقّع هذا، تصنّعت المفاجأة وقالت له:

-يا لسعادتي...ومن العروس يا «سَاهور»؟

ثبتت عينيها على شفتيه تنتظر اسمها! فقد رأت بنفسها نظرات «مُونارش» لابنها، ولاحظت توتّره وهو يتحدّث إليها، قال «سَاهور» في ارتباك:

-«مُونارش».

-ماذا! «مُونارش»؟ لا!

قال «سَاهور» بانزعاج:

-وما العيب فيها يا أُمّاه؟ ألم يكن هذا حلمك دومًا؟ أن أتزوّج فتاة تحبّني وتعتني بي وتؤنسني؟

قالت الملكة «أهاليل» بعصبية لم تنجح في إخفائها:

-لأنّها تختلف عنّا، «الحورائيات» جنسهن غريب يا بنيّ، كما أنّ الظروف هنا ليست ملائمة لها، هؤلاء الفتيات لا يستطعن العيش خارج غابة «البَيْلَسَان»، تقول إنّها تبحث عن أهلها وستعود إلى هناك، حتّى أنّها تتناول ترياقًا لكي تبقى على قيد الحياة هنا خارج الغابة!

هزّ «سَاهور» رأسه بثقة وقال:

-سأنتقل معها إلى هناك إن لزم الأمر، وسأعيش معها في غابة «البَيْلَسَان»، فأنا أحبّها.

قالت «أهاليل» باستنكار:

-كيف تُحبّها وأنت لم ترها؟

لاحت على شفتيه ابتسامة ساخرة وقال:

-وما حاجتي لرؤيتها بعيني وقد رأيتها بقلبي!

-يا بنيّ إنّها...

-إنّها ماذا يا أُمّي؟

قالت «أهاليل» بعد صمت قصير:

-لا تُناسبك

شعر «سَاهور» بالضّيق وقال لها:

-بل تُناسبني..أشعر أنّها تنتمي إليّ، «مُونارش» تخصّني يا أُمّي!

تلعثمت «أهاليل» قائلة:

-أقصد أنها..ليست جميلة، ملامحها فيها شيء غريب، هناك الكثير من الفتيات الجميلات من شعب «أوركا»، ولقد عُرض عليك الزواج منهّن مرّات عديدة، سعى إليك الآباء سعيًا لينلن شرف زواجك من بناتهم، وكُنت ترفض!

أشار لعينيه قائلًا:

-لستُ في حاجة للجمال الذي تتحدّثين عنه! أنا ضرير!

هزّت أُمّه رأسها وسألته:

-ما الذي أَعجبك فيها؟

ابتسم «سَاهور»، كان يتوقّع سؤالاً كهذا، سكنت ثورته وبدا أكثر هدوءًا، ثُمّ وضع يده على صدره وقال:

- عندما تُقبل أشعر بوجيف في قلبي، ذاك الوجع الخفيف الذي أستعذبه، لذّة تتخللها وخزة خفيفة هنا في صدري يا أمّي..شعور جميل!

ثُمّ أردف وقد تهلل وجهه:

-«مُونارش» لطيفة، أُحبّ سماع صوتها وهي تتحدّث وتُثرثر، خطواتها الرقيقة وهي تسير بجواري تجعلني أشعر وكأنني أطير معها في رحاب عالم خاص.

أشار بيده لطولٍ معيّن وقال:

-أظنّها تبلغ هذا الطول، فصوتها لا يرتفع عن هذا القدر، رأسها الصغير يوازي قلبي.

ثُمّ اقترب من أمّه وقال:

-صوتها وهي تُحدثك فيه احترام، وصوتها وهي تُحدّثني فيه خجل، وصوتها وهي تتحدث إلى «مُورفُو» فيه حبّ، وصوتها وهي تتحدّث لـ«هُرهُور» فيه براءة وعفوية، وصوتها وهي تتحدّث عن حياتها فيه دفء جميل، وصوتها وهي تتحدّث عن الحبّ فيه شغف!

قالت أُمّه بصوت رتيب:

-تزوّج من عشيرتنا يا ولدي، تزوّج فتاة تُشبهنا..

تراجع خطوة وقال وهو يقبض على عصاه بقوّة:

-تُكررين معها ما حدث معك من عمّي! وستؤلمينها كما تألّمتِ يا أُمّي!

فغرت الملكة «أهاليل» فاها، ووقفت واجمة، كانت جملته كلطمة على وجهها، طأطأت رأسها وران عليها صمت ثقيل، نعم، هي الآن تتحدث

كعمّه «عدنان» تمامًا، وتتحدث كما تحدّث أبوها الملك «قاموس» عندما أراد أخوها الزواج من فتاة من مدينة «وَرَاشين»، أدرك «سَاهور» ما يعتمل في صدر أمّه فأسرع ووضع يده على كتفها وهو يقول بصوت متهدّج:

-يقولون يا أُمّي إنّ الإنسان يقع في حبّ من يراه بعيني قلبه، ومن يجعله يُحبّ نفسه، وهي جعلتني أحبّ نفسي، وجعلتني أحبّها، وأحبّ أهلي وقريتي وعشيرتي أكثر، روحها التي لا تُشبه أرواح الأخريات تتخلل جوارحي، ضحكتها العفوية بصوتها الحاد والغريب أضحكتني، حتّى سكوتها اللطيف أستعذبه، أتدرين يا أمّاه؟ همس أنفاسها يلملم شتات نفسي المبعثرة، كلّ مرّة ألقاها أشعر أنني وُلدت من جديد، أنسى كلّ مرارة ذُقتها في حياتي، تتلاشى آلامي، وأكون طفلًا حتّى تنصرف.

عانق «سَاهور» أُمّه، فأخذت تمسح على ظهره بحنان، نسيت أنّها مرّت بما تمرّ به «مُونارش» الآن، دمعت عيناها، ورقّت له، وباركت رغبته في الزواج من «مُونارش».

وقفت «مُونارش» تتخبّط في ارتباك، فهي تتمنّى الزّواج من «سَاهور»، لكنّها خائفة!، قالت وهي تفرك كفّيها بتوتّر:

-أنا ضعيفة ورفيعة جدًا يا «سَاهور»، وقصيرة وأنت طويل، عيناي ضيّقتان، وفمي واسع، وأسناني دقيقة، وأنفي...

-لكنني أُحبّك..أقصد أنني بعد زواجنا سوف أُحبّك..أَقصد أنني أُحبّ كلّ ما فيك يا «مُونارش».

قالت بصوت مخنوق:

-لكنني قبيحة!

-بل جميلة.

احمرّ وجهه، وغَمرت حُمرة الخجل خدّيها، أنصت لصوت أنفاسها فأدرك ارتباكها فقال ليُهدئها:

-كُفّي عن الانتقاص من قدر نفسك يا «مُونارش»!

-رأيتك وأنت ترتقي في الهواء وتطير وتحمل «حمزة» لتُنقذه من بئر «درّواس»، أنت أكثر مني صفاء يا «سَاهور»، أنت رقيق الحاشية وتَستحقّ من هي أفضل مني!

خلع «سَاهور» حذاءه، وقميصه، وألقى الحجرين المربوطين حول جذعه، ووقف حافي القدمين على الأرض أمامها، لم يرتقِ في الهواء، رفع يديه وهزّ كتفيه غير مُكترثٍ وقال:

-ذاك حالٌ لا يدوم، أنا مثلكم جميعًا، تارة أُذنب وتثقل روحي، وتارة أندم وأستغفر فتشف روحي وترقى، وددت لو اختفت تلك الميزة، فهي تفضح حالي.

هزّت «مُونارش» رأسها بثقةٍ وقالت:

-كونها تلازمك يعني أنّ صفاء نفسك ونقاء سريرتك يغلب على جانبك المظلم الآخر، أمّا أنا....

أعاد «سَاهور» ارتداء حذائه الحديدي وربط الحجرين وارتدى قميصه وقال:

-أرأيت؟ يضطرّني هذا لارتداء تلك الملابس وربط هذين الحجرين على الدّوام، فاستعدّي يا زوجتي المستقبلية، فأنتِ ستتحملين هذا معي.

أربكتها الكلمة، «زوجتي»!! وقفت ترتجف أمامه، مرّ «حمزة» بجوارهما وكان يعلم أنّ «سَاهور» يحدّثها في أمر زواجهما، فقالت له:

-أخبره أنني لا أُناسبه يا «حمزة»، فهو يستحقّ من هي أفضل منّي.

عقد «حمزة» حاجبيه وقال بحزم:

-كفّي عن ترديد هذه الخُزعبلات يا «مُونارش»، هو يرغب بالزواج منك، وأنتِ أيضًا، فلم تضعين العراقيل الآن؟

كان «الدّيسق» يُحلّق فوقهما، لمعت عيناها فقالت وهي تثب من فرط الانفعال:

-«حمزة»، هل من الممكن أن يراني «سَاهور» بعيني «الدّيسق» ولو لمرّة واحدة؟

فغر «حمزة» فاه، فالفكرة لم تَخطر بباله، قال وهو يحدّق تجاه «الدّيسق»:

-لا أدري! لم تخطر ببالي الفكرة رغم أنني أعرف عن «الشهباء» والملكة «الحوراء»!

قال «سَاهور»:

-لا حاجة لي، رأيتُك بقلبي مرّات ومرّات يا «مُونارش».

قالت «مُونارش» برجاء:

-أرجوك يا «سَاهور»، فلنجرّب!

رفع «حمزة» عينيه تجاه «الدّيسق»، كان قد بدأ يشعر أنّ هناك رابطًا حسيًّا ينمو ويتعملق بينه وبين هذا الطائر الغريب، إنّه يشعر به وكأنّه يقرأ أفكاره، رفع «حمزة» ذراعه فأقبل «الدّيسق» ووقف على ظهر كفّه، سار «حمزة» مقتربًا من «سَاهور» وقال له:

-فلنجرب يا «سَاهور»

كرر «سَاهور» كلماته بإصرار:

-لا حاجة لي لفعل هذا يا «حمزة».

ألحّت «مُونارش» عليه قائلة:

-أرجوك يا «سَاهور»...أرجوك.

وقف «سَاهور» مستسلمًا بعد إلحاحهما، ووقفت «مُونارش» أمامه، ووضع «حمزة» «الدّيسق» على رأسه برفق، انتفض «الدّيسق» وبسط جناحيه، ثُمّ غطّى رأس «سَاهور»، مرّت لحظات قصيرة، ثُمّ لملم جناحيه برفق، وانتقل إلى كتفه «سَاهور»، فأضاءت عينا «سَاهور» الرّائقتان، ورآها أمام عينيه، قال وهو يختلج:

-أراكِ...أراكِ يا «مُونارش»! أنا أرى بعينيّ هاتين.

رفع يده وتحسس عينيه، قال «حمزة» بثقة:

-أخبرتني الملكة «الحوراء» أنّ الأمر غريب، وأنّك سترى بعينك أنت وليس بعيني «الدّيسق»، وكأنّه يهديك بصره وينقله لك، تستطيع رؤيته إن أدرت رأسك يا «سَاهور»

أدار «سَاهور» رأسه ورأى «الدّيسق»، مسح على رأسه بلطف، وعاد يتأمّل «مُونارش»، غمرت ابتسامة واسعة وجهه فازداد وسامة، كانت مُونارش» تضحك بانفعال كطفلة صغيرة وهو يقول:

-عيناك البندقيتان جميلتان، ضيّقتان كما تقولين لكنني أرى نفسي فيهما، وأنفك رقيق ولطيف، لا يبدو فمك كبيرًا كما وصفته! وأرى أسنانك مصفوفة كحبّات اللؤلؤ يا «مُونارش»، ابتسامتكِ رائعة، وأنتِ جميلة، لكنّك...

أجفلت وسألته بارتباك:

-لكنني ماذا؟

قال ضاحكًا:

-قصيرة جدًا.

ضحك الثلاثة وكانت «مُورفو» تراقبهم من بعيد وتضحك لضحكهم، قال «سَاهور» وهو يتمعّن في وجه «حمزة»:

-كما تخيّلتك، طويل القامة وقويّ البنية، وملامحك محببة للقلب، لقد سكنت الفؤاد يا صاح!

ثُمّ أشار تجاه «مُورفو» وقال:

-هذه «مُورفُو»، أليس كذلك؟

-بلى

أشارت إليه «مُورفو» كانت تكتفي بمتابعتهم دون أن تقترب، انطلق «الدّيسق» محلقًا بعيدًا عن «سَاهور» ووقف فوق رأس «حمزة»، وكأنّه كان يؤدي مهمّة وقتية فقط، انطفأت عينا «سَاهور»، طاف بقلبه حزن خفيف، ودّ لو رأى أمّه وأخاه «سِنمّار» فقد اشتاق لوجهيهما، لكنّه وضع يده على صدره سريعًا وقال بعفوية:

-يكفيني هذا القبس يا «مُونارش»، وها قد رأيتُك، والآن...تزوجيني!

قال كلمته وكأنّه يأمرها، وبأمر الحبّ استجابت صاحبة الفؤاد المتيّم...

في تلك اللحظة استيقظ السيّد «هشام» من غفوته وخرج من معبد «سَاهور» المتواضع، وهو يتثاءب ويمدّ ذراعيه ويتمطّع كالقطّ الكسول، ضحك «حمزة» عندما رآه، وأقبل عليه يُمازحه، بينما عاد «سَاهور» لصمته ليحصي أنفاس «مُونارش» وهي تسير بالقرب منه، من بعيد كانت «مُورفو» صامتة وعيناها تبرقان، وأخيرًا عثرت رفيقتها على الحبّ، فماذا ستفعل هي الآن؟



22

السّيف المقلوب

طرقة خفيفة على الرّأس، ودوار خفيف ثُمّ شعور بعدم الاتزان والهبوط يتكرر في كلّ مرّة ينقل فيها «الدّيسق» تلك المشاهد الحيّة لـ«حمزة»، هذه المرّة كان «الدِّيسق» ينقل لـ«حمزة» مشهد مبارزة «خلدون» و«فِراس» لبعضهما بالسيوف، كانا في أوج غضبهما، وكانا يتبارزان أمام كبار الحرّاس وفي غياب شقيقهما «أَشْهَم» في ميدان من ميادين القصر، كان «فِراس» يقول لأخيه «خلدون» وهو يختلج غضبًا:

-اضرب أيّها المهين.

بحث «خلدون» عن ردّ لاذع لإهانته، لكنّ حزنه على اختفاء ولده غلبه فقال:

-سأقتلك يا «فِراس» إن لم تفصح عن مكان ولدي.

صاح «فِراس»:

-وزوجتي؟ أين «سُندس» الآن؟ خسارتي أكثر فداحة من خسارتك.

قال «خلدون» ووجهه مضرج بحمرة الغضب:

-سيفوز «أَشهم» بكلّ شيء..وسنتحول إلى خنزيرين يربيهما بالقصر.

اشتبكت يداهما بالسيفين واقتربا بوجهيهما فزفر «فِراس» بحنق في وجه أخيه وقال:

- نحن في صراع المكسب فيه ليس مناصفة، لا يوجد تساوٍ بيننا، ولا مجال للتعادل، سنتقاتل، حتى نحسم الأمر، إمّا أنا أو «أَشْهَم»...أمّا أنت فهالك لا محالة.

دفعه «خلدون» بقوّة فسقط كلاهما على الأرض وهما يلهثان، قال «خلدون» وحاجباه يرتعشان:

-زوجتك الحمقاء دفعت لعرّافة لتقتل ابني.

قال «فِراس» وهو ينهض واقفًا:

-بل فعلتها «مَثابة» زوجة «أَشْهَم»، «سُندس» بريئة أيّها الأحمق.

قال «خلدون» وهو يرفع سيفه مرّة أخرى:

-لن تنطلي علي تلك الأُكذوبة، «مَثابة» لا تُحسن قتل عصفور، وكلّنا نعلم من خرجت من القصر وذهب إلى بيت السّاحرة مع وصيفتها، ونعلم أيضًا من وضع السمّ لأبي في الماء لقتله

انخرطا في مبارزتهما لبعضهما وأرهق كلّ منهما الآخر حتى صارا يتهاديان ويتمايلان، وكلّ منهما يتصبب عرقًا، يضرب ضربة بسيفه على سيف شقيقه ويتراجع، قال أحد قادة الحرس وكان يتابعهما مع رفاقه:

-يكفي هذا وليهدأ كلّ منكما وينحي سيفه جانبًا.

قال آخر بخبث شديد:

-قفا معًا كيد واحدة أمام «أَشْهَم»، فهو الخصم الحقيقي لكما، بسبب زيجته الحمقاء سيأتي هجين ليرث العرش بعده، أتصدّقون أنّ «هُرهُور» هذا قد يأتي يوم ويكون حاكمًا لـ«وَرَاشين»؟

توقف الأميران عن المبارزة وتبادلا النظرات في صمت، خرج «فِراس» أولًا وهو ينتفض غيظًا وتبعه المقربون منه، وبقي «خلدون» مع مستشاريه، سألهم بصوت واهن:

-هل هناك أخبار عن «هُرهُور»؟

-لا يا سيدي.

هزّ كتفيه بتشنّج وقال:

-اعثروا عليه، أشعر أنّ هناك يدًا خفيّة تعبث بالقصر.

قال أحد المستشارين:

-ربّما «أَشْهَم» و زوجته هما من اختطفا ابنك يا مولاي

حدّق «خلدون» في وجهه، وصاح والرذاذ يتناثر من فمه:

- ألقوها فورًا في بئر «دِرْواس»

خرج حرّاس «خلدون» ليحضروا «مَثابة» من جناحها المحفوف بالحرس، ليلقوها في بئر «دِرْواس».

عاد لـ«حمزة» بصره، كان يراهم لكنّه لا يسمع كلماتهم، أدرك أن الخلاف بينهم تصاعد وازداد، مرّ جزء يسير من النهار فعاد «الدّيسق» لينقل إليه مشهد «مَثابة» وهم يجرّونها نحو بئر «دِرْواس»، فوثب في مكانه وقال للسيّد «هِشام»:

-سيلقونها في بئر «دِرْواس»، وزوجها لا يعلم بنيّتهم

-من هي؟

-«مَثابة»! لا بدّ أن نذهب في الحال لإنقاذها

أحضر «حمزة» الأَسْطُرلاب والخريطة، وانتقل إلى مدينة «وَرَاشِين»، وكان الحرّاس يسيرون وهم يقبضون على «مَثابة» ليلقوها في بئر «دِرْواس»، اعترضت بنات الحدّاد طريقهم، وقفن بثبات وكلّ منهن تحمل سلاحها دفاعًا عن الأميرة التي لطالما قدمّت إليهن ولغيرهن العون، عرقلوهم وانضم إليهن البعض، وهاجت طيور «الوراشين» وأصدرت ضجيجًا أخاف أهل المدينة..

حملها «الحرّاس» وألقوها بالبئر رغم تلك المقاومة، وقتئذ وصل «حمزة»، وانطلق صوب البئر، ووثب فيه مجاورًا لـ«مَثابة»، اجتمع أهل «وَرَاشِين» ليشاهدوا الوحش وهو يلتهمهما، بدأ الحرّاس يرفعون الباب

الحديدي، قامت بنات الحدّاد ومعهن العديد من شباب مدينة «وَرَاشين» المخلصين للأميرة «مَثابة» صاحبة اليد البيضاء عليهم بِحماية السيّد «هشام» وهو ينزل حبلا ليخرج «مَثابة» من البئر، وصل «أَشْهَم» في تلك اللحظة وعاونه ليخرجاها بسلام، وبقي «حمزة» متأهّبًا بخنجره داخل البئر، أعاد «أَشْهم» الحبل وناداه ليخرج، لكنّه رفض هذه المرّة، قرر أن يقتل هذا الوحش، لتنتهي أسطورة البئر، ما عاد يرتجف من صوت زئيره، كانت زياراته للجبل سببًا في ثباته، رفع عينيه لأعلى وصاح بجسارة قائلًا:

-ارفعوا الباب.

لم يستجب الحراس لأمره، فانطلق أهل «وَرَاشين» المتحمّسين لزوال أسطورة هذا الوحش لأوّل مرّة ورفعوا الباب بأنفسهم، ووقف «حمزة» متأهّبًا أمام الوحش وهو يتقدّم منه ويزأر، ما عاد يخافه، كان ينظر في عينيه مباشرة، والعرق في جبينه ينبض، حدّث نفسه بأنها لحظة فارقة في رحلته تلك، إمّا أن يتغلّب عليه، أو...يتغلّب عليه! لا خيار ثانٍ سوى القضاء عليه!

وثب الوحش فانقض عليه «حمزة» وغرز الخنجر في فكّه من الأسفل، فهبط الوحش متألّما فوق «حمزة»، فغرز أصبعيه في عينيه وهو يسحب الخنجر، وأزاحه عن جسده وهوِ يزوم ثُمّ ضربه بكلتا يديه على رأسه، تذكّر كيف أخبره «مَردَان» عن «أبَادول» عندما كان يمسك بفكيّ الوحش وهو يهاجمه، فأمسك بفكّيه وأبعدهما عن بعضهما حتى جرحت يداه وسالت الدماء من بين أصابعه وهو يفعلها، أخرج المسحوق الذي أعطاه له كبير الأطباء ونفخ بعضه في عيني الوحش فأغلقهما وانزوى يحكّهما بمخالبه، صرخ «حمزة» مناديًا على الحرّاس ليفتحوا باب السرداب المؤدي لهذا البئر، فهرول شباب «وَرَاشين» في حماس يسابقون الحرّاس كما لم يحدث من قبل! وفتحوا الباب ليتسرب ضوء الشمس ويضيء الممر الزّنخ الرّائحة الذي طالما جرّ هذا الوحش جثث المظلومين والمقهورين

فيه، كان «حمزة» يجرّه جرًّا من طوق حديدي كان مثبّتًا حول عنقه منذ سنوات، سارا فوق الهياكل العظمية فأحدثت طقطقة وخشخشة وهي تتحطم تحت قدميهما، كان الوحش يسير متخبّطًا وهو لا يرى بعينيه، استجاب لصوت «حمزة» وتبعه أينما يوجهه، بقيت بوابة حديدية أخرى في آخر الممر، رفض الحرّاس فتحها فانقض عليهم شباب «وَرَاشين» ونجحوا في التغلّب عليهم وفُتح الباب، كان السيّد «هشام» لا يعرف سبب عدم قتله للوحش فسأله وهو يسير به ويداه ملطختانِ بالدّماء:

-أين تذهب به؟

رفع «حمزة» صوته وسأل أهل «وَرَاشين»:

-أين بيت الساحرة؟

لم يُجبه أحد، كانوا يخشونها، لكنّ طيور الوراشين أجابته، أقبلوا في صفوف، وحلّقوا بنظام، فأدرك «حمزة» أنّهم يدلّونه على بيتها، سار خلف الطيور تباعًا في مشهد مهيب وهو يجرّ الوحش الذي أرهقه لضخامة جثّته وصعوبة سيره وهو لا يرى بينما جرح فكه يؤلمه، توقفت طيور الوَرَاشين أمام بيت السّاحرة، فضرب «حمزة» الباب بقدمه، ودلف وهو يثقب عينيها الجاحظتين بعينيه الواثقتين، جرّ الوحش معه إلى الدّاخل بينما بدأت تردد طلاسمها الغريبة، فأخرج قارورة المسحوق الحارق وأفرغه بالكامل على رأسها فصارت تصرخ وتضرب رأسها بيديها وهي تصدر خوارًا مخيفًا، استلّ خنجره الحلزوني ووجهه نحو صدرها فخرج من جسدها طيفان مذبذبان بلونين مختلفين، رفع يده بالخنجر لأعلى أمام من يراقبونه بعيون يملؤها الهلع، استطاع لأوّل مرّة أن يسحب كيانًا أثيريًّا من كيان آخر قد احتلّه، بل كيانين أثيريين لساحرتين من ساحرات «ماذريون»، شهقت السّاحرة وسقطت على الأرض، فاستدار «حمزة» بذراعه وهو يشعر بثقله الشديد، ومدّ يده في جرح الوحش الذي لم تتوقف دماؤه ففتح الوحش فمه من الألم، وجّه «حمزة» الخنجر

نحو فم الوحش فاندفع الكيانان الأثيريان ودارا في مسارين إهليجيين ليدلفا في جسد الوحش القميء، وفور أن توقف المساران المضيئان الملوّنان، وحين أدرك «حمزة» أنّ السّاحرتين الآن محبسوتان في جسد هذا الوحش، مرر نصل خنجره الحادّ على عنق الوحش وذبحه، فسالت دماء الوحش على أرض بيت السّاحرة، صاح أهل «وَرَاشين» مهللين في حماس، وتكاثفت طيور الوراشين على الباب ودلفت في أفواج وتراصّوا فوق جثّة الوحش وعكفوا عليها وظلّوا ينبشون رأسه بمناقيرهم.

خرج «حمزة» من بيت السّاحرة ليقف أمام «أَشْهَم» ووجهه ملطخ بالدماء، وقال له بثبات:

-عدني ألّا يُقتل بريءٌ في مملكتك بعد اليوم.

تردد «أَشْهَم» قبل أن يُجيبه قائلًا:

-لكنني لا أُريد هذا الملك!

تجمهر أهل «وَرَاشين» وحملوا «أَشْهَم» فوق أكتافهم، وهتفوا باسمه، ثار أهل القصر، وأقبل «خلدون» و«فِراس» ومعهما المزيد من حرّاسهما، صرخ «خلدون» وهو يحتمي بحرّاسه:

-أنا الملك، وهذا حقّي.

قال «فِراس» بعصبية شديدة:

-«أَشْهَم»..أنت لا ترغب في هذا الأمر، وتعلم أنّ «خلدون» لا يصلح له، فليكن التاج لي، من أجل «وَرَاشين»!

ألقى الصمت رداءه على المدينة، انتظروا جميعًا ليتحدّث «أَشْهم»، قال أخيرًا وبصوت مرتعش:

-لم أر ابني «هُرهُور».

ثُمّ أردف وهو يكفكف دمعة سالت من عينيه:

-لم تفكرا في أُمّكما للحظة واحدة!

ثُمّ تغيّرت ملامحه وكان يختلج وهو يقول:

-ووضَع أحدكما السمّ لأبي ليقتله!

صاح النّاس يسألونه:

-من منهما؟ من فعلها؟ من؟

تعالت الأصوات تسأله عن الأمير الذي وضع السمّ للملك «عدنان»، ولم يُفصح «أَشْهَم» عن اسمه، قال بتأثّر:

-أكثر الخيانات ألمًا هي خيانة الأصدقاء، فما بالكم بخيانة الابن لأبيه!

طأطأ «أَشْهَم» رأسه في حزن بليغ، تقدّم «حمزة» ورفع صوته موجهًا كلماته لـ«خلدون» و«فِراس» وقال:

-أحدكما قتل أباه..تماما كما قتل هو أخاه من قبل!

أشارت كُبرى بنات الحدّاد لـ«فِراس» وهي تلوّح بمطرقتها التي لا تغادر يدها وقالت:

-زوجتك «سُندس» أرادت قتل ابن أخيك وذهبت لتلك السّاحرة المأفونة لتستعين بسحرها، اكتشفنا هذا ونحن نحقق بعد اتهامكم للأميرة «مَثابة».

واستدارت لتواجه «خلدون» وقالت له:

-وزوجتك «ميلاء» استأجرت قاتلًا محترفًا لقتل «سُندس»، كاد يشق بطنها بخنجره، لولا أننا رأيناه ونحن نتسلل للبحث عن الأميرة «مَثابة»، فاستجوبناه قبل أن نحطّم رأسه، كنّا في شرفة جناحها، وأنقذنا «سُندس» من بين يديه

صاح «فِراس» في تنمّر:

-أين هي؟

قالت صغرى بنات الحدّاد وحاجباها الغليظان يرتفعان في زهو:

-في مكان آمن.

أضافت شقيقتها المصارعة وهي تبتسم ساخرة:

-وإليك المفاجأة!.. لقد أنجبت «سُندس» فتاة جميلة تشبه أُمّها.

انطلق أهل المدينة يضحكون، قال «حمزة»:

-لا بدّ أن تُلغى تلك القوانين، الحكم لمن يستحقّه، وليس لمن ينجب الذّكور!

كان «فِراس» يقف متخشّبًا وطائر متربّص من طيور الوراشين يقف على رأسه، تراجع «حمزة» ونظر إلى «خلدون» و«فِراس» معًا وقال:

-وأنتما تبحثان عن «هُرهُور» لتهددا «أَشْهَم» بحياة ولده، وتُساومانه ليتنازل، رغم أنّه أخبركما أنّه لا يُريد التاج والملك والحكم، وتحاولان قتل زوجته «مَثابة» انتقامًا منّه!

وصلت «مَيلاء» مع كوكبة من حرّاس زوجها المخلصين له وكانت غاضبة، ثار الحرّاس فجأة وتعالت أصواتهم وقاموا بشنّ هجمة على «أشهم» ومن معه، وبدأوا يضربون بالسيوف، تسللت «ميلاء» وطعنت «فِراس»، غرزت خنجرًا في قلبه وصرخت مقهورة وهي تراقب دماءه وهي تنزف وقالت:

-قتل ولدي...قتل ولدي..

لفظ «فِراس» أنفاسه الأخيرة وهو يحدّق في وجهها، كانت «مَيلاء» قد تيقنت من قتل «فِراس» لابنها بعد اختفاء زوجته «سُندس»، بعد أن تعملقت شكوكه تجاهها وأنّها هي من تسببت في اختفاء الأخيرة، كما ظنّت «مَيلاء» أن القاتل المأجور نجح في قتل «سُندس» كما خططت من قبل، وقام بإخفاء جثّتها..

كان «خلدون» يتربّص بأخيه «أَشهم»، أسرع ليستغلّ الفرصة لتكون له الغلبة ويحمي زوجته، استلّ سيفًا وانطلق نحوه ليقتله، فانقضّت طيور الوراشين عليه من كلّ حدب وصوب، ألقى سيفه ووقف مشلولًا، تراجع النّاس، وخلت الأرض حوله، فاقترب «حمزة» برفق، كان يسير بخطوات هادئة، مدّ يده نحو الطيور، وبدأ يلمسها بأصابعه، وقف بعضها على يده فحدّثها قائلًا:

-كنتم هناك يوم مقتل الشّيخ «رَجْوان»، حاولتم منعه من الخروج، لكنّه رفض البقاء، ورفض الملك، وشهدّتم ما حدث بأعينكم

ثّم أردف قائلًا للطيور:

-وكُنتم تعلمون أنّ «هُرهُور» في قرية «كُروسكُو»، وحجزتموه هناك مع أهلها حماية له، حتى يستعيد أبوه رباطة جأشه ويفيق من حالة القنوط التي لازمته لسنوات حتى أنّه أهمل زوجته المخلصة «مَثابة»

ثُمّ التفت «حمزة» لـ«مَثابة»، وسكت هنيهة وأضاف:

-كنتم تعلمون أنّه في حالته التي مرّ بها لن يستطيع حمايته، وأنّ عمّيّ «هُرهُور» سيقتلانه، وربّما كان الملك «عدنان» سيأمر بقتله بنفسه حتى لا يصل عرق «أوركا» بأيّ طريقة لحكم مدينة «وَرَاشين»

انطلقت الطيور في نظام وبدأت تبتعد عن «خلدون» وأقبلت على «حمزة»، وصارت تتبع يده، لو رفعها ترتفع، ولو خفضها تنخفض معه، سار «حمزة» نحو «أَشْهَم» واقترب منه، وقال بصوت جهوري محدّثًا طيور الوراشين ليُسمع أهل المدينة كلّهم:

- هذه مدينتكم، فقوموا بحمايتها، وظللوا على ملككم الذي ترتضونه

انطلقت طيور الوراشين نحو «أَشْهَم»، وظللوه بأجنحتهم، ثُمّ قاموا بالوقوف على رأسه وكتفيه، وصنعوا حلقة حوله فوق الأرض، قال «حمزة» لـ «أَشْهَم»:

-هكذا فعلوا مع الشيخ «رَجْوان» منذ سنوات، لكنّه خرج من المدينة وتخلّى عن أهلها وعنهم، فلم يتمكّنوا من حمايته من غدر أخيه «عدنان»، لا تخرج من مدينة «وَرَاشين» يا «أَشْهَم»، فهؤلاء خلفك، اختاروك بأنفسهم، وبذلوا جهدهم لرعاية ولدك، والآن يحمونك!

ارتجّ بدن «خلدون»، كانت هناك بعض الطيور لا تزال تقف على رأسه، أحسّ بالقشعريرة تزحف عبر عموده الفقري، بدأ الهتاف يعلو، وكان أهل المدينة في حالة من الانتشاء والسعادة، فبعد أن تخلّصوا من العقاب الذي كان يخيفهم دومًا تحرروا من بعض خوفهم بعد هلاك وحش «دِرْواس»، الذي أفزعهم به هذا الملك الظّالم الذي قتله أحدهم بالسمّ، وقد يكون ولده، والآن صار هناك صوتٌ يُسمع له، كان «حمزة» يحفّزهم بكلماته، وكانت بنات الحدّاد يطفن حوله ويصحن مع نساء «وَرَاشين» مطالبات بملك عادل لينصفهن، وليرد إليهن كرامتهن التي انتهكت لسنوات طويلة، ازداد توافد أهل المدينة، وأخيرًا قبل «أَشْهم» أن يتوّلّى الحكم، تمّ إلقاء القبض على «ميلاء» لقتلها لـ«فراس» أمام الجميع، تميّز «خلدون» غيظًا وأخذ يسبّ أخاه «أَشْهَم» ويلعنه، لأنّه لم يستجب لطلبه ورفض إطلاق سراحها، وكان «أَشْهَم» حزينًا لفقد أخيه «فراس»... غاضبًا من «خلدون»، ما زال يحتاج دليلًا قاطعًا على أنّ «خلدون» هو من قام بتسميم والدهما، وكان ينتظر هذا الدليل ويترقّب اللحظة المناسبة ليواجهه. لزم «خلدون» جناحه وكان في حالة تخبّط شديد.

خضعت مدينة «وَرَاشين» للكثير من النّشاط، هناك موجة من التغيّرات ترزح المدينة تحت وطأتها، الشّعب في حالة ذهول من الأحداث المتسارعة الأخيرة..

طلب «أَشْهَم» برجاء من «حمزة» أن يُسرع بإحضار «هُرهُور» ليراه، فليس هناك داع للخوف بعد الآن، اجتمع أهل الثقة من مستشاري «أَشْهَم» وانضم إليهم الشيوخ، وبعض المخلصين والعقلاء ممن أسكتهم

الملك «عدنان» لسنوات بتهديده ووعيده، وتم تشكيل ديوان جديد، وعاد «هُرهُور» من غابة «البَيْلَسَان» حيث استخدم «حمزة» الأَسْطُرلاب ليعيده، بكى «أَشْهم» بكاءً شديدًا عندما رآه، فقد كان «هُرهُور» نسخة من أمّه، تمت مراسم التتويج بشكل درامي حيث خيّم الحزن على «أَشهم» الذي حزن لقتل أخيه «فراس» رغم ما عاناه منه في الفترة الأخيرة، تمّ تنصيب «أَشْهَم» ملكًا لـ«وَرَاشين»، قام الملك «أَشْهَم» بقلب سيفه، وغرزه بقوّة في أرض القصر، لينهي الصراع على السلطة للأبد، ودعا للمآخاة بين الشّعبين، شعب «وَرَاشين»، وشعب «أُوركا»، ووقف بقامته الطويلة والتّاج يتألّق على رأسه، والهواء يضرب بطرف وشاحه، والسّيف المقلوب يبرق أمامه كاللجين، وبسط ذراعيه وهو يتحدّث إلى الحضور، فبدا وكأنّه طائر بجناحين، وكانت «مَثابة» تقف على يمينه، بينما كان «هُرهُور» يقف على يساره، تذكّر «حمزة» الرّمز الذي رسمته «مسكة» في نهاية رسالتها، جناحان بديعان منقوشان بنقشين مختلفين ويفصل بينهما سيف بديع مقلوب، أخرج الرّسالة من حقيبته وتأمّل الشّعار الذي رسمته بقلمها الرّصاص، وابتسم وهو يتخيّل وجهها الطيّب الملامح، كان هو نفس الرّمز المنقوش على القلادة، ونفس الرّمز الذي يراه الآن حيًّا أمام عينيه، أعاد «حمزة» الرّسالة إلى حقيبته، ووقف يتفكّر، هل «خالد» بين الأمراء الثلاثة أم لا؟

قرر أن يبذل المزيد من الجهد ليتحقق من هذا الأمر، ما زال موت أيّ شخصيّة لشاب هنا يهزّ أركانه! ذاب السؤال في عتمة أفكاره، وانتشلته ابتسامة «هُرهُور» وهو يقف مطمئنًا بين «أشهم» و«مَثابة»، وكانت نظراتهما لبعضهما تقطر حبًا، شعر «حمزة» بكتاب «أوري» وهو يهتزّ، فأخرجه من حقيبته ليتفحّص جملته الجديدة التي نُقشت على الصفحة البيضاء أمام عينيه:

«للحبّ جناحان، فهو شراكة لقلبين، وعندما يُبسطان ويقبضان معًا يتزامن الخفقان، والوجيف، والرّجيف، والشوق، فتحلّق الروحان معًا بانسجام، وتبدأ عصافير الحبّ بالشقشقة بين الحنايا والضلوع».

مرّت السّاعات الأُولى صعبة، فقد كان «أَشْهَم» في اجتماعات متواصلة مع مستشاريه، ينظّم أموره، ويُصدر قرارات سريعة، دلف أخيرًا لغرفة زوجته «مَثابة» وقبّل رأسها ثُمّ عانقها وقال بتأثّر:

-سامحيني يا «مَثابة»

سكنت «مَثابة» في حضنه للحظات ثُمّ قالت بانكسار:

-ظننتك لا تُحبّني و...

قاطعها «أشهم» واضعًا يده بلطف على فمها وقال:

-بل أحببتك يا مليكتي، لكنّ جرح قلبي المتعب حجبني عنك، وحرمني من وصالك.

قالت «مَثابة» بخفوت وقلبها يهوي:

-أعلم أنّك كُنت تُحبّ «رَسيل»، وأنّ لها مكانتها التي لن أُنازعها فيها، وأنّها أوّل فرحتك، وأوّل دقّة لقلبك، لكنني أنا أيضًا أحبّك، لا أطلب إلّا غرفة من غرفات قلبك الطيّب لأسكنها.

طبع قبلة على جبينها الزّاكي وقال وهو يتأمّل عينيها الرّائقتين:

-بل كلّ غرفاته يا «مَثابة»، كُنت أحتاج لصفعة لكي أفيق وأُدرك أنّك غالية، وكان ما فعله «خلدون» و«ميلاء» بك بمثابة تلك الصفعة التي اهتزّ لها كياني وارتج لها وجداني

سالت دمعة من عينيها فالتقطها بيده وقال بحنوّ بليغ:

-عندما حُبستُ بأمر من «خلدون» في غُرفتي الخاصّة مرّت بذاكرتي كلّ اللحظات التي كُنّا فيها وحيدين، كلّ ارتعاشة ليديك الدافئتين بين يديّ الباردتين، كلّ نظرة عشق منك كُنت أتجاهلها عن عمدٍ لكي أهرب من الحِبّ، كل إقبال نبيل منك واهتمام آسر استقبلته ببرود وجفاء لكي أُسكتك، كُنت أخشى حبّك الفيّاض، وأشعر أنني لا أستحقّه لأنني أُفكّر بزوجتي التي رحلت عن عالمنا، ظلمتُك، وأوجعتك، وأحزنتك، وكُنت أعلم باهتمامك البليغ بكلّ ما يخصّني، تلك التفاصيل الدقيقة التي كُنت تهتّمين بها كُنت أعرفها، رأيتك في كلّ مرّة وأنت تتزينين لي وأعرضتُ عنك وبتُّ ليلتي محزونًا...وما كنت أدري لمَاذا أفعل بك هذا! أو ربّما كُنت أعاقب نفسي بحرماني منك!

أجلسها برفق وجلس أمامها وأمسك بيديها وقال:

-شعرت بيدك في كلّ مرّة كُنت فيها تحكمين الغطاء على كتفي في الليالي الباردة وكُنت أتصنّع النوم هربًا من عينيك، وأرهفت السّمع إلى صوتك الحاني وأنت تخبرينني هامسة أن...«أحبّك»..وكُنت أسرع بالهرب، حتى تلك القبلة التي كُنت تقتنصينها على رأسي كُنت أقرأ معناها وأتصنّع الجهل! أعتذر منك عن سنوات كنت فيها أسيرًا لنفسي فأوجعت قلبك، وأعدك أن يكون عمري القادم بين يديك أجمل، سأسمعك الحبّ، وأريك الحبّ، وأعيشه معك حتى ألفظ آخر أنفاسي، سامحيني...أحبّك.

أجابته بدموعها التي أغرقت كتفه، وغفرت له، وكانت «مَثابة» هي مثابته للحياة، وللحب، ولولده اللطيف الذي قرّت عينه برؤيته، وللحكم، ولعالم مدينته العجيبة التي ظللتها طيور الوَرَاشين، ولدنيا مملكة البلاغة التي يطير إليها المحاربون من كلّ مكان. مرّت عليهما لحظات حلوة، ونسمات معطّرة بالحبّ والشوق، كان صمتهما عن الكلام فيه الكثير من

المعاني، اقتربا من النّافذة يتأمّلان شوارع المدينة وقد بدأ الليل يزحف عليها بخفّة مع انسحاب تساقط المطر،كانت «مثابة» تضع رأسها على صدره وتحيط جذعه بذراعيها بينما كان شاردًا بعينيه وهو يقول:

-لا بدّ أن يُردم بئر «درّواس»، وسأقوم بإطلاق سراح السُجناء، وسأرسل بعثات للبيمارستان فقد أخبرني «حمزة» أنّهم يعلّمون الشباب الطبّ، وسألغي القوانين التي وضعها أبي، وسأساعد أهل وادي «الفراديس» من النوبيين المهاجرين على العودة لديارهم، وسأفتح أبواب المدينة لشعبِ «أوركا»

رفعت عينيها وشجعته بنظرة واثقة فأضاف وهو يتأمّل ملامحها الرّقيقة:

-لن تُظلم النّساء بمدينة «وَرَاشين»بعد اليوم، سينلن حقوقهن كاملة، ولن تُباع فتاة في سوق المدينة أبدًا، وسيعاقب من يفعل ذلك.

ثُمّ ابتسم قائلًا:

-سأوّظف بنات الحدّاد بالقصر ليكنّ بالقرب منك.

ضحكت «مَثابة» وقالت بمرح:

-أحسنت، فأنا أعشق هذا الثلاثي جدًا، كُن دومًا داعمات لي.

ثُمّ أضافت داعية له:

-أعانك اللّه على حمل الأمانة.

داهمتها نوبة قلق عندما تذكّرت ما عانته من «مَيلاء» و«سُندس» فسألته:

-هل من أخبار عن «سُندس»؟

-هربت من المدينة بابنتها، ما زالت تجد من يُعينها للأسف، وقبل أن أنسى...أتاني خبر موثّق أنها هي من قامت برشوة جارية من

جواري القصر لتضع السُمّ لأبي، وكانت تحيك مؤامرة لإلحاق التّهمة بـ«خلدون»، أرسلت خلفها من يتبعها..

-يا لها من ماكرة!

-انتبهي لنفسك، ما زال القصر يضم الكثير من المنافقين والمتلونين، سنحتاج وقتًا حتى نعيد بناء وهيكلة سكّانه.

هزّت «مَثابة» رأسها مُوافقة وقالت:

-قد تحتاج لمستشار تثق به، وأرى «سَاهور» يصلح لهذا، فهو عاقل وحكيم وأهل المدينة يثقون به ويُحبّونه، فاستعن به يا «أَشْهَم»

-سأفعل بإذن الله، وسيكون مُعلّما لـ«هُرهُور»

عاد ينقل عينيه متفحّصًا تفاصيل الشوارع التي بدت له من نافذة القصر هادئة ونظيفة بعد أن غسلها المطر الهتون، ثُمّ هزّ رأسه قائلًا:

-تحسّنت حالة أُمّي منذ وفاة أبي، أشعر أنّ هناك من كان يلعب في الخفاء ويسقيها ما يُذهب عقلها ويُمرضها، ويبدو أنّه توقّف خلال الأيّام الماضية.

قالت «مَثابة» بصوت حالم:

-لاحظتُ هذا، صارت نظراتها تضجّ بالحياة، وزال عنها الهوان واصفرار وجهها وتلك الرّجفة التي كانت لا تُغادر يديها!

-سأنقلها لجناح خاصّ، وسأدقق في اختيار من يرعاها.

ثُمّ مسح «أَشْهم» على رأس «مَثابة» وقال بحبور:

-شكرًا لأنّك كُنتِ تعتنين بها رغم قسوتي عليك يا «مَثابة»

قالت برقّة وعذوبة:

-لا بأس، فهي كأمّي، أتدري أنّها تذكّرت قلادة «هُرهُور»، وأنّها أخبرتني بأنّها هي التي خرجت خلف «رَسيل»، وأنّها ألبسته القلادة

بنفسها بعد ولادته وسلّمته للعجوز النوبية، ونصحتها أن تعود لبحر «حندس» حتى لا يقتلوها.

فغر «أَشْهَم» فاه وقال:

-كانت أُمّي دومًا تحاول الحديث معي عن «رَسيل»، وكانت تظنّها قد نجت بالفعل وأنّ لديّ أولادًا كثيرين يعيشون ببحر «حندس»، وكُنت أظنّها تهذي، وكانت طيور الوَرَاشين تنقر النّافذة في كلّ مرّة تبدأ في الحديث عنها، وتُصدر جلبة شديدة فكانت تصرخ وتضع يديها على أذنيها، وكان الأطباء يسقونها منوّمًا.

-يا إلهي!

-متى أخبرتكِ بهذا يا «مَثابة»؟

-اليوم، وأنت في الدّيوان، كُنت مشغولاً عنّا فأخذتُ «هُرهُور» ليراها، تعرّفت على القلادة فور أن رأتها حول عنقه، وأشرق وجهها عندما أدركت أنّه هو! بل وأخرجت من صندوق الحليّ الخاصّ بها نصفها الآخر، وضمّتهما إلى بعضهما البعض ليكتمل هذا النقش البديع، جناحان بديعان وسيف مقلوب يفصل بينهما، وأخبرتني أن أبحث عن شامة صغيرة بمنتصف ظهره فكشفت ظهره أمامها، ورأيناها معًا فشهقت وصارت عيناها تهميان بالدّموع، واحتضنته طويلاً، وانطلقت تغرقه بالقبلات، يبدو أنّها كانت تُحب أمّه للغاية.

أغمض «أَشْهم» عينيه وقال وهو يتنهّد بارتياح:

-الحمد لله الذي ردّه إلينا، الحمد لله

طرق «هُرهُور» الباب ودلف إلى غرفتهما على استحياء، أقبل «أشْهَم» عليه وضمّه في حنان بليغ، تأمّل القلادة حول عنقه وابتسم، الآن اجتمع الجناحان، هو وحبيبته «مَثابة»، وسيظللان على «هُرهُور» الذي كانت عيناه مشرقتين بعد أن لمس الحنان من أبيه بعد حرمان طويل، وقد

سكنت على ثغره ابتسامة رائعة بعد أن استراح لعطف زوجة أبيه وحنوّها عليه، كان قلبه الصغير يضجّ بالفرحة، الآن شُفيت جراح ظهره، وقلبه أيضًا...

نشر الليل عباءته الأنيقة الموشّاة بالنجوم على أرجاء مملكة البلاغة، وبدأت أضواء الشعل تتراقص في جنبات مدينة «وَرَاشين»، وكانت طيور الوَرَاشين تتراصّ على أغصان الأشجار بنظام لتُدفئ بعضها البعض، هبّت نسمات باردة ففاحت رائحة زهور الزنبق والسّوسن التي تملأ حدائق القصر، وحملت معها رائحة الحبّ.

توجّه مع السيّد «هِشام» لغرفتهما في القصر، فقد استضافهما الملك «أشْهَم»، وأصرّ على مَبيتهما إكرامًا لهما، بعد أن خلد «هشام» للنوم، جلس «حمزة» يفكّر طويلًا في أخيه «خالد»، كان يشتاق إليه، إلى عناقه، إلى حديثه، إلى رائحته، مرّ بذاكرته كلّ اللحظات الحلوة التي أمضياها معًا، وابتسم عندما داعبه الكثير من ذكرياتهما معًا، كما أنّه تألّم للكثير من اللحظات العصيبة التي اختلف معه فيها، كما يختلف أي شقيقين، ودّ لو أنّهما لم يختلفا يومًا ما، أخرج «حمزة» خنجره وأخذ يتأمّله، الآن صار قلبه أكثر قوّةٍ وبأسٍ من ذي قبل، يستطيع مواجهة «الدّواسر» وحده!

أخرج الجمجمة من الحقيبة فأطلّت «رَيْهُقانة» وتمثّلت أمامه، ظلّت تُلحّ عليه ليعيد الجمجمة إلى المقبرة، أطالت النظر إلى عينيه وقالت:

-ألهذه الدّرجة تخاف من دخول وادي «الفراديس»؟

قال وهو ينظر إليها ببساطة:

-لا!

قالت بصوت متهدّج:

-فلماذا إذًا لا تذهب الآن وتردّ الجمجمة لصاحبها!
ثُمّ أضافت بصوت حالم:
-كُنت شهمًا مع كلّ من التقيت بهم، وساعدت الجميع، «هُرهُور»، و«هشام»، و«مَثابة»، و«أشهم»، فلماذا ترفض مُساعدتي؟
قال «حمزة» بدون تردد:
-سأُساعدك.
قالت «رَيْهُقانة» بعذوبة:
-شكرًا لك، وبالمناسبة، أظن أن أخاك من الأُمراء الثلاثة!
هزّ «حمزة» كتفيه وقال:
-لا أظنّ!
قالت بتعجّب:
-ماذا! وكيف عرفت؟
رفع حاجبيه وقال لها:
-طالما أنتِ تتلصصين عليّ فأنتِ تعرفين بأمر رسالة «مِسكة» وما فيها.
-أنا لا أتلصص عليك، أنا....
قاطعها «حمزة» قائلًا:
-ذكرت «مسكة» في رسالتها أنّ الشخصيّة التي حلّت فيها تُشبهها في الظروَف، والطباع، وقد كانت تُعاني الوحدة بعد فراق زوجها، والشخصية كانت أيضًا وحيدة بعد أن هجرها زوجها، كما أنّهما كانتا من نفس العُمر، والأُمراء الثلاثة أكبر سنًّا منّي أنا وأخي، وهم متزوجون، ومعهم زوجاتهم، وأخي «خالد» لم يتزوّج بعد، كما أن...

- كما أنّ ماذا؟

-تاريخ الميلاد، فكلّ منهم تاريخ ميلاده مُختلف عن تاريخ ميلادي أنا وأخي «خالد»، ولقد سألت عن تاريخ ميلاد «سَاهور» و«سنمَار»، نفس الشّهر، ونفس اليوم، ونفس السّاعة من الليل، حتّى أنَّ الملكة «أهاليل» أخبرتني بتفاصيل طفولتهما كانت أمّي قد أخبرتني عن مثلها يومًا ما.

-يا لك من ذكيّ، ولكن، ربّما هناك من وُلد في نفس اليوم غيرهما، فشباب قريتي «وَرَاشين» و«أوركا» كثيرون

-«سَاهور» يعشق التّمر والحليب الدّافئ بالقرفة، وينام متكوّرًا كالجنين على شقّه الأيمن، كما أنّه شديد التدقيق في أفعاله وكلماته، وحصيف الرّأي مثل أخي «خالد»

-إذًا هو «سَاهور»؟

قال «حمزة» والحيرة تسكن عينيه:

-لكنّ «سَاهور» يأكل ثمار التوت بكثرة، وأخي «خالد» لديه حساسية من التّوت ولا يقربه، على عكسي أنا فأنا أعشق التّوت، كما أنّ «سَاهور» كثير الصّمت وليس هذا من طباع أخي!

-هل هو «سِنمّار»!

-«سنمّار» يعشق الكستناء، وماهر في فنون القتال والرياضة، ويضجّ بالحيوية والنشاط كأخي «خالد».

صفّقت «رَيْهُقانة» وقالت:

-ألم أُخبرك أنّه هو!

أغمض «حمزة» عينيه وقال وهو يطرق جبهته بأصابعه:

-لكنّه عنيد وشرس، ويُشاكس الفتيات، وليس هذا من طباع أخي «خالد».

ضحكت «رَيْهُقانة» وقالت:

-ربّما أخوك يشاكسهن وأنت لا تدري.

ثُمّ أردفت وهي تشير إليه بسبابتها:

-ستُصاب بالجنون!

سكت هُنيهة، كان يتعجّب من طريقتها التي بدأت تتغيّر أثناء حديثها معه، التفت تجاه السيد «هشام» وهو غارق في نومه، وقال وهو يحدّق في الجمجمة:

-حسنًا يا «رَيْهُقانة»، لا أعلم هل أنتِ صادقة أم لا، لكنني على أيّ حال سأذهب الآن إلى وادي «الفراديس»

صفّقت «رَيْهُقانة» وقالت بفرح:

-يا لك من مُحارب نبيل!

ثُمّ أضافت:

-أنت رقيق الحاشية، ودمث الخلق، كما أنّك...وسيم جدًا!

تلاشت من أمامه، كان يتعجّب من طريقتها في الحديث معه، والتي قد تغيّرت، نظراتها تغيّرت، حركاتها تغيّرت، حتّى نبرة صوتها تغيّرت، وكأنّها تتدلل عليه! هزّ كتفيه وأخرج الأَسْطُرلاب والخريطة، سيذهب الآن، كان مُندفعًا بجرعة من الحماس تملّكته بعد أن قتل الوحش ببئر «دِرْواس»، وربّما قد اغتر بنفسه! دارت الأرض من حوله، وظهرت الوشائج، فوثب كالأسد وتعلّق بواحدة منها.

23
«وادي الفراديس»

«حمزة».....

كان الظلام يلفّ وادي «الفراديس»، المطر يهطل بغزارة، صارت خطواتي أثقل وأنا أسير وسط الوحل، لأعيد تلك الكتلة العظمية المجوّفة إلى صاحبها، ترى من كان صاحب تلك الجمجمة؟ وأيّ عقل كانت تحتضنه؟ وأيّ روح كانت تسكنها قبل أن تموت وترحل وتهجرها لتكون وطنًا لـ«رَيّهُقانة»!

اشتدت الرّياح وصار سعف النّخيل يتكسّر ويتساقط من قوّتها، أغصان الأشجار السّاقطة على الأرض كانت تدور متزامنة مع الصوت المخيف للرّعد وتضرب ساقيّ وأنا أسير عكس اتجاه الرّياح نحو المدفن المهيب الذي يقع على أطراف وادي «الفراديس»، صعقات البرق كانت تنير المكان أمامي من آن لآخر، أطلّت المقبرة التي أخبرتني عنها «رَيّهُقانة» وكأنّ شاهدها الرّخامي المكسور يلوّح لي تحت ضوء البرق ليدلّني على مكانه، سرت نحوه وقد أنهكني كلّ ما مررت به، مددت يدي نحو سطح المقبرة وكان المطر قد اختلط بترابها فصار الرَّمْس[1] لينًا أسود شديد النعومة، كانت قدماي تغوصان وأنا أحمل الوحل بيديّ وألقيه خلف ظهري، فيجيء سيل المطر ويعيد سطح المقبرة مستويًا وكأنني لم أفعل شيئًا يُذكر، تعبت وسكنتُ في يأس ورفعت وجهي نحو السماء، سقط ماء المطر على وجهي واختلط بدموعي، ظهرت «رَيّهُقانة» مرّة أخرى كسحابة باهتة معلّقة في الهواء عقدت أصابعها ووضعتها تحت ذقنها وانحنت وأخذت تتوسّل إليّ لأساعدها، أعادت تجديد عهدها ووعدها بأن تكون في خدمتي إن حررتها، هززت رأسي لها لكي تتوقف عن الثرثرة

---

(١) الرَّمْس هو تراب القبر.

والبكاء، فقد كان صوتها يحرق رأسي، لفظ المطر أنفاسه الأخيرة فعدتُ أحفر، وأحفر، وأخيرًا بدأت أصابعي التي اسودت من الوحل تصطدم بسقف تابوت عتيق، رفعت يدي فتساقطت من بين أصابعي زخّات حالكة من ليل أرضيّ مدلهمّ، فاحت رائحة الموت! تحمّست وصرت أحفر بسرعة أكبر وكشفت سطح التّابوت، كان محفورًا على سطحه عبارات غريبة وقع في نفسي أنّها باللغة النوبية، لم أفهم كنهها، فوقفت حائرًا وناديت على «رَيّهُقانة» لتُخبرني بمعناها لكنّها لم تظهر! قررت فتح التّابوت، وفعلت! فصدرت منه رائحة قابضة وزنخة، وجدت هيكلًا عظميًا ملفوفًا في قماش متهلهل، ينقصه الجمجمة، فأخرجتها من حقيبتي وأعدتها بهدوء إلى مكانها، وهمست وأنا أُعيد وضع غطاء التّابوت:

-أرقد في سلام أيّها الغريب!

بدأت أعيد الرَّمْس الذي أخرجته فوق التّابوت، وإذا به يهتزّ ويرتج وكأنّ زلزالًا قد أصابه فجأة، سقطتُ على ظهري ورأيت ضوءًا ينبثق من تحت غطائه الذي ارتفع في الهواء ليخرج من تحته ظلّ كثيف عملاقٌ وأسود، شعرت بالاختناق، وكأنّ ملزمة تضغط على صدري وتخنقني، وارتفع جسدي في الهواء، كُنت مسلوب الإرادة وكأنّ روحي تصّعّد في السماء، ورأيت وكأنّ الضباب يغشى كلّ شيء حولي، تسارعت دقّات قلبي، وتناهي إلى سمعي همسات «رَيّهُقانة» وهي تردد طلاسمًا غريبة، ثُمّ انقطع اتصالي بالزّمان وبالمكان، وغرقت في الظلام، كانت عيناي مفتوحتين لكنهما مظلمتان، وكأنني فقدت بصري! سمعت صوت خفق جناحين، ظهر الرّمادي، قبض بمخالبه على كتفيّ ورفعني في السّماء، ناديته فلم يُجبني! ابتعد بي عن وادي «الفراديس» وأعادني لحدود قرية أوركا»، ثُمّ أنزلني برفق ووقف أمامي ونظر إلى عينيّ طويلًا، وأحنى رأسه، قال في كلمات مقتضبة:

-ربّما لن تراني بعد الآن، فالحاجز يزداد قوّة، وعبوره يؤثّر علينا، وقد نفقد حيواتنا ونحن نخترقه، لقد جازفت بعبوري لإنقاذك، فتلك المقبرة ملعونة ولا يفتحها إلّا السحرة لأغراض دنيئة.

قُلت في قلق:

-ظننت أنني فقدت حياتي عندما انقطع اتصالي بالزّمان والمكان وغرقت في دياجير مظلمة.

قال «الرّمادي» بصوته الرّصين:

-تزداد مهمّتك صعوبة يا بنيّ، الملكة «الحوراء» تبذل جهدًا كبيرًا لتُساعدك، لكنّ الرياح لا تحمل لها أخبارك كما اعتادت دومًا وهي تنصت لأخبار المُحاربين، لقد سَمعتُ طلاسمًا غريبة تُردد على مقبرة في وادي الفراديس وعلمت أنَّك هناك فأرسلتني فورًا إليك.

ثُمّ تقدّم «الرّمادي» خطوة وقال:

- هناك خبر هام! وقد يُحزنك!

-وما هو؟

-لقد قام «الدّواسر» بخطف حفيدا الملك «قاموس»...«سَاهور»، و«سِنمّار».

انصرف «الرّمادي» وحلّق بعيدًا وتركني في حيرة، هرولت نحو معبد «سَاهور» ووجدت السيّد «هشام» ينتظرني هناك، أخبرني بما حدث داخل القرية، وكيف دلفت عصبة من شباب «أُوركا» الذين أُخرجوا منها لأنّهم ملبوسون بالدّواسر، واقتحموا قصر الملك «قاموس»، وهددوه بقتل حفيديه، وطالبوا بتسليمك لهم في الحال، وعندما لم يعثروا عليك، قاموا بخطف الحفيدين، ولم يتمكّن حرّاس الملك «قاموس» من تخليصهما من أياديهم.

جلست في ركن أُحاول استعادة رباطة جأشي لكي أخطط لخطوتي القادمة، كان قلبي يخفق بشدّة، ربّما أخي «خالد» بين يد «الدّواسر» الآن!

بجبين يتفصّد عرقًا، وبنظرات يملؤها التصميم، وبقلب ينتفض انتفاضًا وكأنّه يدقّ طبول حرب قريبة، وبخطوات واثقة، وقد تبعثرت عواطفه في كلّ اتجاه فباتت فكرة واحدة تحتل دماغه،كان «حمزة» يقترب وحده...

لا بدّ من العودة لتحريرهما معًا، فلا مجال للشكّ أن أخاه «خالدًا» بينهما، إمّا هو «سَاهور» أو «سنمّار»، لم يكن الدخول إلى وادي «الفراديس» سهلًا، لكنّه لن يفقد أخاه «خَالد» هنا على أرض مملكة البلاغة، لن يتركه للموت، ولن يتخلّى عنه ليقع فريسة لمصير يُشبه مصير السيّد «هِشام»، الذي قد بدأ يشك في كونه زائرًا وصل إلى هنا كما وصل أخوه من خلال ممر من تلك الممرّات الغريبة.كان سكان الوادي الملبوسون بأجساد «الدّواسر» يقفون في سكون، لولا أعينهم التي كانت تروح وتجيء، وصوت أنفاسهم المتلاحقة لظنّهم تماثيلَ وأصنامًا مثبّتة على الطريق، تركوه يمرّ، سار بينهم بحذر متوجهًا نحو قصر «قلب العقرب»، كان فمه يختلج، لم يستطع النطق بكلمة، هو الآن وحده، ليس هناك من يربّت على كتفه، لم يظهر «المغاتير»، ولا «المجاهيم»، ولا «الزّاجل الأزرق» الذي حدّثه عنه أبوه، ولم ير «عُبيدة» و«مُوراي» اللذين أخبرته عمّته عنهما، حتى السيّد «هشام» ليس هنا الآن، وقد تلاشت «رَيْهُقانة» والتي صدق ظنّ السيّد «هشام» بها وكانت كاذبة مخادعة ولم تفِ بوعدها له، ولم تعاونه أو تقدّم إليه خدماتها كما زعمت، أو حتى أبلغت «المجاهيم» بحاجته إليهم هنا.. دلف «حمزة» القصر وصاح مناديًا عليهم بصوت جهوري مزلزل:
– هبّوا إليّ أيّها «الدّواسر»، ما عدت أخشاكم، أنا هنا الآن..أتيتكم بنفسي انقضّت عليه عصبة منهم وأمسكوه من ذراعيه، كان يحاول التملّص منهم، وكانوا يسكنون أجساد شباب «أُوركا» الأقوياء، فكان من الصعب

التغلّب عليهم، ضربات متلاحقة أطاحت به، استطاع أن يتخلّص منهم، تكوّر على نفسه وأمسك ببطنه متألّمًا من ضربة شديدة وجهت إليه، حاول أن يُخفي يده وهو يسحب الخنجر الحلزوني، وتذكّر كلمات كبير الأطباء في البيمارِسْتَان عندما أخبره أنّ الخنجر وحده لا يكفي، وأن القوّة في اليد التي تقبض عليه وتثق بقدرة اللّه وليست في الخنجر نفسه، عندما تلاشت كلّ الأسباب أدرك أنّ العون من اللّه وحده، أخطأ عندما كان يستأنس بصديقه النوبي، أو يطلب العون من السيّد «هشام»، أو ينتظر معجزة لتحلّ له مشكلته من «رَيْهُقانة» و «المجاهيم»، استطاع أن يُخرج الخنجر من حقيبته، بقبضة تثق بقدرة اللّه وليس بالوسيلة التي يمسكها، وقف أمامهم ببسالة، وصرخ صرخة اهتزّت لها أركان القصر، رأوا الخنجر في يده فتراجعوا، قال «قلب العقرب» وهو مستقرّ على عرشه أمامه:

-زئير الوحش لا يكفي لقتل الفريسة.

قال «حمزة» بثبات آسر:

-للوحش مخالب وأنياب، فلنتقاتل!

قال «قلب العقرب» بصوت يشبه الفحيح:

-حتى لو مات أخوك؟

قال «حمزة» وعروقه تنبض:

-حتى لو مات أخي، فذاك قضاء اللّه!

بحركة رشيقة خاطفة وجَّه نصله نحو منتصف صدر واحد منهم وسحبه للأعلى وكأنّه يقتنص خيطًا رفيعًا فبدأت تظهر لجسده هالة ملونة بدأت تُسحب تجاه نصل الخنجر وتدور في حلقات حلزونية، وبدأ الرّجل يصرخ و«حمزة» يتشبث بخنجره، انقطع صراخه فجأة وسقط على الأرض، أدرك «حمزة» أنّه خلصه من كيان أثيري كان يتملّكه، فاستدار

نحو الآخر ووجه الخنجر تجاهه، وكرر ما فعله، ظهر «مَردان» فجأة وكان لظهوره هيبة، كانت الوحوش تتبعه، بدأت الوحوش تلج القصر وتدلف من أبوابه، حلّقوا حول «حمزة» وبدأ يغرز كيانات «الدّواسر» الأثيرية في أفواههم، قضى وقتًا طويلًا وهو يسحب الكيانات الأثيرية، ويخوض معركة جانبية، ثُمّ يقترب وحش فجأة ويستسلم له ليستقبل سجينًا آخرَ من الدّواسر، لو رُوي له هذا من قبل ما كان ليصدّق كلمة مما يفعله الآن بيديه، وبخنجره، وبيديه في أفواه وحوش لم ير قبحًا كقبحها، ولكن ملامحها ما عادت مروّعة كما كانت من قبل، وبقلب صار الآن أقوى يقينًا من ذي قبل!

تساقطت أجساد شباب «أُوركا» الذين تحرروا من أسر «الدّواسر»، كان في حالة بائسة، وبدوا وكأنّهم مرضى، بدأوا يفيقون وهم يتخبّطون، وبعضهم يزحف على الأرض..

كان «سَاهور» و«سنمّار» مقيّدين بالأغلال، رنا إليهما بنظرة خاطفة فوجد «سنمّار» يحطّم قيوده بنفسه، لقد تمكن «الدّواسر» من اختراق جسده، فقد كان خوفه من فقدان أخيه «سَاهور» هو نقطة ضعفه التي جعلتهم يتمكنون منه، وصار صراع «حمزة» الآن معه! أرادوا تشتيت «حمزة» بدفعه للوقوف أمامه، وقف في حيرة وكان متعبًا للغاية، كان«سنمّار» يضحك بهستيرية وهو يقترب منه، أخفى «حمزة» الخنجر وبدأ يَثب ويقفز كما علّمه «سنمّار» نفسه من قبل في قرية «أوركا» على الشّاطئ، اشتبكا فأسقط «حمزة» «سنمّار» على الأرض وجثم فوق صدره، كان «سنمّار» يبدو متذبذبًا، تارَة يكلّمه بلسانه الحقيقي، وتارة يكلّمه بلسان الدَواسري الذي يلبسه، كان يصيح أحيانًا وهما يتصارعان:

«لا تستسلم»!

كان «سَاهور» يزوم كذئب وذراعاه يتخبّطان في قيدهما، لا يرى بعينيه ما يحدث لكنّه يرهف السّمع، وينصت إلى شقيقه «سنمّار» وهو يتصارع مع «حمزة»، صاح بصوت مرتعش وهما يتقلّبان على الأرض قريبًا منه:

«لا تقتل أخي أرجوك»

التفت إليه «حمزة» وقد جن جنونه..

هل هو «سَاهور» يناديه ألّا يقتل شقيقه «سِنمّار»؟

أم هو «خالد» يتوسّل لـ«سنمّار» حتى لا يقتله هو!

ثُمّ التفت تجاه خصمه «سِنمّار» الذي يُصارعه، ونظر إليه في حيرة، هل هو أخوه «خالد»؟ ولا يستطيع السيطرة على نفسه! أم ماذا؟ تركه وتراجع للخلف وصاح بانفعال:

-أيّكما أخي...من منكما «خالد»؟

بدأت عصارة الخوف تجري كخيط رفيع في دمائه، أحسّ بلسعاتها في كيانه، وقف «قلب العقرب» الذي كان يراقبهم ببرود وقال بتشفٍ وعيناه المسلوختان تثقب وجه «حمزة»:

-الآن أنت خائف من أن تفقد أخاك، وتخشى عليه من الموت، تلك هي نقطة ضعفك التي كُنت أنتظرها.

كان وقع كلمات «قلب العقرب» على «حمزة» كلدغة دبّور، دقّ قلبه بقوّة وتقلّبت عيناه في المكان وكأنّهما خرجتا من معقليهما، شعر أنّه يختنق، وأنّ هناك من يعصر قلبه عصرًا، تراءى له «قلب العقرب» بصورته الحقيقية البشعة، كان «حمزة» يشعر أنه ينسحق، وهناك من يتسلل في عظامه وتحت جلده، الآن سيسيطر عليه للأبد، الآن سيجعله عبدًا وأسيرًا له لينتقم من جدّه «أبَادول»...

بدأت الوحوش تزأر وتصدر عويلًا مخيفًا، فضرب «مَردان» الأرض بالمطرقة الحديدية التي كان يحملها فسكنوا كالخِراف أمامه، وفجأة! ظهرت «رَيْهُقانة» بصورة مختلفة، كان لها طيف أرجواني شديد الوهج، امتلأ المكان بالكثير من الفتيات اللاتي يشبهنها، أتت لتُساعده وتفي

بوعدها، كانت تدفع زعيم الدّواسر بعيدًا عنه، شعر «حمزة» بها وهي تسحبه من جسده، ثُمّ تخللته بطيفها الأثيري، لقد شعر بها في كلّ خلية من كيانه..

ابيضت عينا «حمزة»، وسحب أنفاسًا متلاحقة ومتوترة، رأى «أَشْهَم» يدخل فجأة وفي يده سيف مزدوج، شاهده وهو يقطع رأس الرّجل الذي كان زعيم «الدّواسر» يسكن فيه، ثُمّ رأى البعض من حرّاس قصر «وَرَاشين» يدلفون من أحد أبواب القصر، ما زال يشعر أنّه خائر القوى لكنّه يراهم ولا يقدر على الكلام، في تلك اللحظة أطلّ السيّد «هشام»، لقد جاء مع فيلق من حارسات الحدود، جيش من الحورائيات قد انتقل للوادي من غابة «البَيْلَسَان» لمساعدة «حمزة»، في دقائق قليلة كانت حارسات الحدود منتشرات في وادي الفراديس، يغرزن أشواكهن في أعناق سكان الوادي من الشباب الملبوسين بكيانات «الدّواسر» الأثيرية التي لم تُحرر بعد، قُتلت بعض الحورائيات بضربة واحدة من هذا وذاك، بالسيوف مرّات، وبالخناجر مرّات أخرى، وبضربات مُميتة على رؤوسهن، ولم تتوقف جهود الباقيات منهنّ وهنّ يَرين رفيقاتهن يتساقطن على أرض وادي الفراديس، فتلك رسالتهن، لا بدّ من حماية هذا المُحارب، لا بدّ من القضاء على «الدّواسر» ولن ينجح الأمر إلّا باتحاد الجميع، وكان أهل «وَراشين» قد عبروا الحدود فور أن رأوا «الحورائيات» بثيابهن الزرقاء يملأن الوادي، بنات الحدّاد كُنّ الأسرع وصولًا لـ«حمزة» بقصر زعيم الدّواسر، حملنه إلى الخارج، حررن«سَاهور» من قيده، وكان «أَشْهم» يبارز «سِنمّار» فقد كان يُحاول قتله.

خرجت «رَيْهُقانة» من جسد «حمزة»، ووقفت أمامه وهي تتهادى، وقف يحملق في صورتها التي تمثّلت أمامه، بدت له جميلة جدًا كما لم يرها من قبل، استعاد رباطة جأشه، وتوجه بخنجره إلى «سنمّار»، و«سَاهور»، وحررهما من أسر «الدّواسر» وأخرج الكيانين الأثيريين اللذين كانا

يُسيطران عليهما، والتفت نحو «مَردان»، وأشار له ليصعد بالوحوش جبل «أَمَانوس» ليلحق به ويُسلسلهم في مغاراته..

وقفت «رَيْهُقانة» أمامه وقالت وهي تنحني بلطافة:

–لقد وفَّيت بوعدي، فهل أنت راض عنّي يا أميري العزيز «حمزة».

–لستُ أميرًا، لا تطلبي رضاي حتّى تخبريني بحقيقتك، فما رأيته في المقبرة شيء غريب، وأظنّ وراءك سرًّا غامضًا.

قالت بعذوبة:

–ستظلّ أميري العزيز للأبد، فقد انتصرت في معركتك، وهذا يُعجبني، هيّا..أسرع إلى «مَردان».

ثُمّ عقدت حاجبيها وقالت:

–ولكن احذر، ما زال زعيم «الدّواسر» حرًّا، سيتتبعك مرّة أخرى، لو أردت أسر البقية، اقبض عليه، أو اقتله!

كاد يقول شيئًا لكنّها اختفت من أمامه في غمضة عين، وقف يراقب شباب «أوركا» وهم يتعرّفون على أقاربهم بعد تحررهم من أرواح «الدّواسر» التي كانت تسيطر عليهم، سار بينهم وهو يتأمّل وجوههم، لو كان «مُولي» هنا لسعد بتلك اللحظة، ولعاد مع أهله لديارهم.

اقترب السيّد «هشام» منه وحمل ذراعه على كتفه، كان «حمزة» متعبًا وما زال يشعر بدوار خفيف، سار «هشام» بجواره دون أن ينبس ببنت شفة، أخرج «حمزة» الخريطة والأَسْطُرلابِ وطلب من السيّد «هشام» أن يُحدد مكان الزنازن أسفلِ جبل «أَمَانوس» طالع «هشام» «حمزة» بنظرة ذات معنى، وأمسك الأَسْطُرلاب، ووضعه في بقعة محددة، فبدأت الوشائج تظهر، تعلّقا بها وانتقلا إلى قمّة جبل «أمانوس»!

كان «حمزة» متعبًا، لكنّه يثق بالسيّد «هِشام» ويعلم أنّه أحضره هنا لسبب وجيه، سأله بتلقائية شديدة:

-لماذا نقلتنا هنا يا سيّد «هشام»؟ لا بدّ أن نذهب للزنازن لنكمل المهمّة مع «مَردان».

نطق السيد «هشام» بصوت مزدوج وقد بدت عيناه كجمرتين مشتعلتين، قال بصوت يقطر حقدًا وغلًا:

-سُحقًا لك يا حفيد «أبادول».

أمسك بتلابيب «حمزة» وبدأ يضربه، في تلك اللحظة أدرك «حمزة» أنّ «قلب العقرب» زعيم «الدّواسر» قد تلبّس بجسد السيّد «هشام» فور أن قطع «أَشْهَم» رأس الرّجل الآخر الذي كان يسكن جسده، كان «حمزة» يصدّ ضرباته ويدفعه بعيدًا عنه، فهو لا يحبّ إلحاق الأذى بالسيّد «هِشام»، فهو يُدرك أنّه مسلوب الإرادة الآن...

كان المكان مخيفًا ومهيبًا، الأرض منزلقة، وسفح الجبل ينحدر ساحبًا أقدام من يتحرّك فوقه نحو الحافّة، هبّت رياح شديدة البرودة، كانا يلهثان بينما كانت الأبخرة تتصاعد من فميهما، بدأت ضربات السيّد «هِشام» تزداد وتكون أكثر قساوة، سالت دماء «حمزة» على وجهه، بدأ «حمزة» يناديه ويحدّثه ليكون أقوى ويتغلّب على الروح الأثيرية التي تتملّكه بسبب الخوف الذي يسكن قلبه، كان يعلم أنّ السيّد «هشام» قد أصابه اليأس والحزن، لإدراكه أنّ رحلة «حمزة» أوشكت على الانتهاء، ولا بدّ من فراق، وكان الحزن يقتات على قلبه، فبدأ «حمزة» يدكّ هذا الخوف داخله بكلماته القوية التي تحثّ على التفاؤل واليقين، ذكّره بحوارهما فقال له:

-ألم تُخبرني أنّك لن تكفّ عن المُحاولة؟ قاوم ولا تترك اليأس يتسرّب إلى نفسك.

زمجر السيّد «هشام» وقال:

-صه أيّها الأحمق.

صاح «حمزة» وهو يتلقّى منه المزيد من الضربات:

- أنسيت ما قُلته لي...»ستتخلّص من الخوف مع كلّ خطوة تخطوها، ومع كلّ تجربة تخوضها، ومع كلّ معركة تكسبها أو حتّى تخسرها»

توقّف «هشام» عن ضربه وحدّق في عينيه فانطلق يكمل ليشجّعه:

-لقد تخلّصت من خوفي، وساعدتني كلماتك تلك وحان الآن دورك! تخلّص من مخاوفك.

هدر «هشام» بصوت مشروخ:

-لست خائفًا.

صاح «حمزة» وهو يتفادى صفعات السيّد «هشام»:

-أين النداء الداخليّ الذي يدفعك لكي تستمرّ، ألم تخبرني أنّك تُحبّ ما تفعله؟ وتحبّ الترحال؟

ثّم رفع «حمزة» صوته وصاح قائلًا:

-أيّها الرّحالة...لا تستسلم!

بدأ «هشام» يستعيد قوّة نفسه، وتحدّث بلسانه الحقيقي، كان يودّع «حمزة» قائلًا:

-وداعًا يا «حمزة»، لقد أحببتك كابن لي.

وسريعًا ما انطلق يقهقه بلسان «قلب العقرب» مرّة أخرى قائلًا:

-سأقتلكما معًا أيّها الحقيران.

وعاد يقول بلسان «هشام» والدموع تنساب من عينيه:

-ليتني مُحارب مثلك، حتى متى سأبقى هنا! لعلّني كنت زائرًا كأخيك وعلقت للأبد!

انقلبت عيناه مرّة أخرى، واحتضن «حمزة» أراد كيان «قلب العقرب» أن يقفز معه من فوق الجبل ليسقطه ويميته، ويهلك جسده مع جسد السيّد «هشام»، ظلّ «حمزة» يُقاومه، وكان ينادي على السيّد «هشام» ليحثّه على مقاومة «قلب العقرب» الذي يتخلل كلّ ذرّة في جسده، استجاب «هشام» وعاد يسيطر على نفسه وصاح قائلًا لـ«حمزة»:

-اقتلني يا «حمزة»، لو قتلتني وهو بين جنبات جسدي سيفنى كيانه الأثيري للأبد.

-لا...لا.

علا «قلب العقرب» وسيطر مرّة أخرى على السيّد «هشام» ودفعه ليخنق «حمزة» بيديه، فازرق وجه «حمزة»، وضاقت أنفاسه، لولا «رَيْهُقانة» التي ظهرت فجأة، وفرّقت بينهما، فقد كانت تراقبهما عن كثب... اعتدل «حمزة» ووجه الخنجر نحو منتصف صدر السيّد «هشام»، فسقط على ظهره، وبدأ الكيان الأثيري لزعيم «الدّواسر» يتجمّع عند نصل الخنجر، وأخذ «حمزة» يسحبه وهو جاثم على صدره، وكان يرفع يده للأعلى، لكنّ «رَيْهُقانة» أقبلت ودفعت يدي «حمزة» وضغطت عليهما فأدخلت الخنجر في صدر السيّد «هشام» و«قلب العقرب» معًا وقالت:

-سحقًا لك أيّها الخاسر.

كانت «رَيْهُقانة» قد كرهت ما قاله السيّد «هشام» عنها ولم تنسه أبدًا، وكانت تبغض زعيم «الدّواسر» وتسعى للقضاء عليه.

شهق السيّد «هشام» وكانت عيناه تتقلّبان في السماء وكأنّه يرى شيئًا ما، انتفض جسده وكما لو أنّه أصيب بصعقات كهربائية، ظلّ «حمزة»

يُناديه، أخرج الخنجر من صدره برفق وتحسس جرحه، لم تسل منه قطرة دماء واحدة! قبض السيّد «هِشام» على يد «حمزة» وقال له:

-«بعض المعارك خُسرانها شرف يا صديقي».

لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يبتسم له، وبدأ جسده يتفتت كما لو أنّه ندف من الثلج الأبيض تتناثر وتتبعثر وترتفع وتطير وتذوب في بحر الضباب الذي يحلّق حول قمّة جبل «أمَانوس»، كان «حمزة» يرتجف ويختلج، نظر لـ«رَيْهُقانة» بحنق شديد وقال غاضبًا:

-لماذا؟

ضحكت ضحكة مريرة تقطر شرًّا ثُمّ تلاشت من أمامه، بقي «حمزة» وحيدًا فوق الجبل، مزّق مقتل السيّد «هشام» فؤاده وأتعبه، هو لا يعرف الآن أين اختفى جسده، لقد تعب من هذا العالم الغريب والسرمدي، أطبق عليه سكون ثقيل فانفصل عن الزّمان والمكان، لولا «الدّيسق» الذي أطلّ فجأة، ثُمّ نقل إليه ببصره صورة الوحوش وهي تزأر حول «مَردان»، تذكّر أنّه لم يتمّ مهمّته، فالتفت حيث كان «الأَسْطُرلاب» على الأرض، أسرع والتقطه ووضعه فوق الخريطة، وعاد إلى الزنازن أسفل الجبل، وبدأ يُسلسل الوحوش مع «مَردان»، ظهر «المجاهيم» لأوّل مرّة أمامه في موكب جليل، زال الحاجز الذي أخبره كبير حرّاس المكتبة أنّه فصلهم عن «المجاهيم» و«المغاتير»، وعاد لملكة البلاغة اتزانها، عاونه «المجاهيم» في التقاط كيانات من تبقى من «الدّواسر»، وسلسلوهم جميعًا، ثُمّ وقف زعيم «المجاهيم» ليلقي تعاويذَ خاصّة لإغلاق أقفال أصفادهم للأبد، زأرت الوحوش لآخر مرّة بصوت مروّع ومجلجل، ثُمّ سكنوا فجأة، وحمل «مَردان» مطرقته، وجاء لينحني أمام «حمزة» دون أن ينطق بكلمة واحدة، وسار نحو الضباب ليلتقمه بغموضه واختفى للأبد...

انصرف «المَجاهيم» بعد أن حيّوه مرّة أخرى عقب توافد الصّقور على جبل «أَمَانوس» حتّى غطوا سفحه في مشهد جليل، بسط «الرّمادي» جناحيه وغقغق بصوت عذب كان له رنيم عجيب، فطاروا فجأة في أسراب منظّمة، وبدأوا يحلّقون حول قمّة الجبل الأيهم العظيم، وكأنّهم يؤدون طقسًا ما! يرتفعون وينخفضون في تكتيك ونظام، وهم يغقغقون، وصدى أصواتهم يتردد في الأجواء، بدوا للناظر كمن يُنشد نشيدًا ملحميًا يحيّون به هذا المُحارب ويحيُّون معه الجبل الذي يقف عليه... «أمَانوس»، ذلك الجبل الذي ترك التاريخ على سفحه بصمات لا تُنسى، وارتفعت قمّته لتشهد الأهوال، حتى كهوفه ومغاراته سكنت فيها أسرار وأسرار، حتى الرّياح باحت له بما لم تبح به لأحد قطّ! اهتزّ الجبل فجأة، وكأنّه يتنفّس، وكأنّ له روحًا، وعينين، وأذنين، لكنّه برغم ذلك كله يعجز عن البوح والكلام! تأرجح «حمزة» في مكانه عندما اهتزّت الأرض تحت أقدامه، ثم سكن كلّ شيء حوله فجأة...

تقدّم «الرّمادي» من «حمزة» ليواسيه، كان يعلم أنّه حزين لمقتل السيّد «هِشام»، كان يقف كالصّنم ويُنصت لكلماته وجراح وجهه ويديه ما زالت تنزف الدّماء، لقد خاض «حمزة» الكثير من المعارك اليوم، اهتزّ كتابه في حقيبته، الآن بدأت الجمل تتوافد تباعًا وتظهر منقوشة بخطّ بديع على أوراقه، استردّ كتاب «أوري» كلماته بفضل هذا المُحارب النبيل، الّذي يؤمن أنّ الأخوّة أثمن ما في الوجود، ولن تطير القيم النبيلة وتُحلّق أبدًا إلّا بجناحين، متماثلين، متساويين، متوازيين، لا تفريق بينهما، لا بحكم الآخرين، ولا بالسّيف، تمّت المهمة أخيرًا وعاد «حمزة» إلى قرية «أوركا»، وكان قلبه يتمزّق حزنًا على صديقه الرّحالة.

24

هجين!

عاد «حمزة» إلى قرية «أُوركا» بعد أن قام بتسليم كتابه للمكتبة العظمى بعد استرداد كلماته، كان يبحث عن «مُورفُو» و«مُونارش» ليسألهما هل رأت إحداهما الهالة المضيئة فوق رأس أيّ شخص هنا أم لا، فقد استرد كتاب «أوري» كلماته، وتمّ تسليمه للمكتبة العظمى، ولا بدّ أن تلك الهالة المُضيئة ظهرت فوق رأس الشخصية التي حلّ أخوه فيها كزائر لمملكة البلاغة، كانت القرية تقيم احتفالاً رسميًا بزواج «سَاهور» و«مُونارش»، الزينة في كلّ مكان، الزهور البديعة بألوانها تغلّف كل شيء، كانت «مُونارش» تقف متألّقة برداء أرجواني اللون، له قلنسوة مذهّبة الأطراف بشكلٍ بديع، أكمام ردائها الواسعة كانت تصطف على حروفها فصوص من الياقوت الأحمر، أمّا «سَاهور» فكان وسيمًا في ثيابه الكتّانية البيضاء، وقد تمنطق بحزام فضّي اللون أهداه له جدّه، ووقف والابتسامة تضوي على ثغره، شباب الأُوركا يرقصون رقصات إيقاعية على صوت دقّات الطبول، والفتيات تثرثرن وتبتسمن من بعيد في خجل، الملكة «أهاليل» أكثر سعادة من ذي قبل، حتّى «السيّدة الملوّنة» أتت مع وفد من كبار الحورائيات إلى القرية لتُشارك «مُونارش» في احتفالها بزواجها، وكانت المفاجأة هي زيارة الملكة «الحوراء» للقرية ومعها ابنها «الزّاجل الأزرق» الّذي سعد «حمزة» برؤيته، فبعد سيطرة «حمزة» على «الدّواسر» وسلسلتهم في مغارات جبل «أمانوس» مرّة أخرى، استطاع «المغاتير» و«المجاهيم» ممارسة أنشطتهم بحرّية وعاد لمملكة البلاغة توازنها، استقبل الجميع «حمزة» بالترحاب وكان «سنمّار» أوّل من ركض نحوه ليُعانقه، اجتمع شباب الأُوركا وكانوا قد عرفَوا بقصّة شقيقه «خالد» الذي لا يعرف من هو حتّى الآن، كانوا يتلفّتون وكلّ منهم يسأل رفيقه، ربّما أنت، أو أنت، أو أنا! لماذا لا بدّ أن

يكون «سَاهور»، أو «سنمّار» بالذّات؟ بينما كان «حمزة» يُلح في السؤال على «مُورفُو» التي وقفت بجواره تحدّق فوق الرؤوس باحثة عن تلك الهالة المُضيئة، طلبت «الحوراء» الكلمة، فأنصت الجميع، قالت وكانت كل العيون معلّقة بوجهها:

-اليوم نختم رحلة مُحارب عزيز على قلوبنا، منح الكثيرين هنا حبّ الأخ لأخيه، قدّم المساعدة لغيره وكأنّه يقدمها لأخيه الذي هو من لحمه ومن دمه، وأنهى مهمّته، واسترد كتابه، وهانحن نقف أمام شعبين وهاهما الجناحان يجتمعان، وتوقف الصراع بالسيف للأبد، وتعلمون جميعًا قصّة «خالد»، شقيق «حمزة»، زائر مملكة البلاغة الذي يعاني بيننا اليوم وهو بين جنبات شخص هنا لا نعلم كينونته، ولكي يعود الجناحان معًا، ويجتمع الشقيقان، ويعود «خالد» من ممر «أمانوس» في سلام، قبل أن يُغلق هذا الممر للمرة الأخيرة، لا بدّ أن تضحي واحدة من الحورائيات بنفسها، وتلك مهمّة الحورائيات التي لا يتأخرن عنها، وقد أتت اليوم «مُورفُو» لتؤدي مهمّتها، ولهذا أطلب منكم السكون، والحضور جميعًا بوقوفكم أمامها لتتمكّن من التعرّف عليه، فنحن لا نعلم أين هو «خالد» الآن.

شاعت الفوضى وتعالت همهمات الحضور، الكلّ يريد أن يعرف كيف ستتمكّن «مُورفُو» من التعرّف عليه! وأخيرًا بدأ السكون والهدوء يزحف عليهم تدريجيًا، قالت مُونارش بتأثّر:

-ولكن...«مُورفُو»!

سالت دموع «مُونارِش» على وجنتيها وهي تحتضنها، وكانت «مُورفُو» متماسكة وتقف في عزّة وشموخ، تقدّمت لتحيي «السيّدة الملوّنة»، ثُمّ «الآنسة الزرقاء»، ونالت شرف تحيّة الملكة «الحوراء»، وهزّت رأسها وهي تنظر لـ«حمزة» الذي كان في غاية التأثّر، وقفت «مُورفُو» أمام أفراد الشعبين، ومرّت بعينيها على وجوههم، كان «سَاهور»، و«سِنمّار» أوّل

من وقف بالقرب منها، وكان «حمزة» يقف أمامهما ينتظر إشارة منها، يُريد أن يعرف في أيّ شخصية يقبع أخوه «خالد»، لمعت عيناها فأشارت برأسها لجهة ما، فاستدار «حمزة» نحو الجهة التي أشارت إليها ليرى من الذي تقصده، وفور أن استدار مرّ سهم بجوار كتفه ورشق في صدر «سَاهور»، كان «خلدون» هو الرّامي، تسلل بمعاونة مُريديه من القصر ليقتل «حمزة»، لكنّه أصاب «سَاهور» بدلًا منه، قال «خلدون» وهو يثقب «حمزة» بنظرة مقيتة بينما خدّه يرتعش:

-أنت السبب في كل ما حدث لنا أيّها المحارب اللعين!

صرخت «مُونارش» صرخة مزّقت القلوب، جنّ جنون «سِنمّار» وركض نحو «خلدون» وانقض عليه وقتله في الحال، بينما هرول «حمزة» نحو «سَاهور» وهناك فكرة واحدة تسيطر على عقله الذي كان يعمل كطواحين الهواء، أخرج الخريطة، ووضع الأَسْطُرلاب» على بحر «حِندس»، وكانت الملكة «أهاليل» بجوارهما، احتضن «حمزة» «سَاهور» ودماؤه تتدفّق من جرحه على صدره، تراجع الجميع عندما رأوا دوّامات الهواء تطوف بالشّابين، ظهرت الوشائج، فحمل «حمزة» «سَاهور» على كتفه وتعلّق بواحدة منها، وسقط في بحر «حندس» معه، وظلّ يغوص، ويغوص، لفّه الظلام من كلّ صوب، لامس القاع بيديه ومدده هناك، شعر «حمزة» بصدره يضيق، وكأنّه سينفجر، وشعر بضغط شديد على جمجمته، بدأ جسد «سَاهور» ينتفض وينتفخ ويزداد حجمًا، بينما كان «حمزة» يعاني، فتفرّقا تحت الماء، في قاع البحر المظلم، الذي لفّ «حمزة» بدياجيره وحلكته، ونظر الموت في عين هذا المُحارب عن قُرب، أراد أن ينطق بكلمة التوحيد ففتح فمه واندفع الماء إلى جوفه، ففقد وعيه في الحال.



على أرض مملكة البلاغة قد يختفي مُحارب، وقد يموت آخر، وقد يعلق بعضهم، وقد يعيش أحدهم بروحه وسيرته العطرة للأبد...

كان البحر ثائرًا وأمواجه تصطكّ ببعضها البعض، حوت رشيق كان يدور تحت سطح الماء، بفمه العريض بدأ يدفع جسد «حمزة» نحو السّطح، استطاع أن يضربه عدّة ضربات قبل أن يرفعه ليُنعشه، انطلق الحوت يمخر عَباب البحر وهو يحمله على ظهره، طرحه على الشاطئ بقوّة، وعاد يغوص، كان هذا هو «سِنمّار» الذي قفز في بحر «حِندس» بعد أمّه الملكة «أهاليل» التي غاصت فَور أن رأت «حمزة» وهو يضع «الأسْطُرلاب» على البحر، ففطنت لما يدور برأسه، وأدركت ما سيفعله ليُساعد ابنها «سَاهور» على التّحول لحوت بسرعة، تحوّلت هي الأُخرى لتبحث عن ابنها «سَاهور»، وكان «سنمّار» يعاونها، لازمت «سَاهور» وتركت «سِنمّار» لينقذ «حمزة»، كان وجه «حمزة» مزرقًا وقد توقفت أنفاسه، فبدأ «أَشهم» الذي كان أوّل من وصل إليه بعد أن طرحه «سنمّار» يحاول إسعافه، ضغط على صدره مرّات بيديه، ونفخ الهواء في فمه لعلّه يُنعشه، شعر باليأس فأخذ يضرب على صدره بقبضته ويصيح مناديًا عليه، ساد صمت ثقيل بدده «حمزة» بشهقة عميقة ليفتح عينيه، أفاق أخيرًا، وجلس يخرج ما بجوفه من ماء البحر المالح، وقفوا جميعًا ينتظرون ظهور «أهاليل» مع ابنها لعلّه يتحوّل إلى حوت من حيتان «أوركا» وينجو من الموت، طال الانتظار وكانت «مُونارش» تبكي مكلومة لما وقع في دقائق فقلبَ حياتها رأسًا على عقب، بكت نساء «أوركا» لبكائها...

اقترب «حمزة» من «مُورفُو» وقلبه يختلج، سألها بصوت واهن:

-هل رأيتِ الهالة المضيئة فوق رأس أحدهم؟

اتسعت حدقتا عينيها وهي تقول:

-نعم رأيتها.

سألها ودقّات قلبه تتواثب:

-فوق رأس من؟

قالت بحيرة:

-التوأمان «سَاهور» و«سِنمّار»

-أيّ منهما؟

-لا أدري!

-كيف هذا!

قالت بتوتّر شديد:

-كانت بينهما!

وقفا يتلجلجان في حيرة، وكان رأس «حمزة» يضجّ بالأسئلة، بدا وكأنّه على حافّة الانهيار، لن يستطيع الرّحيل قبل أن يطمئن على عودة أخيه. كان الجميع يراقبون سطح البحر، ظهر أخيرًا حوت، ثُمّ حوت آخر، ثُمّ حوت ثالث يتخبّط في حيرة، أخذ الثلاثة حيتان يصدرون صيحاتهم المنغّمة التي يعرفها أهل أوركا، تعالى صياح شباب «أوركا» ردًا عليهم، خفق قلب «مُونارش» لأنّها لا تفهم ما يقال، وكانت تحسّ أن هناك خطبًا ما، ابتعد حوت منهم فعرفوا أنّها الملكة «أهاليل» فقد توجّهت للجهة المخصصة لنساء الأوركا المتحوّلات، أسرعت لتستعيد هيئتها في ركن قصيّ بعيدًا عن الأعين، وبقي الحوتان الآخران في الماء، لم يخرجا من البحر وبقيا يصدران تلك الصيحات، ويتبادلان حوارًا مع رفاقهم على الشّاطئ، وكان الآخرون ممن لا يعرفون لغتهم يحتاجون للترجمة، بدت على وجوه أفراد الأوركا علامات الحزن، وكانت «مُونارش» تتنقّل بينهم وتسألهم في هلع:

-ماذا يقولان؟ من هذان؟ هل «سَاهور» بخير؟

لم يجيبوها إشفاقًا عليها، فأقبلت أخيرًا الملكة «أهاليل» بعد أن ارتدت ثيابها، كان وجهها مهمومًا وحزينًا، قالت في شجن:

-«سَاهور» بخير، جرح صغير في جسده، لكنّه لا يرى بعينيه، ويسبح بصعوبة، ولا يستطيع استعادة هيئته البشرية.

صاحت «مُونارش»:

-ماذا تعنين؟ أين هو؟ أيّهما «سَاهور»؟

انطلقت نحو البحر وأخذت تناديه بصوت يخنقه البكاء، اقتربت «أهاليل» منها واحتضنتها وقالت:

-هو يُحاول، لكنّه لا يستطيع الآن، بعض الحيتان تفشل في البدايات وتحتاج لتكرار المحاولة، وبعضها لا ينجح إلّا خلال الليالي الحنادس في أواخر كل شهر عربي، ونحن الآن في منتصف الشهر.

أجهشت «مُونارش» بالبكاء وقالت:

-وبعضهم لا يعود، أخبرني «سَاهور» بهذا من قبل، لن أره مرّة أخرى أليس كذلك؟ لن أحتضنه بين ذراعي؟ كُتب عليّ أن أحرم من الحبّ الذي عشت أحلم به، لو كُنت أعلم أن الفراق موجع لما أحببت.

احتضنتها «أهاليل» مرّة أخرى وقالت:

- سنُساعده، لا تنسي أنّه ضرير، وتلك أوّل مرّة، و«سَاهور» كان لا يرغب في التحوّل أبدًا إلى حوت كما تعلمين، اصبري يا ابنتي، اصبري.

كان «سَاهور» يصدر صوتًا غريبًا يُشبه البكاء، بدأت «أهاليل» تترجم لها كلماته، كان خائفًا، وحزينًا، ويشعر أنّ هناك من خلع قلبه من بين أضلعه، أخبرهم أن يُكملوا ما بدأوه لمساعدة «حمزة»، كان يفكّر فيه حتّى وهو في محنته تلك، استقرّ الحوتان قرب الشاطئ في ماء البحر، واجتمع

أهل القرية ومن حضروا من مدينة «وَرَاشين» أمامهما، ووقفت «مُورفو» مرّة أخرى، وهنا تقدّمت السيّدة الملونة وقالت بجدية شديدة:

-لا يا «مُورفُو» لن تكوني أنت هذه المرّة، فـ«مُونارش» تحتاجك، ربّما يستغرق الأمر شهورًا وسنوات عديدة، وربّما لا يعود «سَاهور»...

أجهشت «مُونارش» بالبكاء وخرّت على ركبتيها، مسحت «السيّدة الملوّنة» على رأسها والتفتت نحو «مُورفُو» وأضافت:

-ابقي معها يا ابنتي، كنتِ دومًا حارسة ذكية وشجاعة، وها أنتِ قد أشبعتِ فضولك ورأيتِ الدنيا خارج غابتنا، لا تتركيها حتى تطمَئنّي عليها، أو...

صمتت «السيّدة الملوّنة» هنيهة وأضافت:

-ستظلّ غابة «البيلسان» بيتكما الأوّل، عودا إليها إن شئتما في أيّ وقت.

ثُمّ استدارت تجاه «الآنسة الزرقاء» وقالت لها:

-من اليوم غابة البَيْلَسَان بين يديك، وأنتِ المسئولة عنها.

ثُم خلعت تاجها وألبسته إياها بإجلال، فانحنت «الآنسة الزرقاء» في وقار واستجابت لأمر ملكتها، بينما تقدّمت «مُورفُو» من «مُونارش» واحتضنتها ولازمتها، هزّت «الحوراء» رأسها في امتنان وقالت للسيدة الملوّنة:

-يا لها من تضحية عظيمة.

قالت «السيّدة الملوّنة»:

-هذا دَين في رقبتي، لقد أنقذ «أبادول» حياتي يومًا ما، ولا بدّ أن أردّ الجميل لحفيده، تلك رسالتنا

رفعت السيّدة الملوّنة ذراعيها في الهواء ومدّتهما، ومرّت بعينيها على وجوه من أمامها بحبور، وأطالت النظر للحوتين الساكنين في الماء أمامها، «سَاهور» و«سنمّار»، فقد رأت الهالة المُضيئة تدورهناك وهي معلّقة في الهواء، فابتَسمت ثُمّ أغمضت عينيها، وانبثق وميض متلألئ وأحاطها وتناثرت منه شظيات ذهبية مضيئة، وبرز لها جناحان عظيمان مضيئان، ازدادت توهّجًا، وحدث انفجار خفيف هبّت معه نسمات لطيفة تحمل رائحة أزهار «البَيْلَسَان»، واختفت السيّدة الملوّنة وتلاشت من أمام أعين الجميع، وبقي مكانها فراشة بديعة زاهية الألوان كانت ترفرف بجناحيها وهي تدور في الهواء، تعلّقت بها أنظار الجميع، طافت برؤوسهم، ووقفت هنيهة على رأس «حمزة»، ثُمّ لمست وجه «مُونارش» وكأنّها تلثمها برقّة، وانطلقت نحو البحر، وطارت مبتعدة حتى ابتلعها الأفق الرّحيب..

الآن عاد زائر مملكة البلاغة لوطنه كما عادت «مسكة» من قبل، الآن عاد «خالد» من خلال ممر «أمانوس» لبيته، فقد ضَحّت حورائيّة نبيلة بنفسها هنا من أجله، في تلك اللحظة كان السيّد «وَضّاح» يستعدّ لإغلاق ممر «أمَانوس» ومعه كوكبة من حرّاس المكتبة العظمى، أحدث إغلاق الممر دويًا مهيبًا سمعه أهل مملكة البلاغة جميعًا، هزّت «الحوراء» رأسها وتبادلت النظرات مع ابنها «الزّاجل الأزرق»، وزفّت الخبر لـ«حمزة» فتهلل وجهه، واطمأنّ على أخيه. امتلأت السّماء بالصّقور وحلّقوا فوق جبل «أمَانوس» العظيم، غقغق صقر منهم كان يتقدم السّرب، فكان لصوته صدى مهيب ارتجت له أركان الجبل، فرددت الصقور خلفه غقغقات مشابهة، فتداخلت الأصوات في إيقاع جميل، وكأنّهم يُنشدون نشيدًا خاصًّا تحيّة لهذا الجبل الأيهم، فقد شَهد هذا الجبل العتيق تاريخًا لا يُستهان به، ومرّ على سفحه الكثير من المُحاربين، وسيظلُّ «أمَانوس» شاهدًا على ما يُقدّمونه لمملكة البلاغة.

أقبل «الرّمادي» وكان «حمزة» يتلفّت في حيرة، أراد أن يرحل وكلّهم بخير يودّعونه، لكنّه الآن يرحل بقلبٍ موجوع، اقتربت «الحوراء» وكانت بومتها «الشهباء» مستقرّة على كتفها وهي تنظر إليه، بينما عينا «الحوراء» مفتوحتان على وسعهما كبحيرتين هادئتين ورائقتين، قالت وهي تربّت على كتفه:

-عُد إلى ديارك، فقد أديت مهمّتك يا بنيّ.

-لكنني...موجوع و...

طفرت دمعة من عينيه وقال:

- «سَاهور»، و«مُونارش» موجوعان أيضًا!

قالت «الحوراء» بتأثّر:

-بعض الأوجاع تُحدث في النفس انكسارًا يرقى بها في السّماء، وجع ينقيها من الأدران ومن الكبر، يجعلها تفيق على حقيقة الدنيا، ويُهيئها أحيانًا لأمر أكبر، وهما يُهيئان لخطب عظيم، وأمرٍ جليل، فاصبر يا بنيّ.

-والسيّد «هِشام»؟ هل من جديد عنه؟

قالت «الحوراء» بحيرة شديدة:

-لم يُعثر له على جثّة حتى الآن، هلكت الصقور والهداهد بحثًا عنه، ليس له أثر!

أشار «حمزة» إلى صدره وقال بتأثّر:

-لكنّه ترك أثرًا هنا

هزّت «الحوراء» رأسها بتفهّم، ثُمّ اغمضت عينيها وابتسمت ابتسامة لطيفة، أقبل «الزّاجل الأزرق» مع «أشْهم» لتحيّة «حمزة» قبل رحيله،

ودعه الحضور في إجلال وحبور، وأقبل «سِنمّار» مُسرعًا بعد أن خرج من البحر ليودّعه، عانقه طويلًا فهمس «حمزة» في أذنه:

-أخبر «سَاهور» أنني سأشتاق إليه.

هزّ «سِنمّار» رأسه وكانت عيناه ممتلئتين بالدّموع، كان «سَاهور» يقبع بهيئة الحِيتان وسط البحر، أطلق صيحة طويلة منغّمة بلغة الأوركا، كانت تُشبه النّواح! التفت «سِنمّار» تجاه «حمزة» وقال بتأثّر:

-إنّه يُقرئك السّلام.

دمعت عينا «حمزة» وهو يقول:

-لا شكّ أنّه يشعر بالوحشة.

-نحن لا نتركه، إمّا أنا أو أُمّي معه

شرد «حمزة» قائلًا:

-أخبرني سابقًا أنّه يخشى التحوّل إلى حوت لأنّه سيفتقد صلاته وسجوده.

ابتسم «سِنمّار» قائلًا:

-كلّ منّا يذكر الله على طريقته يا صديقي، أخي «سَاهور» لا يتوقف عن ترديد «لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كُنت من الظّالمين» منذ أن استقر على حاله كحوت في ظلمات بحر «حندس»

لمعت عينا «حمزة» وهو يبتسم، ورفع يديه استعدادًا للرحيل فحمله «الرّمادي» وحلّق به في سماء مملكة البلاغة، مرّ على بحر «حِندس» العظيم فرآه من أعلى لأوّل مرّة، ثّم بدت له مدينة «وَرَاشين» الدّائرية، ارتقت طيور الوراشين وشكّلت سربًا عظيمًا وتبعته، دارت حول «الرّمادي» في نظام بديع، ثُمّ تراجعت لمدينتها في سلام. انخفض «الرّمادي» عندما اقترب به من غابة «البَيْلَسَان» فارتفع فجأة سرب من الفراشات كان

يشكّل كتلة واحدة ثُمّ تبعثروا في السماء حوله فامتلأت بالألوان، وسريعًا ما عادوا لأشجارهم برقّة وعذوبة، ارتفع به مرّة أخرى وعبرا فوق القصور، والوديان، والقلاع، ونهر ريّان أخضر، وجبل «أمَانوس» الأيهم العظيم، ثُمّ الجبل الأحمر بقمّته الشهباء الّتي تبرز من وسط السّحب الحمراء التي تُحيطها، وقرى كثيرة، ثُمّ اخترقا ضبابًا كثيفًا، فأغمض «حمزة» عينيه مستسلمًا، وعاد أخيرًا لعالمه وحياته ليجد أخاه «خالدًا» يجلس منكسرًا بين أبويه في حالة يرثى لها والدموع تغرق وجهه، وقد دثّروه بالأغطية، فقد انتقل المسكين من بحر «حندس» مباشرة لمر «أمَانوس» ثُمّ لبيت جدّه فور أن قامت السيّدة المُلوّنة بتضحيتها العظيمة من أجله، كان يرتجف من شدّة البرد، ومن هول ما مرّ به وهو في هيئة الحيتان، هرع إليه واحتضنه، فأجهش «خالد» في البكاء كطفل صغير في حضن «حمزة» وقال:

-كُنت أعلم أنّك لن ترحل قبل أن تطمئنّ على عودتي.

فسأله «حمزة» بتلهّف:

-في أيّ منهما كُنت يا «خالد»؟

فقد «خالد» وعيه من شدّة التعب، ثّمّ أفاق بعد قليل واكتفى بالسكون في حضن الجناح الآخر الذي شدّ اللّه به عضده، وهدأ في حضن أخيه «حمزة»، لم يُجب عن سؤاله، وتركه يتخبّط في حيرته، كان أبوهما يقبّل رأسيهما، بينما انخرطت أمهما في البكاء وهي تلمس وجهيهما وكأنّها لا تُصدّق أنهما عادا بالفعل، قال «حمزة» لوالديه بانفعال شديد:

-آسف لأنني لم أصدّقكما! وددت لويعود بي الزّمن ولا أقول ما قلته لكما في أوقات يأسي وخوفي وغضبي وندمت عليه.

قال «أنس» بتأثّر:

-الحمد للّه، لم تخيّب ظنّي بك يا «حمزة»..كُنت أثق بك.

كانت الدّموع هي حروف لغتهم لساعات طويلة، ليس من السّهل أن ترحل قطعة من فؤادك إلى مملكة البلاغة! وليس من السّهل أن تعود أنت من هناك وتترك قطعة من فؤادك مع أحد سكانها هناك، وقد لا تراه مرّة أخرى!

انتفض «حمزة» عندما تذكّر شيئًا ما، صاح وهو يهرول تجاه مكتب جدّه باحثًا عن كتاب «مِسكة»:

-أين الكتاب الملعون؟ أين «القُلْقُطار»؟

وجد الكتاب على سطح المكتب فاستلّ خنجره وأمسكه بيديه الاثنتين ورفعهما عاليا وهوى بهما على الكتاب غارزًا حنجره فيه بقوّة وهو يقول:

-مُت أيّها الملعون...مُت للأبد.

انتفض كتاب «القُلْقُطار» وكأنّه جسد حيّ يختلج وينبض بالحياة، ثُمّ خرج من مكان طعنة الخنجر ظلّ لوجه قميء له عينان مسلوختان، تعالى صوت صراخ مهيب وكأنّها روح تنتزع من بين الصفحات، ازدادت كثافة الظلّ وامتلأت الغرفة به، ثُمّ دار في حلقات وبدأت صفحات الكتاب تدور بسرعة، وابتلع الكتاب كلّ شيء خرج منه، واصطفقت دفتاه ببعضهما بعنف شديد، وارتفع الكتاب في الهواء فجأة ثُمّ تبعثرت منه خيالات الأحرف العربية والنوبية وقد اختلطت ببعضها البعض، وتلاشى «القُلْقُطار» واختفى للأبد، قال «أنس» الذي كان يراقب «حمزة» وهو يقضي على هذا الكتاب الملعون:

-لم يُفلح حرق هذا الكتاب، ولا تمزيق غلافه وقص أوراقه، ولا بسكب المواد الحارقة فوقه ليذوب ويتآكل، جرّبت أنا وعمّك «يُوسف» كلّ شيء، وكنت أعود للبيت فأجده مرّة أخرى، وكأنّ هذا «القُلْقُطار» يتبعني!

قال «حمزة» وهو يعيد خنجره لحقيبته:

-تلك الكتب حيّة يا أبي، تتنفّس، تعيش، تشعر بنا!

ابتسم «أنس» عندما تذكّر «أبادول» وهو يقول له نفس الجملة، فقال بتأثّر:

-صدقت يا بنيّ، هكذا علّمنا «أبادول».

سأل «حمزة» عن «أبادول» وعلم أنّه في غيبوبة منذ رحليه، انتقلوا إلى المستشفى ظانين أنّ بعودة الحفيدين سيفيق الجدّ، كانوا يقفون في غرفته في حالة من الترقب والقلق، دلف الطبيب بمعطفه الأبيض، أعاد فحص مؤشرات الأجهزة الموصولة بجسد «أبادول» ودوّن بعض الملاحظات، سأله «حمزة» في قلق:

-هل هناك أمل؟

رفع الطبيب عويناته بطرف أصبعه وقال:

-لا تقطع الأمل أبدًا، المريض في الغرفة المجاورة كان في غيبوبة منذ سنوات بعد أن حاول الانتحار وألقى بنفسه من شرفة بيته بعد موت زوجته، فتمّ إنقاذه ليغرق في غيبوبته تلك، ولقد أفاق بالأمس فجأة!

سأله «خالد»:

-وكيف حال ذاكرته؟

قام الطبيب وهو يبتسم متوجها نحو باب الغرفة وقال:

-يتذكّر كلّ شيء، ورأسه يضج بالعلم، هذا المريض ثروة علمية عظيمة، فهو أستاذ جامعي، لطالما أخافنا هذا المريض باختفائه وظهوره وكأنّه يسير خلال نومه!

رفع الطبيب حاجبيه وقال:

-واحزروا ماذا؟ أفاق من غيبوبته ليكتب رواية! وسيسميها «أَمَانوس»

تسارعت دقّات قلب «حمزة» وسأله بتلهّف:

-ما اسمه؟

قال الطبيب قبل أن يغلق باب الغرفة عليهم بهدوء:

-«هشام»!

أطلت من عيونهم دهشة عارمة، وانطلق الحفيدان خلف الطبيب يتسابقان ودلفا الغرفة المجاورة، حيث كان السيّد «هشام» ينظر من النافذة وهو يبتسم، التفتَ تجاه الشّابين فور دخولهما، ثُمّ عقد حاجبيه وأخذ ينقل نظراته بين وجهيهما المتطابقين وقال بحيرة:

-من منكما «حمزة»؟

لم تطل حيرته، فقد كان وجه «حمزة» يحمل الكثير من الخربشات والجروح، وكذا ذراعاه وكفّاه، فأسرع يُعانقه، ثُمّ مدّ ذراعه لـ«خالد» أيضًا، ليجتمعا في حضنه.



25

النّهاية

مرّت أسابيع وشهور تحمل في لياليها الأخيرة دموع قلب يتفطّر حبًا وشوقًا لكلّه الآخر، وهناك في مملكة البلاغة، كانت «مُونارش تذهب لشاطئ البحر وتجلس طوال الليالي الثلاث الحنادس من كلّ شهر وتنتظر، كُسر قلبها مرّات ومرّات، وتوالت الشهور ودموعها تهمي وهي تحمل ركامًا من الأحزان، لم ينجح «سَاهور» في التحوّل مرّة أخرى لهيئته البشرية! لكنّها لم تيأس أبدًا وظلّت تنتظره.

وفي ليلة من الليالي الحنادس من شهر ما، وبينما كان الجميع في بيت الجدّ «أبادول» حيث أصرّوا على الانتقال لبيته بالفيّوم حتى يفيق

من غيبوبته ويعود لمنزله، كان «حمزة» يقف في الشرفة ويقلّب عينيه في السماء المدلهمّة باحثًا عن ضوء القمر فلم يجد له أثر، همس أخوه «خالد» في أذنه وهو يمرّ من خلف ظهره قائلًا:

-الليلة من الليالي الحنادس، لن يظهر ضوء الهلال..

-اشتقت إلى «أبادول».

-أخشى أن...

قاطعه «حمزة» قائلًا:

-أرجوك..لا تقلها...سيفيق بإذن الله.

-أرجو هذا.

ران عليهما صمت ثقيل، كانا ساكنين بجوار بعضهما يتأمّلان صفحة السّماء، وفجأة! شهق «حمزة» وشخصت عيناه للحظات قبل أن تعلو وجهه ابتسامة واسعة أدرك أخوه «خالد» معناها في الحال فوقف بجواره ينتظر البُشرى، كان هذا هو«الدّيسق» ينقل إليه مشهدًا جعل الدموع تسيل من عينيه، ها هو حوت عظيم يلقي بنفسه على الشاطئ في آخر ليلة من الليالي الحنادس من هذا الشهر العربي، وهاهو جسده الضخم ينتفض، وجلده ينشق، ها هو لحمه يذوب، وتلك عظامه تتفتت، والقلب الكبير ينبض ليظهر أخيرًا «سَاهور» ويستعيد هيئته البشرية، كان يزحف في حالة من الضعف، بدأ يسعل، ويُخرج ما بجوفه من ماء، ثُمّ يستقيم واقفًا على قدميه...

انطلق العجوز الذي يسكن هذا الكوخ الصغير القابع على الشاطىء وهرول نحوه ليمدّه بالثياب، ما زال «سَاهور» ضريرًا ويحتاج لمن يأخذ بيده، حاول «حمزة» الاتصال بالدّيسق بفكره كما فعل على شاطئ بحر «حندس» من قبل، أراد أن يدخل السّرور على صديقه «سَاهور» بشيء ما، فأدرك «الدّيسق» ما يرمي إليه رفيقه المُحارب، فانقطع عن اتصاله

بـ «حمزة»، ليقوم بتنفيذ ما طلبه منه، فقد كانت تلك نفحة من نفحات مملكة البلاغة ليطمئن قلب «حمزة» على صاحبه «سَاهور»!

وفي رحاب مملكة البلاغة، انطلق «الدّيسق» مُسرعًا ليقف على رأس «سَاهور»، وغطّى رأسه بريش جناحيه، ثم رفعهما وانتقل ليقف على كتفه، فأضاءت عينا «سَاهور» الرّائقتان كمحيط واسع لو رأيته لتمنيت البقاء فيه للأبد، سيلازمه الآن كما تلازم «الشّهباء» الملكة «الحوراء»، رأى «سَاهور» الآن حبيبته وزوجته «مُونارش» التي كانت في انتظاره، وضَمَّها فنَال من قَلبِها نَيّلاً، لتنهل معه من الحبّ نهلاً كما وعدها من قبل. التفت «حمزة» نحو أخيه «خالد» وقال بتأثّر:

-عاد «سَاهور»، رأيته بعيني «الدّيسق»

-توقّعت هذا، ولكن ...كيف يصل أثر «الدّيسق» إلى هنا؟

غضن «حمزة» جبينه وقال:

-يبدو أنّ «أبادول» لم يُخبرنا بكلّ شيء، ما زال يخبئ الكثير من الأسرار! سمعت «الرّمادي» يهمس له عند أوّل لقاء لنا في غرفة الأشباح، وفهمت أنّهما يلتقيان بطريقة ما ويريان بعضهما.

قال «خالد» :

-لم يُخبرنا أيضًا عن ساحرات «ماذريون».

-مملكة البلاغة عالم غريب وعجيب!

مضى «خالد» مبتعدًا عن أخيه، صاح «حمزة» مناديًا عليه:

-ألن تُخبرني في أيّ منهما كُنت تقبع يا صاح؟ طلبت منّي أن أحذر هذا بنفسي وقد احترت!

التفت «خالد» وقال وهو يضع يديه في جيبي بنطاله:

-تنقّلت بينهما أكثر من مرّة!

فغر «حمزة» فاه وقال:

-مـ..مـ..ماذا؟ متى..وأين...تعالَ هنا أخبرني!

أشرق وجه «خالد» بابتسامة وهو يقول:

-لا..لن أُخبرك.

عقد «حمزة» حاجبيه وهو يسير خلفه وسأله:

-هل أنت من رفعتني في بحر «حِندس» عندما كُنت أغرق؟

-نعم، وأنا من أخرجتك من بئر «دِرْواس».

ثُمّ التفت وقال ضاحكًا:

-وأنا من ضربتُ جبهتي بجبهتك في قرية «أُوركا».

انطلق «حمزة» راكضًا خلف أخيه يُطارده وهو يصيح:

-لقد أوجعتني!

تعالت ضحكاتهما، بينما كانت تتثاءب القطّة السوداء التي صارت تسكن حديقة «أبادول»، تلك القطّة تتلصص على أهل هذا البيت! تُري من يراقبهم بعينيها الخضراوين؟

وفي شارع آخر، حيث تفوح رائحة الرّطوبة، وقد اتشحت جدران البنايات باللون الرّمادي وصارت تنفح البرودة على ساكنيها، أضاءت الشموع في بيت «حسّان»، هذا الشخص غريب الأطوار الذي أعطى كتاب السّحر لـ«مسكة» منذ عشرين عام مضت، يبدو الآن أكبر عمرًا، وأكثر غموضًا، ما زال الوَشم الغريب على الجانب الأيمن من عنقه، وما زالت عيناه جاحظتين، وما زالت بشرته مشرّبة بصُفرةٍ مقيتة!

ارتعشت الظلال على جدار غرفته المكتظّة بالكتب، وعلى مائدة مستديرة يتوسّطها كتاب عجيب، نقش اسمه بشكل بارز على غلافه...«القَلْقَدِيس»! وكان هناك ست من الفتيات الفائقات الجمال،

والمُحبّات للقراءة، واقتناء الكتب، وشراء العتيق والمُستعمل منها قد انضممن إلى «حسّان»، كانت بينهن فتاة حسناء تعقص شعرها الأسود الطويل خلف رأسها وتجلس متأهّبة وتنظر إليهن بعينيها النجلاوين، جلسن بأعينهنّ الشّاخصة يتأمّلن غلاف الكتاب الذي يشبه الجلد البشري، داعبت أنوفهنّ رائحة العرق المنبعثة منه، وكأنّه كيان حيّ ينبض أمامهنّ، وكان هناك وشم غريب قد ظهر حديثًا أسفل أعناقهنّ، نطق «حسّان» بصوت مزدوج وردد بعض الطلاسم، ورددتها الفتيات خلفه في حالة من الخشوع، وكانت كلّ منهنّ تُمسك بيديّ الفتاتين الجالستين على جانبيها، يشبّكن أصابعهنّ في دائرة ليخلقن حالة من التواصل بينهنّ، وكانت أمّ «حسّان» التي بلغت السّبعين من عُمرها تدفع كرسيها المدولب بهوانٍ لتتلصص على الجلسة من ثقب الباب، سمعتهنّ يهتفن معًا في صوتٍ واحد:

«ماذريون»...«ماذريون»...«ماذريون»

فأجفلت من صوتهن وابتعدت عن الباب في هلع، توقفن عن الهتاف، فالتفتَ «حسّان» تجاه الفتاة الحسناء وسألها:

-من أين سنبدأ يا «رَيْهُقانة»؟

كانت قوّة زعيم الدّواسر الذي قُتل على أرض مملكة البلاغة قد انتقلت إليها، الآن هي حرّة بفضل «حمزة»، والآن هي أقوى من ذي قبل، واستطاعت الولوج إلى عالم آخر لتلحق بالفتى الذي عشقته، قالت بصوتها المخمليّ الفتّان وهي تحدّق في الكتاب أمامها:

-افعلوا ما شئتم، أمّا أنا فلا أريد إلّا «حمزة»!

تمت